العدد الاول

يناير (كانون الثاني)

السنة الثامنة

8ème ANNEE

No. 1. Jan. 1960

الآداب

مجلة شهرية تعنى بشؤون الفكر

بيروت

ص.ب ٤١٢٣ ــ تلفون ٣٢٨٣٢

AL-ADAB REVUE MENSUELLE CULTURELLE

BEYROUTH. LIBAN B.P. 4123

Tél. 32832

رئيس التحرير والمدير المسؤول

الدكتور سهيل ادريس

Rédacteur en chef et directeur

SOUHEIL IDRISS



أدبنا الثوري

بقلم الدكتور سهيل ادريس

لاسبيل الى الشك في ان الشعب العربي يعيش من تاريخه الحديث « حالة ثورية » لم يسبق له ان عاش مثلها عمقيا وزخما . فهو يواجه في كل مرافق حياته تمخضات جذرية يدعو اليها الطراز الحياتي الجديد الذي يفرض نفسه وفقا لتطورات عظيمة يجد العرب انفسهم مدعوين لاجرائها في انبعاثهم الجديد .

ان مفاهيم ديناميكية لاهبة هي التي تقود الامة العربية في بحثها عن ذاتها وتحقيق امكاناتها . وجميع هذه المفاهيم تستمد نسغها من ثورية واعية تعصف بالاوضاع السياسية والاجتماعية والثقافية التي خلفتها عصور طويلة من الانحطاط والتجمد والتحجر . ولقد ادرك العرب انهم لن يفيدوا شيئا اذا اقتصروا في سعيهم لبعث نهضتهم المرجوة على ان يعزوا اسباب تأخرهم الى اطماع الاستعمار ومؤامراته ، فلكي يكون الاستعمار قادراً على حبك هذه المؤامرات وتنفيذ تلك الاطماع ، فلا بد ان يجد الارض الخصبة لذلك، وهذا يعني في اخر المطاف ان نفوسنا هي من الضعف وفقدان الثقة والاستسلام والتواكل بحيث تبدو مهيأة لتقبل بذور الاستعمار ، وان الوسيلة الناجعة للتحرر من هذا الوضع هي العمل الدائب على تغيير نفسياتنا بخلق مفاهيم نثور بها على ذواتنا قبل كل شيء.

فالى اي حد شارك ادبنا وادباؤنا في خلق هذه المفاهيم ؟ اترى ادبنا قد اثر تأثيرا ايجابيا في خلق الوضع الثوري ، الذي يعيشه المجتمع العربي الراهن ، ام انه اقتصر على التأثر والتلقي والانفعال ، ثم اخذ يعكس ما تلقى ؟

الآداب

في سنتها الثامنة

عانت « الآداب » في عامها السابع من منع دخولها طوال السنة الى العراق العزيز ــ الذي نرجو ان تنفرج عنه الغمة قريبا ــ كما عانت من منعها ومصادرتها في اقطار اخرى . ولكن ذلك أكسبها مزيدا من ثقة قرائها في جميع اجزاء الوطن العربي. وهذه الثقة هي التعويض الحقيقي عن كل خسارة تلحق بالمجلة التي لن يكون طلب الربح المادي من اهدافها يوما .

وها هي « الآداب » في عامها الثامن ، وهي تعتز بانها لاتعتمد على اية مساعدة ، من أية جهة ، باستثناء مساعدة قرائها ، ومشاركة أصدقائها من الادباء . فاليهم وحدهم شكرها ، ووعد منها صادق بان تتابع سيرها في خدمة الفكر العربي .

ان من العسير تمييز قدر التأثر والتأثير ، فكثيرا مايمتزجان ويستبقان ، ولكن الملحوظ ان الادب قد فوجىء غير مرة ، باوضاع ثورية لم يدع اليها ، او ان دعوته اليها كانت من الضعف بحيث لاتخلفها بالضرورة . واوضح مثال على ذلك الثورة العربية الاخيرة في مصر ، فنحن لانعرف نتاجا ادبيا قيما ارهص بهذه الثورة او شارك في التوعية بها . وفي مثل هذه الحالة ، نجد احداث الحياة تسبق الادب الذي تقتصر مهمته عند ذلك على مهمة المرآة العاكسة .

ونحسب ان دور الأدب ، في هذه الفترة الحاسمة من تاريخنا الحديث، لا يمكن ان يجتزيء بالتلقي والتأثر ، بل هو في واقعه قد بدأ منذ ردح يسير يحمل رسالته التأثيرية ، ابتداء من هذه الاحداث التي فوجىء بها ،وكان متخلفا عنها. ونعتقد ان « الثورية » ستكون السمة الرئيسية لانتاجنا الادبي الحديث ، لان طبيعة الحياة العربية هي طبيعة التفجر الثوري الذي يرمي الى دفع الامة العربية دفعا جديدايبوئها مركزها الحقيقي بين الامم . وبوسعنا أن نؤرخ لهذه الثورية منذ كارثة فلسطين التي كانت مصدرا رئيسيا لجميع الانتفاضات التي عصفت بالوطن العربي ، في جميع مرافقة السياسية والاجتماعية والثقافية .

ونحن هنا لا يجدينا شيئا ان ندعو الى الثورة الادبية ، او الى تكثيفها لاننا لا نؤمن « بالالزام »، بل نؤمن « بالالتزام » الذي ينبع من تلقائية الاديب ، ولا بد للاديب من ان يكون ملتزما اذا عاش قضية عصره وقضايا مجتمعه .

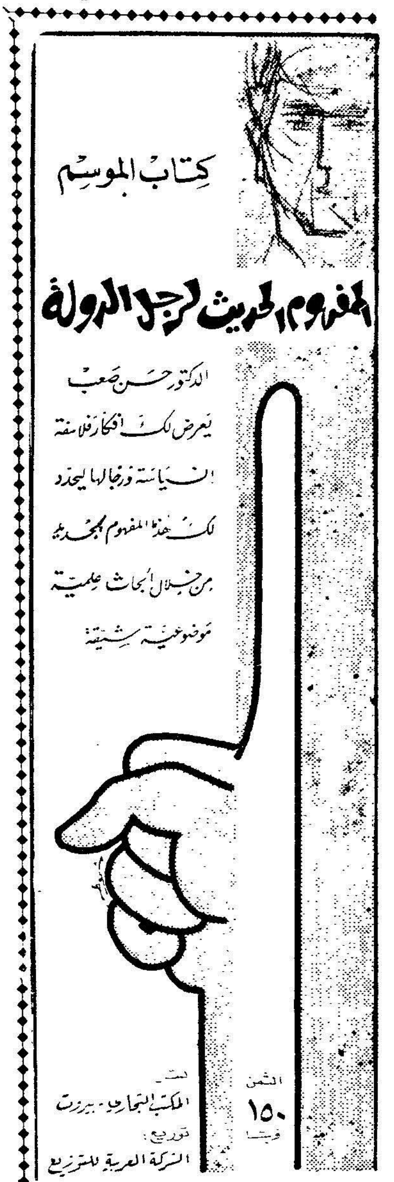
على ان ذلك لا يغنينا عن الاشارة الى ان اخطر قضية يواجهها الادب العربي الحديث ، في فترته الثورية هذه ، هي قضية « حرية الفكر » . فما دام الاديب مدعوا ، بطبيعة الفترة التي يعيشها، الى ان يشارك في قلب مفاهيم بالية واحلال مفاهيم ثورية محلها ، فانه لن يتمكن من اداء رسالته اذا لم يضمن له قدر كاف من الحرية الفكرية التي لانجاوز الحق اذا ذهبنا الى أنها غير متوفرة في معظم البلدان العربية . وهذا يقتضي من السلطات الحاكمة ايمانا عميقا بقيمة الفكر ، واستعدادا للدفاع عنها وحمايتها من العابثين، كما يقتضي من الشعب ان يذود عن حمَلتها اذا ما تعرضوا لاي اعتداء ، بسبب من الجهر بآرائهم . (✶)

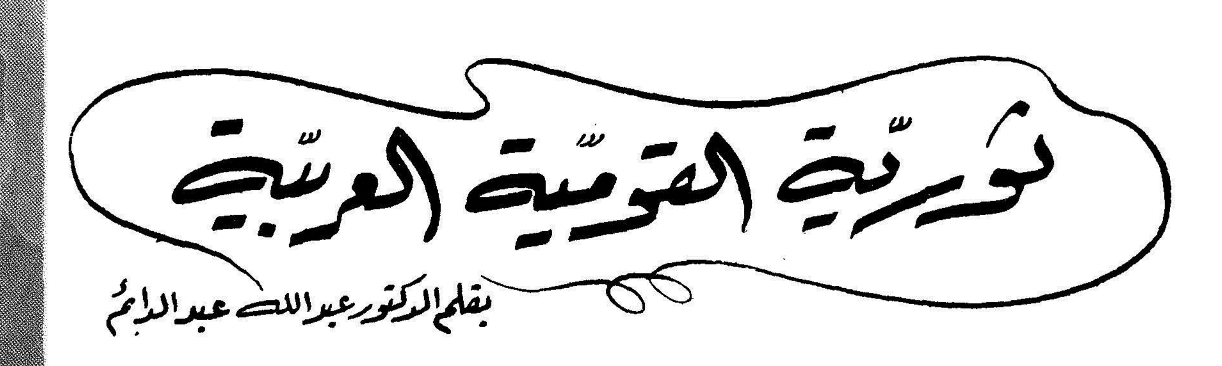
فاذا ما توفرت هذه الحرية للمفكرين وضُمنت للادباء ، فلا شك في ان هذه الفترة الثورية من انتاجنا ستشهد ألمع عهودها وتسجّل نقطة تحول هامة في تاريخنا الادبي .

وفي هذه الحالة فحسب ، سيتاح للادب العربي الحديث ان يساير جميع المراحل الثائرة من تطور المجتمع العربي ، بل سيرهص بها ويدفعها ويعجّل في ولادتها فيؤدي بذلك افضل رسالة يمكن لادب ما ان يؤديها .

سهيل ادريس

(✶) **تعرضت منذ اسبوعين الى التهديد بالقتل من قبل بعض الرجعيين الذين يزعمرن انهم يدافعون عن الاسلام ، على أثر خطاب القيته في مهرجان اقامه حزب الكتائب في بيروت ، ودعوت فيه الى الوحدة الوطنية على اساس الايمان بالقومية العربية ، والتفريق بين العروبة والاسلام ، ومهاجمة المغالين من المسلمين والمسيحيين في لبنان ، وعلمانية الدولة . وانتهز هذه الفرصة لاشكر جميع المفكرين اللبنانيين الذين اتصلوا بي شخصيا او برقيا او هاتفيا ليدعموني في موقفي ، مما يشجعني على المضي في النضال من اجل القضية العربية والحرية الفكرية .**





الثورة كلمة عريضة ، دب اليها كما دب الى غيرها من الشعارات الذائعة ، غموض وقلق . وليس المجال ههنا مجال تحديد معانيها . ومثل هذا المطلب ليس بالمطلب اليسير ، اذا اخذنا الكلمة في مدلولها المطلق عارية عن أي زمان ومكان .

وحسبنا ان نسهم في توضيح معالم الفكرة الثورية بعد ان نضعها في اطار زمان معين ومكان معين ، اي في اطار الفكرة القومية العربية في مرحلتها الراهنة . ونقدم بين يدي هذا التوضيح المتصل بالفكرة الثورية في القومية العربية ، بعض الصوى نضعها على الطريق . اذ مهما يكن من امر المضمون الفكري والفلسفي لكلمة ثورة ، يظل من اللازم ان تستبين الفوارق بينها وبين فكر تقرن بها غالبا ، وتكاد تكون بمثابة التوائم لها . ونعني بهذه الفكر : المحافظة والاصلاح والتقدم .

اما المحافظة فنسبها الى الثورة نسب تضاد ، وهي تذكر في معظم الاحيان كنقيض لها . والبون بينهما على وضوحه بعض الشيء ، يحتاج في الواقع الى مزيد من الجلاء في الاذهان . فالفكرة المحافظة كثيرا ما تؤخذ على انها فكرة تعني استمرار ما هو قائم وبقاء الاوضاع على ما هي عليه . وكثيرا ما يخيل الى الاذهان انها لا تحمل بالتالي فكرة معينة ومذهبا ذا حدود واصول ، وانها لا تعدو ان تقرر قولة ليبنتز بان هذا العالم هو احسن العوالم الممكنة ، وان ليس في الامكان ابدع مما كان .

والواقع ان الفكرة المحافظة ، ولاسيما في عصرنا ، وبعد تطور الافكار الثورية وانتشارها ، لم تعد على هذا النحو البدائي ، وحاولت ان تضمن مفهومها مباديء معينة ، بل ثورية من نوع خاص ، نستطيع ان نسميها ثورية مقلوبة . ولم تعد هذه الفكرة المحافظة تعني ذلك الشكل الاولي منها ، شكل التغني بماض زائل والاستمساك العاطفي بعصور خالية لها عندها صفة القداسة . وهي في معظم اتجاهاتها الحديثة تعني شيئا اوسع من هذا واصلب عودا ، نجده عند ذلك الفريق الذي تطلق عليه احيانا تسمية اخرى ، هي تسمية « الرجعية » . فالرجعي لا يأسف على الماضي لما له في نفسه من سحر ، وانما يتعلق به لاسباب لا شأن لها بالشعر والخيال : يتعلق به تعلقه بمبدأ اساسي لديه ، هو ان الطبيعة الانسانية واحدة غير متغيرة ، وان الانسان مخلوق لان يحيا في ظروف محددة ، هي تلك الظروف التي يدافع عنها ويطلب العودة اليها ، لاسباب لا مجال الى تحليلها ، بعضها شعوري وبعضها لا شعوري . وهكذا نجد ان الماضي الذي يدعو اليه الرجعي ، ما هو بالماضي الغائم ، وما هو مجرد الاستمرار في تقاليد معينة ، وانما هو قبل هذا وفوق هذا ماض مشخص ما تزال بعض عناصره قائمة في الحاضر ، وما يزال بالتالي من الممكن في نظره ، لهذا السبب ، ان نعيده كاملا . وبتعبير اخر اوضح ، يشترك المحافظ مع الثوري في ان كليهما يرى في الحاضر انحرافا عن المجرى الطبيعي للتاريخ ومغايرة لمستلزمات الطبيعة الانسانية . سوى ان الرجعي يرى خلافا للثوري ان الطريق المؤدية الى اصول الطبيعة البشرية وجوهر الانسان طريق شاقة طويلة مليئة بالمخاطر ولهذا كان لا بد من اجل تغيير المجتمع من نموذج معين معروف ، سبق ان أثبت قيمته وشأنه في أجيال خالية ، وعلينا بالتالي ان نقتنيه من جديد بعد ان ننزع عنه ما فيه من أشياء تجاوزها الزمن وندخل عليه بعض التعديلات التي تتلاءم مع الظروف الجديدة للحياة .

وفي هذه الناحية يلتقي الرجعي مع الثوري ويختلف عنه في آن واحد . فالثوري بدوره يؤمن بما يمكن ان ندعوه « اسطورة الاصول » ونعني بذلك أنه يهدف هو ايضا الى ان يعيد الانسان الى صفائه الاول والى ان يخلص الماضي من الطفيليات التي نمت على هوامشه فغطته وكادت تطحنه بثقلها . سوى انه يفترق عن الرجعي في شيء اساسي هو انه لا يستمسك بحرفية ماض معين ، وانما ينبش في الماضي اوضاعا تعبر تعبيرا صادقا عن الطبيعة الانسانية في كامل تحققها وعلى نحو ما يفهمها ، ويود ان يقذف في المستقبل التحقيق الكامل لمثل هذه الاوضاع التي تاهت وضاعت . فالثوري يؤمن بالديمومة ايمانه بالصيرورة ، وهو اذ يتجه بكامل قواه نحو المستقبل يحاول ان يجد تبريرا لهذا المستقبل في الماضي ، دون ان يقيد هذا المستقبل بخطوات الماضي كاملة ودون ان يحصر نفسه في اطار ماض محدد لا يتجاوزه . انه يبحث خلال تاريخ الانسان عن

الصفحات التي تجلت فيها اصالته ، ويود ان يكمل هذه الصفحات مستلهما روحها لا شكلها .

تلك لمحة عابرة عن اواصر النسب بين الثورة والمحافظة. ويستبين الامر اوضح ان نحن نظرنا في الصلة بين الثورة والتقدم . فعلى حين نجد الرجعي والثوري يشتركان في الوقوف من الحاضر موقفا سلبيا ، وفي اعتباره شذوذا تاريخيا وانحرافا بالقياس الى مثل اعلى معين نجد التقدمي يقبل على العكس واقعه وعصره كما هو ، بكل ما فيه من خصائص ، لانه يرى فيه خطوة تقدمية بالقياس الى ما سبقه . ذلك انه يرى ان كل ما في التاريخ يخضع لقانون التقدم والتطور الذي لا يغلب، والتطور التاريخي، اذ يسيطر عليه هذا القانون ، عملية لاردة فيها تسوقنا في تيارها السائر شئنا ام ابينا ، ومن العبث ان نحاول معاندتها . ومقاومتها لا تعدو ان تكون ضربا من مقاومة نظام الفصول الطبيعية او تتابع الاجيال البشرية . وعلى حين نجد الرجعي يعتقد ان في وسعه ، بعد شيء من التعديل وبعد اجراء بعض التنازلات ، ان يعاود مجرى التاريخ وان يصعد اليه كرة اخرى ، ضمن حدود تاريخ معين على اقل تقدير ، نجد التقدمي يستسلم لمجرى التاريخ هذا استسلاما كاملا . انه يستلقي فيه ويحمل نفسه في تياره ، لا كسلا ولا عجزا او ايمانا بقدر محتوم ، بل ايمانا منه بأنه اكتشف القانون الاكبر الذي يسيطر على مصير الانسان فماله عنه من محيد، قانون التقدم ، قانون تطور وفق خط مستقيم يستوي الى الابد . والحق ان فكرة الابدية واللاتناهي هي المسلمة الاولى في قانون التقدم . ومن هنا كان جوهر التقدم انه لا يحمل في طياته مستقبلا معينا يمكن التنبؤ به،وانه لا يعبأ برغباتنا ومنازعنا ومثلنا العليا ، واننا نجهل الجهل كله ما عساه يخبىء لنا في مستقبل قريب او بعيد ، أكارثة كونية ام جنة عدن !

من هنا نرى انه اذا كان الرجعي هو رجل «الاشياء المحددة الثابتة » فالتقدمي ، على العكس تماما ، متحرر من اي « تثبت » على شيء ، ومن اي «وقفة» عند حدود عصر تاريخي معين. وعلى حين نرى الاول متعلقا بماض معين ، محدد في الزمان ، نرى الاخر ينظر الى اي ماض نظرته الى شيء مضى وانقضى ولا سبيل الى اعادته . وعلى حين نجد الثوري متعلقا بمستقبل معين واضح المعالم بوجه عام، نلفي التقدمي مؤمنا بلا ادرية مطلقة بالنسبة الى المستقبل .

على ان حدود المفهوم تستبين عن طريق قرنها بعد هذا بالمفهوم الاصلاحي خاصة. فالمفهوم الاصلاحي اقرب نسبا الى المفهوم الثوري من المفاهيم السابقة ، بل هو المنافس الذي يتلبس به دوما ويزيف حقيقته . وكثيرا ما نجد المفهوم الثوري يتردى في بعض الاذهان الى مفهوم الاصلاح ، فيفقد معالمه الاصلية . ذلك ان فكرة الاصلاح تتفق مع فكرة الثورة في الدعوة الى مستقبل معين واضح الحدود ، فيه تقويم للاوضاع وعودة بالانسان الى الاصول.

غير انها تفترق معها افتراقا بائنا في الاسلوب الذي ترسمه للوصول الى هذا المستقبل . فهي ترى ان في مقدورنا ان نصل الى المستقبل المنشود ، ايا كانت معالمه ، عن طريق حركة تطورية اصلاحية نجريها ضمن المجتمع القائم ، تؤدي الى تقوية بنيته شيئا بعد شيء والسير نحو السلامة المرجوة . بينما ترى الفكرة الثورية ان مفاسد الحاضر هي من التداخل والتشابك بحيث لا تجدي فيها الاصلاحات الجزئية ، ولا بد لتغييرها والانقلاب عليها من ثورة شاملة ، ثورية جذرية تتناول الاشياء من قواعدها ، وتبدأ بالبداية . وبتعبير اخر نستقيه من ميدان الصحة الجسدية ، ترى الفكرة الاصلاحية ان علاج الامراض الاجتماعية لا يحتاج الا الى ادوية عادية طويلة المدى ، بينما ترى الفكرة الثورية ان هذا العلاج في حاجة الى عملية جراحية ، الى استئصال لاصول الداء وجذوره ، الى التخلص من البؤرة السرطانية .

من خلال هذه الصوى المتفرقة تستبين لنا بعض الشيء اهم ملامح الفكرة الثورية . انها اولا فكرة تؤمن بنموذج انساني معين ، تحققت بعض جوانبه في الماضي ، ولا بد من جهد ثوري لتحقيقه كاملا في المستقبل . وهي ثانيا ترفض حرفية الماضي وعودته في شكله كاملا ، ولكنها تؤمن بروح معينة نجد تجليات لها في هذا الماضي ويمكن ان تأخذ في المستقبل شكل تجليات اخرى مبدعة. وهي ثالثا لا ترى ان تحقيق النموذج الانساني الذي تهدف اليه يمكن ان يتم عن طريق تطور التاريخ تطورا عفويا ، بل تؤمن بان لا بد من التدخل في مجرى التاريخ، وان هذا التدخل هو جوهر الانسان ووجوده. سوى انها لا تكتفي من هذا التدخل بالاصلاح العابر الجزئي ، بل ترى ان بلوغ المثل الاعلى الانساني لا بد فيه من انقلاب كامل على الحاضر ، لا بد فيه من انقلاب تام في المفاهيم والقيم والوسائل .

ولا يعني الانقلاب الكامل على الحاضر والانفصال عنه ، تجاهله والجنوح الى عالم خيالي طوبيائي ، وانما يعني على العكس استخدام هذا الحاضر استخداما جديدا من شأنه ان يعيد تشكيله ويكونه تكوينا مبتكرا سليما . وبتعبير اخر ، لا ينظر الثوري الى الواقع القائم على انه هو الواقع الانساني الاصيل ، وان له بالتالي صفة الحق الشرعي في البقاء ، وانما ينظر اليه على انه هو الشيء المنحرف غير السوي ، وان قلبه يعني اعادة الامور الى نصابها ورد الاشياء الى طبائعها . وبكلمة اخرى ايضا ، لا يخاف الثوري من المفاسد القائمة في الحاضر خوفا يشل ارادته وتفكيره ويجعله يعتقد بانها هي الشيء الوحيد الممكن ، وانما ينظر الى المفاسد نظرته الى « تشكلات سطحية » دخيلة ، تزول بيسر اذا حركتها يد من داخل ، يد ثورية تحمل حرارة النظرة الصحيحة .

واذا اردنا تصويرا اخر للفكرة الثورية، قلنا ان هذه الفكرة

تؤمن بنوع من الحركة الخلاقة الشاملة التي اذا وجدت غيرت كل شيء ، ولا تؤمن بان بناء الاشياء والمجتمع يمكن ان يكون ذرة ذرة وقطرة قطرة . انها تعتبر حركة الحياة حركة مبدعة تعمل عن طريق تيار جيوي مبدع يصهر الاشياء صهرا جديدا . وترى ان التطور عن طريق رصف الاشياء نقطة نقطة ورملة رملة ، امر يحتاج مالا يتناهى من السنوات ، ويقصر عنه عمر التاريخ . ولا بد بالتالي في تغيير الامور من روح تطغى على كل شيء ، نظرة تقلب ، موقف نفسي من شأنه ان يهب الاشياء القائمة غير شياتها ، وان يمنح مواد الواقع غير صفاتها .

ومن هنا ينشأ سوء التفاهم بين الثوري وغير الثوري ، اذ يتكلم كل منهما لغة غير لغة الاخر ، ويبدأ من بدايات مفترقة . فغير الثوري حين يتهم الثوري ، كما يقع غالبا ، بالخيالية ، لا يحاول ان يفهم منطقه من داخل ، وانما يسلط عليه منطقا هو المنطق الذي يريد هذا الثوري ان ينقلب عليه . والخلاف بينهما بالتالي خلاف في الحدس الاصلي. فالحدس الاصلي عند غير الثوري حدس مستسلم خائف ، غير مدرك لصفحة الواقع كاملة ، ينظر الى الجزء على انه الكل ، ويعتبر النتائج اسبابا ، والفروع اصولا . اما حدس الثوري فحدس جامع شامل ، ينظر الى الامور كلها في سائر مفاصلها وحلقاتها ، وينبش خيطها الناظم وروحها الرائدة ، فيثق ويطمئن حين يدرك ان ما يخيف غيره ما هو الا قشرة سطحية زائلة ، ونتائج لا اسباب ، نتائج لموقف مغلوط من الاشياء ونظرة مقلوبة الى الامور . ويؤمن في نهاية الامر ان هذا البنيان الفاسد متداع من تلقاء نفسه ساعة نبدأ من الجذور وننطلق من موقف انساني خصيب .

★

من خلال هذه الامور كلها يمكن ان نفهم الفكرة الثورية في القومية العربية . ان هذه الفكرة في قلب الواقع وصميمه ، ولكنها تأبى ان تعترف على الواقع المشوه ، لتنصبه في مقام الاصل ، وان تترك الاصل، واضعة اياه في مستوى الخيال .

واول ما تقرره في هذا المجال ان واقع العرب الحقيقي لا يثوي في كيانهم المجزأ ، وانما يثوي في كيانهم الموحد . وهي اذ تقرر ذلك تستند الى واقع خلاق تؤيده النظرة الشاملةالسوية،انها لا تقول بالوحدة قولهابفكرة خصيبة،منتجة ذات مردود عملي قوي فحسب ، وانما تقول بالوحدة لانها ترى ، بالاستناد الى التاريخ والى واقع الشعور العربي ، ان التجزئة من نتائج الكيان المريض للامة العربية ، وان العودة الى الوحدة تعني تصحيح الاوضاع ورد الامور الى نصابها . وهي اذ تقرر ذلك تعيش في صلب الواقع ، الواقع الحي كما يظهر للحدس الشامل الكامل ، لا للنظرة القاصرة العشواء : فالواقع هو الذي يؤكد لها ان القيم الانسانية الحضارية للامة العربية كانت يوم وحدتهم . والواقع هو الذي يبين لها ان التجزئة كانت تتكاثر وتسير جنبا الى جنب مع ضعف الكيان العربي ودخول العوامل المخربة فيه . والواقع هو الذي يحدثهم عن ان القوى النفسية الحقيقية للامة العربية تنطلق من خلال الاحاسيس العربية المبثوثة في كل عرق ، وان عناصر الابداع العربي تنتظر كيانها الطبيعي الذي تتحقق فيه، كيان الامة الموحدة والواقع هو الذي يومىء فوق هذا كله الى ما ينتظر من وحدة العرب من نتائج تتصل بزيادة طاقاتهم الروحية والاقتصادية والعسكرية ، زيادة ليست مبرر الوحدة دون شك ولكنها قرينة تدل على اصالة الوحدة واتصال فكرتها اتصالا حيا بجوهر وجود العرب على الارض .

على انه ان كانت فكرة الوحدة العربية هي رأس الافكار الثورية التي نجدها في القومية العربية ، فهذا يعني شيئا لا ثاني له وهو انها لا يمكن ان تتحقق الا عن طريق عقل ثوري وعمل ثوري . انها ، اذ تصدر عن حدس ثوري اصيل ينظر الى الاشياء نظرة فيها تخط للفساد وتجاوز للنظرات الجزئية وذهاب الى الاصول ، لا بد كيما تتحقق فعلا من ان يكون اسلوب عملها اليومي ونضالها الدائم مستوحى من مثل هذا الحدس حافظا له . والمنزلق كما قلنا هين خطير بين الفكرة الثورة والفكرة الاصلاحية . والفكرة الاصلاحية هي التي تنتحل عادة لنفسها صفة الثورية وهي التي تتزيى بزي الثورة فتزيفها وتبعدها عن اصولها وعن حرارتها . وفكرة الوحدة العربية كما قلنا ونقول فكرة اما ان تصدر عن ثورية اصيلة واما الا تكون البتة . بل ان انقلابها الى ضدها لا بد واقع ان هي ظنت انالوحدة يمكن ان تتم عن طريق مهادنة التجزئة ، او عن طريقالسير بعقلية التجزئة ضمن الوحدة .

ان العمل للفكرة العربية ، لكونه عملا ثوريا ، لا بد فيه من نضال يومي في سبيل هذه الفكرة ، ولا بد فيه من نظرة شاملة كاملة تغذي كل سلوك يومي وتطبع كل حركة. وليس اعداء الوحدة الحقيقيون اولئك الذين لا يأخذون بها-فهؤلاء لن يقووا على مغالبة طبائع الاشياء - بل اعداؤها الحقيقيون هم اولئك الذين يأخذون بها دون ان تغذيهم فكرتها الثورية الحقيقية ، والذين يتبنون شعاراتها ظاهرا ويعيشون في عقلية التجزئة باطنا . فمثل هؤلاء هم الذين يتيحون لاعداء القومية العربية أن ينقضوا عليها ويفضحوا ثغراتها ، وما يفضحون في الواقع ثغرات فيها ، وانما يفضحون اسلوبا خاطئا في فهمها او انفاذها .

ولا يتسعالمجال للحديث عما ينسحب منهذه النظرة الى ثورية الفكرة العربية من نتائج لا حصر لها تتصل بالوسائل الثورية لبلوغها .

وحسبنا ان نذكر ان الفكرة العربية ، ما دامت نظرة الى الانسان عامة ونظرة الى الانسان العربي خاصة ، لم تعد مجرد امنية او مداعبة عواطف ، بل غدت شيئا ذا مضمون ايجابي بناء، من شأنه ان يجعل من هذه الفكرة فكرة خصيبة ترفع مستوى العربي الحضاري والانساني وتجعله عاملا من عوامل المدنية في العالم . ولهذا كان المضمون الذي

تنادي به الجمهورية العربية المتحدة اليوم ، حين تجعل هدفها بناء مجتمع اشتراكي ديمقراطي تعاوني ، مضمونا اساسيا في اعطاء الفكرة العربية كامل معناها وتحميلها تمام ثوريتها . انه هو القمين بان يوقظ ملايين الشعب العربي الراكدة التي حالت ظروفها الاقتصادية والاجتماعية السيئة بينها وبين ان تبدع وتعطي. انه هو الذي يقدم للانسانية وثبة حضارية حقة اذ يحرر هذه الملايين من قيود اوضاعها ، واذ ينطلق من فكرة اساسية وهي ان الخير والعطاء للامة العربية وللانسانية يثويان في هذه الجموع الشعبية الفقيرة المحرومة التي تنتظر من يفك عنها الاغلال لتنطلق وتبدع .

ان ثورية القومية العربية تحمل معناها اولا واخرا في قدرتها على ان تحرر الانسان العربي وتطلق قوى الابداع لديه. انها تصور عن مسلمة اولى هي ان التحرير العميق الحق لهذا الانسان لا يمكن ان يكون الا ضمن كيان عربي موحد يتحمس له ويستخرج في سبيله كل مدى طاقاته وامكانياته ويجد ذاته في اطاره .

وبمعنى هذا بلغة اخرى ان الوحدة هي الاطار السليم لتحقيق مضمونها ، وانها وهذا المضمون شيء واحد ، ولا سبيل الى فصل احدهما عن الاخر . وثورية فكرة الوحدة تأتيها من انها تخرج من ذلك الدور الفاسد المعطل . وقوام هذا الدور الفاسد او الحلقة المفرغة ان الوحدة لا تتحقق الا اذا تحرر ابناء الشعب العربي من قيود اوضاعهم الاجتماعية فأصبحوا سادة مصيرهم . انها تكسر هذا الدورحين تقرر ان التربة الطبيعية لتحرير الشعب العربي المحروم المهمل هي تربة الوحدة ، وان انتظار تحرر الشعب العربي ضمن اطار التجزئة مباينة لمنطق الواقع ، اذ يعني هذا الانتظار تعريض الشعب العربي ضمن التجزئة لعبودية اكبر وقيود داخلية وخارجية اخطر . ولهذا كانت ولادة الجمهورية العربية المتحدة على الشكل الذي جرت عليه عملية ثورية اساسية ، اذ صدرت عن ايمان بان الوحدة هي سبيل القضاء على المفاسد والادوار التي تحول دون قيام الوحدة ، وان التوحيد بحد ذاته عمل مبدع خلاق من شأنه ان يولد طاقة جديدة تقوى على محاربة المفاسد التي لا تقوى عليها التجزئة . وهكذا عزمت الجمهورية العربية المتحدة بخطواتها الجبارة على ان تقضي على اخطار الوحدة ضمن الوحدة وفي قلب الوحدة ، ووجدت ان السبيل الثورية الوحيدة للتغلب على ما يحول دون الوحدة هو ان نحققها عن طريق عزم مبدع خلاق ونتابع ضمنها ، عن طريق مثل هذا العزم الخصيب ، القضاء على ما يناقضها .

وقد جاءت المراحل التي تلت ولادة الجمهورية العربية المتحدة مؤكدة لهذه النظرة . فالجمهورية العربية المتحدة تلقى كل يوم آلام هذا المخاض الجديد ، وتعاني دوما من آثار التجزئة السابقة وبقايا العقلية الماضية ، ولكنها تتغلب على هذا كله ضمن كيان الوحدة وتستمد من الوحدة نفسها قوة ثورية ما كانت لتيسر لها بدونها،وتقوى ان تصهر ضمن بوتقة الوحدة ما كان عسيرا ان يصهر خارج بوتقتها . وهي بعد هذا ، بل قبل هذا ، حين تنطلق في طريق البناء الاجتماعي والتشييد ، تقوي يوما بعد يوم عوامل الوحدة ومقوماتها ، وتخلق عناصر قوتها واكتمالها .

وبمقدار ما يتحقق لهذه النواة الاولى للوحدة من الاكتمال تجذب اليها اجزاءها الاخرى ويصبح لقاؤها معها لقاء طبيعيا . ان الفكرة الثورية اساس وجود الانسان وهي القوة المحركة الغلابة في كل مجتمع . وهي في البلاد العربية خاصة قوام وجود الطليعة الموجهة فيها . ولا بد ان تتلاقى الحركات الثورية التي تعيش في نفوس هذه الطليعة العربية انى وجدت . على ان مسؤولية الجمهورية العربية المتحدة مسؤولية كبرى في هذا اللقاء . فهي التي تمنح القوة لهذه الحركات الثورية عن طريق ما تشيعه من تحقيق خصيب للاهداف الثورية ضمن كيان مؤهل اكثر من غيره لتحقيق مثل هذه الاهداف .

*

وبعد من العسير ان نستنفد في هذه الصفحات موضوعا هو موضوع وجود الامة العربية وقوام كيانها الراهن . وحسبنا ان نبشنا عابرين ببعض معالمه ، تاركين للثورة العربية الكبرى التي نعيشها ان تسطر في الواقع الحي القسمات الكاملة للفكرة الثورية في القومية العربية .

دمشق — **عبدالله عبد الدائم**

ثورتنا الأدبيّة الأولى...

بقلم ميخائيل نعيمه

في ربيع سنتي الثانية في الجامعة(*) والاولى في كلية الحقوق، حمل الي البريد العدد الاول من مجلة عربية تصدر في نيويورك باسم « الفنون »، وكان التاريخ الذي عليه « نيسان – ١٩١٣ ». اما منشيء المجلة فرفيقي في الناصرة نسيب عريضة بشراكة رجل اخر لا اعرفه.

ما هذا الذي اعتراني عندما فتحت العدد؟ ان عيني تسابق يدي في تقليب صفحاته وتلتهم ما فيها التهاما. وقلبي يصفق فرحا بين ضلوعي. فالى الشيطان ايتها « العقود » و « الصكوك » و « الجنح » و « الجنايات » وكل ما يتصل بالمحاكم والاحكام. انك سلسلة لا نهاية لها من المشكلات. والعدل عنك غريب. انك رغوة وفقاقيع صابون. وههنا فتح جديد ودنيا جديدة. ههنا حروف تنبض حياة. والعجيب انها حروف عربية. وعهدي بالحروف العربية ان عناكب الجمود والتقليد والنفاق والفاقة الفكرية والروحية قد نسجت فوقها اكفانا، وان غبار خمسة قرون قد تكدس على تلك الاكفان. سبحان من يحيي العظام وهي رميم!

اول ما طالعني من بعد الفهرس في ذلك العدد الجميل المظهر والتنسيق رسم لجبران خليل جبران. وجه وسيم، كئيب. شاربان يشبهان شاربي نيتشه. انف دقيق، مستقيم. عينان واسعتان، حالمتان. حاجبان كثيفان، مقوسان. جبين عال، وشعر كثيف، ويدان لطيفتان، حساستان. انه رسم حافل بالمعاني والمواهب.

وانتقل من الرسم الى المقال الافتتاحي الذي يليه فاذا به من قلم جبران وعنوانه « ايها الليل »:

« يا ليل العشاق والشعراء والمنشدين!

يا ليل الاشباح والارواح الاخيلة!

يا ليل الشوق والصبابة والتذكار! » الخ

فيطربني منه قلم يعرف قيمة الحرف، فلا يمتهنها. ويعرف جمال اللون، والرنة، والمعنى في الكلمة فلا يفحش بها. ويعرف ان للقلب اوتاره، وللفكر اوتاره. وهذه ما لم تكن موقعة احسن التوقيع، وبيد فنان مخلص لفنه، كان كل ما يصدر عنها نشازا في نشاز.

ثم انتقل من مقال جبران الى قصيدة بعنوان « اماني » من قلم « اليف ». واجزم في الحال ان « اليف » ليس اكثر من اسم مستعار تستر وراءه رفيقي نسيب عريضه. فانا اعرف نفسه، واعرف ان هذا اللون من الشعر قد اقتبسه نسيب من مطالعاته الروسية. وها هو العدد كله يشهد بذلك. فقد حشاه صاحب « الفنون » بترجمات من الشعراء والكتاب الروس – وعلى الاخص المحدثين منهم امثال « غوركي » و « اندرييف » و « سولوغوب » و « مرجكوفسكي » وغيرهم مع البعض من كتاب الغرب مثل « أوسكار وايلد » و « فيكتور هيغو ».

ومقال اخر يستوقفني في ذلك العدد. وعنوانه « بلبل الموت والحياة » وهو بقلم امين الريحاني:

« في القفص يغرد البلبل وفي الاودية تولول الرياح » ...

لا. لا. لست في حلم يا ميشا. فهذه النفحات التي هبت عليك من « فنون » رفيقك نسيب عريضه لم تنطلق من خيالك ومن رغبتك الملحاح في ان تجدد العربية شبابها. انها لحقيقة راهنة. وانها البشارة لك بالانبعاث الذي رحت ترجاه لبني قومك منذ ان اطللت على الادب الروسي والاداب العالمية وادركت قدسية الكلمة، وقوة القلم اذا هو لم يدنس الكلمة بالكذب والرياء والتدجيل، ولم يعبد الحرف دون الروح. بلى بلى. هذا اول الغيث يا ميشا – قطرة ثم يهمي. وهذه القطرة تتحداك يا ميشا. فهل لديك قطرات تضيفها اليها؟ اذا كنت تريد ان يكون لك نصيب في الغيث الاتي فهذه الساعة هي ساعتك. وهذا اليوم هو يومك.

ورحت ادبج مقالا مستفيضا بعنوان « فجر الامل بعد ليل اليأس » فانفث فيه كل ما في صدري من نقمة وحقد على الادب المحنط – ادب التنميق والتقليد والتدجيل – ادب المجاملات والمناسبات والبهلوانيات – ادب القشور لا غذاء فيها لاي عقل وقلب، ولا صلة رحم بينها وبين حياة نحياها في كل يوم. كنت اكتب وبودي لو يتحول القلم في يدي بركانا، ولو تخرج الكلمات من بين شقيه حمما تجرف وتحرق كل بال ودميم ومخاتل في آدابنا لعل ان تنهض لنا اقلام جديدة تقيم وزنا للصدق والجمال وباقي القيم الانسانية الرفيعة. واختتمت المقال بنقد لقصة جبران « الاجنحة المتكسرة »، وكانت الصحف العربية في نيويورك قبل ذلك بشهور قد استقبلتها بالكثير من الاعجاب والتكبير. وبعثت بالمقال الى « الفنون ». فلم يلبث ان كتب الي نسيب يقول في جملة

(*) فصل من كتاب « سبعون » المرحلة الثانية – الذي يصدر قريبا عن دار صادر – دار بيروت.

ما يقول : (١)

« على انني اقول لك ان المجلة قد نفعتني بانها كشفت لي آثار صديق غاب عن عيني منذ سنين. وقد تركته وعلى وجهه سيماء التفكر ، والاماني تشف من عينيه العميقتين حتى تكاد تتجسم بدون خيال . ووجدته الان فرأيته لا يزال يداري امانيه ، وكأني به يعد بناء عظيما للمستقبل ، او يهيىء قنبلات جهنمية لهدم بعض ركائز الماضي من الاوهام والخرافات والشرائع .

« ان ما كتبته يا صديقي في مقالتك عن الاجنحة المتكسرة لجميل وصحيح. قد اعجبتني طريقتك جدا ورأيت من نسقك ما جعلني اشدد الامل بأن اراك في مصاف كتابنا الناشئين لهذا العصر الجديد الذي هو بدء حياة ذهبية لادابنا الشرقية المنحطة . ولذلك ارجوك ان تواظب على الكتابة . واقترح عليك ان تطالع كل كتابنا من اليازجي الى الان وتكتب لنا فصلا عن كل منهم ليعلم القوم انهم لم يحصلوا الا على القشور من كل ما مروا عليه من ادب المدح والهجو وصف الكلام الفارغ الثقيل . وعسى ان تكون لنا مثل بيلينسكي عند الروسيين وسانت بيف عند الفرنسيين. »

ما ان تسلمت العدد الذي صدر فيه مقالي حتى اخذتني حماسة كالتي يخيل الي انها اخذت داود النبي عندما طلب اليه منازلة جليات الجبار. فالخصم عملاق واي عملاق . وهو شديد ، عنيد . ولو انه كان من لحم ودم لهان الامر الى حد . ولكنه تقاليد بعيدة الجذور ، توارثتها أجيال كثيرة على مدى قرون طويلة . انه نمط معيشة ، ونهج في التفكير والتعبير، انه سرطان في النفس وفي الدم . والمعركة معه ستكون حامية الوطيس. وها هي قد ابتدأت . والتراجع عنها يعني التراجع عن احلام عذاب. وعن رسالة حياة . فلنخضها واثقين من قوة سلاحنا . وسلاحنا هو الايمان بقدسية الكلمة ، وتنزيهها عن التبذل والتدجيل والتمرغ على اقدام الاصنام ، وتكريسها لخدمة الحق والعدل والذوق الرفيع .

ومن غير ان اهمل دروسي رحت انهب من اوقات المطالعة والنزهة والنوم ساعات للكتابة . فأحبر المقالات في « الشعر والشعراء » وغير ذلك من المواضيع ، واكتب القصة ، واتبادل الرسائل المطولة مع نسيب بشأن المعركة وشان « الفنون » التي كانت حاملة اللواء في تلك المعركة ، والبوق الذي يذيع اخبارها . وانغمس في الكتابة الى حد ان انسى كل حاجة سواها . فلا يهمني ان اشغل قلبي بأي حب غير حب القلم . ولا ان الهو بشيء الا بالتفكير والتحبير . فالحلم الذي ما انفك يلاحقني من زمان قد بدأ يتحقق ويتجسد . وها هو نسيب يكتب الي :

« كتاباتك في الفنون وقعت على الجرح والالم . والقوم هنا معجبون بها ، وانا اشدهم اعجابا . فأرجوك يا عزيزي ان تثابر على الكتابة اكراما للادب . اكراما للنهضة الادبية التي نريد اثارتها . سوف انتظر منك مقالة لكل عدد . وارجو ان لا تذخر وسعا في انتقاد عادات هذه الامة التاعسة » . وفي رسالة اخرى :

« اقول لك ان مقالاتك كلها التي صدرت في الفنون قد احدثت ضجيجا واستحسانا في العالم الادبي في المهجر . ولا شك انها ستحدث نفس الضجيج في العالم العتيق . لم ار اديبا الا وسألني عنك معجبا، متسائلا : لماذا لم يظهر هذا الكاتب قبل الان ؟ واين كان مختبئا ؟ وقد قال لي رهط من أدباء بوسطن : اننا نتهافت على عدد من الفنون تهافت الجياع على القصاع لنقرأ فيه قبل كل شيء مقالة نعيمه . واننا نعيد تلاوتها حتى تتملك من ذاكرتنا فنستطيع روأيتها غيبا » .

الا ان تلك الانطلاقة السريعة ، العنيفة ، لم تلبث ان لاقت صدمة قوية . فقد وردتني من نسيب رسالة مؤرخة في ١٥ ايار ١٩١٤ . واليك اهم ما جاء فيها :

« كأني بك وقد حسبتني ميتا مفقودا بعد ان قطعت عنك رسائلي كل تلك البرهة الطويلة . اجل . اني كالميت ايها الحبيب . ولا ينقصني الا من يرثيني بالقصائد المعتاد عليها القوم. لقد خسرت معركتي وسقطت آمالي حولي قتلى . وشاءت الظروف بل شاءت الجهالة السورية ان تقف « الفنون » عند حدها . وذلك لان المشتركين « الكرام » لم « يتكرموا » بدفع بدلات الاشتراك في بحر السنة . بل لا يريدون ان يدفعوا قبل نهاية السنة ... والان وقد فرغ مالي وبخل علي المشتركون بما عليهم فليس لي الا ان اقف . وقد وقفت . ولا ادري اتتحرك رجلاي فيما بعد ام تيبسان الى الابد ... ان قيمة زهيدة (كبيرة جدا عندي) تبلغ ٢٠٠ ريال تنقذني .. وتنقذ « الفنون » .

« الفنون قد اذاقتني من العذاب فنونا . قد بذلت في سبيلها كل شيء . ولما بدأت اشعر اني فزت غلبتني الماديات . نعم . قد فزت ايها الصديق بجعل الفنون محبوبة في كل اقطار العالم العربي . وتهافت عليها المشتركون مؤخرا من سوريا ومصر والبرازيل والارجنتين حتى أمنت عليها مستقبلها ... اما انت ايها الحبيب فلا تقنط معي. بل دلل امانيك معي .. وكل ما ارجوه منك ان لاتنساني . بل شجعني بكتاباتك المحببة الى ان تحين اوقات الحياة ..

« قد كان المنفلوطي سألني ابداء رأي في نظراته . فحولتها اليك . فاذا ساعدتك اوقاتك فاكتب واشف غليلي من هؤلاء « الكتبة » .

« لاتقطع حبال امالك . فقد أتمكن قبل شهر تموز من اعادة الفنون .. »

فكتبت اليه اقول ان الصلة التي جددتها « الفنون » بيني وبينه بولادتها قد زادتها وثوقا بموتها . وان الامال التي بعثها فينا ستبقى تتجدد تجدد الفصول . فلا مجال للندب والقنوط . وبي ما يشبه اليقين بان المجلة ستعود الى الظهور .

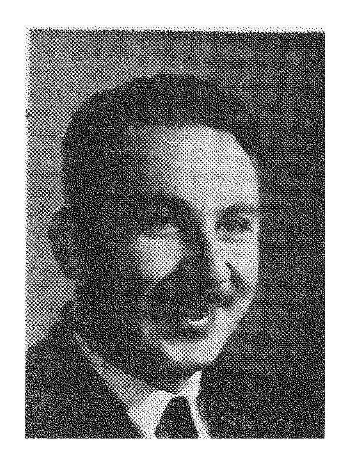
بعد ثلاثة شهور من وقوع « الفاجعة » وصلتني نسخة من كتاب « دمعة وابتسامة » لجبران . وكان نسيب هو الذي قد تولى طبعه في مطبعة « الفنون » . وقد ارفق النسخة برسالة جاء فيها : « ... لم أزل معلقا عودي على صفصاف بابل أنوح على اورشليم ... أرسلت اليك اليوم بالبريد كتاب دمعة وابتسامة .. فارجو منك ان تكرس قلمك لكتابة فصل انتقادي عنه . فقد كلفني المؤلف ان ارسله اليك وأكتب عليه « برسم الانتقاد » . لا اعلم الى اين تستطيع ان ترسل مقالتك وبأي الجرائد تخصصها . فاني أضن بها ان تنشر مع ماينشرونه من الترهات والسفاسف . ولكن للضرورة احكام ... »

وقد « حكمت الضرورة » ان ينشر المقال في جريدة نصف اسبوعية كانت قد برزت حديثا الى الوجود في نيويورك باسم « السائح » وصاحبها عبد المسيح حداد – احد رفاقنا في الناصرة . وكان المقال بعنوان « أخماس وأسداس » أطريت فيه فن الكاتب وبراعته في تلوين الكلام ، وابتكار الاستعارات والتشابيه ، وبث الحياة حتى في الجماد . ونعيت عليه توغله في الرومنطيقية والسنتيمنتالية . وعلى الاخص في تصوير الاشخاص ، بحيث يبدون كما لو كانوا دمى ، لا بشرا من لحم ودم .

لقد جاء احتجاب « الفنون » صدمة للحركة الطالعة – ولكن الى حين.

ميخائيل نعيمه

(١) هذا المقال دمجت قسما منه فيما بعد بمقال « الحباحب » المدرج في « الغربال » .



الى قدّيسة !

ماذا .. إذن .. تتوقّعين ؟
يا بضعة امرأةٍ .. أجيبي ..
ما الذي تتوقّعين ؟
أأظلُّ اصطادُ الذبابَ .. هنا ..
وأنتِ تدخّنين ..
أجترّ - كالحشّاش - أحلامي
وأنتِ تدخّنين ..
وأنا .. أمام سريرك الزاهي
كقطٍّ مستكين
ماتت مخالبهُ
وعزّتهُ
وهدّته السنين
انا لن أكونَ - تأكّدي -
القطّ الذي تتصورين ..
قطّاً ..
من الخشب المجوّفِ ..
لا يحرّكه الحنين ..
يغفو على الكرسيّ
إذ تتجرّدين ..

وبردّ عينيهِ .. اذا انحسرت
قباب الياسمين ..

★

تلكَ النهايةُ .. ليس تدهشني
فمالكِ تدهشين ..
هذا أنا ..
هذا الذي عندي ..
فماذا تأمرين؟
أعصابي احترقت ..
وأنتِ
على سريركِ تقرأين ..
أأصومُ عن شفتيكِ ؟
فوقَ رجولتي ما تطلبين ..
ما حكمتي ..
ما طيبتي ..
هذا طعامُ الميّتين ..

★

متصوفٌ !
من قالَ ؟ إني آخرُ المتصوّفين ..

أنا لستُ يا قدّيستي
الربّ الذي تتخيّلين ..
رجلٌ أنا . كالآخرين ..
بطهارتي ..
بنذالتي ..
رجلٌ أنا .. كالآخرين
فيه مزايا الانبياء ..
وفيه كفر الكافرين
ووداعةُ الاطفال فيه ..
وقسوة المتوحشين

★

رجلٌ أنا ..
كالآخرين ..
رجلٌ يحبّ - اذا أحبّ -
بكل عنف الأربعين ..
لو كنتِ يوماً تفهمين ..
ما الأربعينَ ..
وما الذي يعنيه حبُّ الأربعين ..
يا بضعةَ امرأةٍ ..
لو انكِ تفهمين ...

نزار قباني



اقترح الصديق سهيل ادريس ان اكتب عن هذا الموضوع لعدد الاداب الممتاز ، وقد بدا لي الموضوع عند الوهلة الاولى من الالغاز او مما يسمونه في علم الحساب بالتوافيق والتباديل ولكنني لم اكد افكر فيه حتى اخذ يثير في نفسي عدة قضايا فكرية وفنية خطيرة .

فالموضوع كما هو واضح ينقسم الى شطرين اولهما : ثورة الادب ومتى تكون تلك الثورة وكيف تكون في ضوء الاداب العالمية وضوء ادبنا العربي وبخاصة ادبنا الحديث . وثانيهما : ادب الثورة وماهيته ووظيفته واتجاهاته وأوقات ظهوره في ضوء نفس الآداب التي ذكرتها .

ثورة الادب

واول قضية تثيرها ثورة الادب هي : هل ينبغي للادب ان يكون قائدا للحياة والمجتمع وثوراتهما ؟ ام يحسن به ان يقتصر على ان يكون صدى لهما ، وهذه قضية تتصارع حولها مذاهب الفكر والفن . فهناك مذهب يزعم ان الاوضاع المادية للحياة هي التي تتحكم في كل شيء وهي التي تدفع الى الثورات عندما تقتنع الشعوب بفساد تلك الاوضاع وتحس بالحاجة الى تغييرها على النحو الذي يضمن لها قدرا اكبر من السعادة والرخاء ، وذلك بينما ترى مذهبا او مذاهب اخرى تزعم ان الفكر والفن هما اللذان يحدثان الثورات وان ثورة الادب هي التي تمهد لثورات الشعوب وتضرم نارها وأن البؤس نفسه لايحرك الشعوب وانما يحركها الوعي به ، والادب هو الذي ينفث هذا الوعي ثم يستثيره ، وان الاوضاع المادية قد تظل متحجرة في فسادها حتى يثور الادب فيكشف عن ادرانها ويبث روح الثورة ضدها .

وباستطاعتي ان أعترف في صدق ان هذه القضية قد كانت ولا تزال من مشاغل حياتي الفكرية الكبرى التي عرضتها على الكثير مما قرأت في الاداب والفنون والفلسفات ومذاهب السياسة والاجتماع ، واعتقد انني قد وصلت فيها الى حل يرتضيه ضميري العلمي والفني .

فمما لاشك فيه انه لابد ان تمهد تضاريس الحياة لتيارات الفكر الثوري مجراها ، والا ارتطم هذا الفكر بالصخور وتحطم على واقعها البليد . ومما لاشك فيه ايضا ان الاديب الثائر الذي يريد ان يقود الحياة لا ان يقنع بان يكون لها صدى فحسب ، مثله كمثل قائد الجيش الذي لايحسن به ان يسبق جيشه بمسافات طويلة تقطع الصلة بينهما والا كان مصيره الحتمي الى الهلاك ، واذا كان من واجبه كقائد ان يتقدم الصفوف فان من مقتضيات الحكمة والحصافة ان يظل مع ذلك على مقربة من جيشه الذي يستمد منه قوته . واضرب لذلك مثلا بأديب يتحدث عن بؤس لا وجود له اولم تاخذ حلقاته بخناق الشعب بحيث لايكاد الشعب يتبين من حديث الاديب الثائر سبب بلواه ومصدر محنته ويعي كل ذلك حتى يهب للتخلص من ذلك البؤس . ومن المؤكد ان الثورات الكبرى كالثورة الفرنسية والثورة الروسية ثم الثورة العربية الاخيرة كانت تضاريس الحياة تهيء لها المجرى الذي سار فيه المفكرون والادباء والفنانون كرواد وقادة لكي يجذبوا وراءهم جماهير الشعب ، ولولا المظالم السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي سبقت تلك الثورات لما انتجت ثورة الادب والفكر شيئا ولا قامت على اثرها ثورات عاتية .

وثورة الادب لاتتخذ طابعا واحدا بل تتنوع مظاهرها ومناهجها بتنوع فنون الادب المختلفة فالاداب الموضوعية كأدب القصة وأدب المسرحية تسلك في ثورتها مسلك الواقعية النقدية لاوضاع الحياة الفاسدة باعتبار ان نقد الواقع الفاسد هو الذي يبث الوعي بهذا الفساد فيضع خميرة الثورة في النفوس . وباستطاعتنا ان نلاحظ ان الواقعية النقدية في الادب قد سبقت دائما الثورات الكبرى ومهدت لها في كافة الاداب التي أشرنا اليها . واما الشعر فهو في الغالب الاعم الذي يعلن الثورة صراحة ويدعو لها المواطنين معتمدا على الوعي الثوري الذي يبثه الادب الموضوعي ، ادب الواقعية النقدية . واذا كنت استطيع ان اضرب مثلا لادب النقد الواقعي بثلاثية اديب فرنسا الثائر « بومارشيه »وهي مسرحيات : « حلاق اشبيليه » و « زواج فيغارو » و « الام الاثمة » التي انتقد فيها الكاتب انتقادا ساخرا مرا سيطرة النبلاء ، واهدارهم لكرامة الشعب الى حد الدخول بزوجاته في اول ليلة من ليالي العرس فانني استطيع ان اكتفي في

التدليل على ثورة الشعر المباشرة ووظيفته في استثارة النفوس استثارة عنيفة بهذه المقطوعة التي قالها احد شعرائنا الشبان قبل ثورتنا الاخيرة وتعتبر من اقوى ماقيل في شعرنا العربي المعاصر :

أيها المغمض المعذب بالليل تطلع لنور فجر جديد
انا أشقى وانت تشقى وهذا ماحفظناه من تراث الجدود
غير اني اليت أبذل روحي كي ينال الحياة بعدي وليدي

✶

يارفيقي ونحن جرحان مران يسيلان من دم وصديد
يارفيقي ونحن روحان حران يضجان في حديد القيود
يارفيقي انا وانت وعمي وابن عمي جماعة من عبيد
انا أبكي وانت تبكي ولكن لن يفل الحديد غير الحديد

✶

انا صوت مضيع لن يقويه انفجاري به ولا ترديدي
فانطلق وانفجر معي يتعالى ذلك الصوت صارخا بالوعيد

✶

يارفيقي في العرى والجوع والكد كفانا عهود عري وجوع
قد شربنا في كأسنا عرق الجبهة والدم ذائبا في الدموع
ذهب العمر كالخريف بوادينا وماتت زهورنا في الصقيع
نحن من يخلق الربيع ويرنو عاريا باكيا لحسن الربيع

✶

يارفيقي ونحن ننحت هي الصخر قصورا وننزوي في قبور
أفمن تخلق السعادة كفاه يعاني في كهفه المهجور
أفمن يخلق البطولة والابطال يرضى بعالم مغمور
ياجيوش العبيد ارهفك الظلم فقومي الى الكفاح وثوري
أمل ماج في الصدور فأحياها وضجت به حنايا الصدور
أيها المغمض المعذب بالليل تطلع لنور فجر جديد
انا ابكي وانت تبكي ولكن لن يفل الحديد غير الحديد

ومما لاشك فيه ان الشعر هو الفن الادبي الوحيد الذي يستطيع ان ينبض بمثل هذه النغمات الثورية الحارة كاللهب كما ان الشعراء ربما كانوا اكثر حساسية واسرع انفعالا واقوى ارهاصا بتيارات الحياة ومدها الثوري من غيرهم ، ثم ان الشعر قد كان ولا يزال فننا التقليدي الاول الذي تبدأ الثورات الادبية به بل قد نراه يثور على الادب نفسه ويطالبه بالتحول الثوري من اتجاه الى اخر فنراه مثلا يدعوه بالتحول عن الذاتية الرومانسية الى الواقعية الاجتماعية فيخاطب الشاعر الواقعي الاجتماعي الثائر زميله الرومانسي الحالم قائلا :

في سماء الخيال ضم جناحيك - تقع بيننا - فتصبح منا
دع جمال الخيال وادخل كهوفا للملايين وارو للكون عنا
انما الفن دمعة ولهيب - ليس هذا الخيال والتيه فنا

ادب الثورة

واما بعد ان تشتعل الثورة وتحقق اهدافها فلا بد ان يغير الادب من اتجاهه ووظيفته ولا بد ايضا من ان يتغير توزيع فنونه فلا تعود في الغالب للشعر القيادة وانما ينهض الادب الموضوعي من قصص ومسرحيات بمهمه تعميق المفاهيم الثورية واهدافهاونتائجها الخيره في نفوس المواطنين حتى تستحيل عواطفهم الثورية الى مبادىء فكرية يؤمنون بها وعلى اساسها تستقر اوضاع المجتمع دون هزات عاطفية جديدة ومن المؤكد ان الثورات لايمكن ان تستقر الى نصر نهائي قبل ان يعمق الادباء والمفكرون مفاهيمها في نفوس الشعب وينزلوها منها منزلة العقيدة والايمان . والقصص والمسرحيات ربما كانت اقدر على ذلك من الشعر لانها تلجأ الى الحكاية والمثل المجسمين لتعميق تلك المفاهيم . ومن المؤكد ان هذه الحقيقة قد كانت من العوامل الاساسية التي اخذت تدفع شعرنا المعاصر بعد ثورتنا الاخيرة نحو القصة والدراما القصيرة تتخذ منهما موضوعا للقصائد حتى يساهم الشعر ايضا في المهمة الكبرى التي يساهم بها الادب المسرحي والادب القصصي . واذا كان وجدان الشاعر الفردي او الجماعي لابد ان يتخلل قصائده القصصية او الدرامية الا ان ذلك لايمكن ان يفقد مثل هذا الشعر طابعه الموضوعي او ان يغير من مهمته في تعميق مفاهيم الثورة عن طريق الحكاية والمثل المجسمين وان كنت الاحظ ان ادبنا الموضوعي لايزال يلتمس موضوعاته من عهد ماقبل الثورة ولم يستطع حتى اليوم ان ينتقل بكل قوته ومداه الى عهد مابعد الثورة ليصبح حقا ادب ثورة لان هذا التحول الكامل يحتاج فيما يبدو الى زمن اطول والى بلورة اعمق لمفاهيم ثورتنا الاخيرة ومبادئها .

واما عندما تتعرض الثورة لهزة من الهزات ينفعل بها الادباء والفنانون فهنا نرى أدب الثورة ينبثق كالوهج المضيء المحرق . ولعلنا نذكر جميعا ذلك الفيض الزاخر من القصص والمسرحيات والقصائد والاناشيد والاغاني التي اندلعت اثناء العدوان الثلاثي على الاقليم المصري مثل نشيد « الله اكبر » واغنية « دع سمائي فسمائي محرقة » ... الخ ولم يقف هذا الفيض عند ادباء الاقليم المصري وحده بل امتد الى ادباء الامة العربية كلها فخلف لنا هذا العدوان ثروة ضخمة من الادب الثوري الخالد .

القاهرة — **محمد مندور**



أديبنا الثوري والموقف الحضاري

بقلم سلمى الخضراء الجيوسي

١ ــ الاديب الثوري والتراث العربي

الاديب الذي لا تراث له اديب ضائع ، فالادب والفن يتسلسلان في الامم حاملين خصائصهما الاصيلة المتميزة والتي تسند اي نتاج تجيء به اجيال من الخلاقين . في تسلسلهما عبر العصور يتطعمان بالروافد الجديدة ، بنكهات آداب وفنون التقياها ، وبطابع العبقريات الادبية المتلاحقة التي تتولى الادب عصرا بعد عصر . ولكن الخصائص الاصيلة التي تميز ادب امة وفنها وروحيتها تلازم كل نتاج جديد مبدع .

اما الدعوة الى التشبث باصالتنا ، فهي من حيث جوهرها ومعناها المباشر ، دعوة صحيحة ــ غير انها ما زالت دعوة مبهمة تحمل معها مزالق كثيرة حتى لاصحابها ، اذ ان علينا اولا ان نقرر ما هي خصائص هذه الاصالة وما هي معالمها البارزة ليكون لدعوتنا قيمة وفائدة ــ ولكي نستطيع ان نقرر هذا فانه من البديهي ان نكون ملمين ، الماما دقيقا ، بالتحول الذي جرى في شخصيتنا وحياتنا ، حتى نتمكن من التقرير فيما اذا كان اي ادب عربي معاصر معبرا عن الشخصية العربية الجديدة وعن الحياة العربية المستحدثة ، ام دخيلا عليها . وانه ليس صعبا ان نجد من بين اولئك الذين ينبرون لنقد ادبنا وحياتنا من يحاول ان يؤطر معالم الشخصية العربية المعاصرة ضمن اطر يمليها عليه اتجاه عقائدي وعاطفي ، فيقرر لها سلفا معالمها واوصافها دون تمحيص وتعمق ويحكم على الادب وعلى اصالته بناء على هذه التأطيرات القسرية .

وهناك ناحية ثانية ، اعتبرها انا ، من وجهة نظر فنية ، شديدة القيمة: هي ان الابداع يحمل اصالته معه . فليس هناك ابداع مصطنع ، او مزيف او دخيل . فالدعوة اذا الى التشبث بالاصالة انما هي دعوة موجهة الى غير المبدعين ــ غير انها على كل حال ضرورية ، اذ انها تستطيع ، اذا عرفت كيف تفصح عن نفسها بوضوح وحكمة ، ان تهدي اولئك الذين حملوا بذرة الابداع ولكن لم يعرفوا كيف يشقون لها منفذا سريعا خلال اشكالات الضياع الثقافي والفني التي يقعون فيها . انهم معرضون للوقوع في هذه الاشكالات بحكم جدتهم في ميدان الثقافة الحديثة (١)، ولهفتهم ، وحيرتهم، وضعف التراث المباشر الذي يربطهم بتراثهم القديم . وعندنا امثلة رائعة على شعراء او كتاب عرب معاصرين صرفوا في التيه سنوات من حياتهم الادبية ، الى ان وجدوا انفسهم وانطلقوا الى آفاق الابداع .

ان يقظتنا على حاضر ضحل في مطلع هذا القرن ، قد اوجد عندنا الشعور بالصغار امام روائع تراثنا القديم . لقد كان التراث وما زال يعني عند الكثيرين قيمة مقدسة ، لا من حيث روعتها وقيمتها الفنية فقط ، بل من حيث كونها المثل الذي لا يضاهي للابداع الفني ــ حتى اننا نجد عددا كبيرا من الشعراء والمهتمين بالادب يعتبرون بناء القصيدة القديم الشكل الوحيد الممكن للقصيدة العربية . وقد فاتهم امران : الاول هو ان القيمة الابداعية لاي عمل أدبي في اي عصر لا تزيد على غيرها في اي عصر اخر ــ فذروات الابداع متكافئة في تاريخ الفن ــ وروائع الماضي لن تفوق روائع هذا العصر ، او روائع المستقبل ــ وكذلك لن تفوق روائع الحاضر والمستقبل روائع الماضي قيمة وجمالا . ان ادبنا اليوم وادبنا المستقبل سيكون اكثر تعقيدا بالنسبة لتعقيد حياتنا وتجمع التجارب الانسانية والفنية عبر التاريخ ، وسوف يختلف اسلوبا ، ما في ذلك من شك ، فلكل عصر طابعه . اما من حيث القيمة الفنية ، فان العصور الحضارية جميعها قد انتجت آدابا رفيعة لا ارى ان مفاضلتها ممكنة .

اما الامر الثاني: فقد فات هذه الفئة التي تعطي الافضلية للماضي ان الابداع يجب ان يكون معبرا عن روح العصر متفاعلا بها ــ وان كل عصر يبدع اسلوبه الخاص . ولعل هذه الجماعة من الادباء لا تنكر على النثر ان يعكس روح العصر في اسلوبه ــ فاذا جئنا الى الشعر قامت الدنيا وقعدت ازاء اي تغيير في الشكل ــ وفي هذا تناقض وتجاهل لحقيقة تطور الشعر في الامم .

وهنا لا بد من التنبيه الى هذا الشطط البالغ في نظرة الاغلبية عندنا الى اللغة والشعر العربي . ان لكل من اللغة والشعر عند الامة ميزاتهما الوطنية الخاصة ــ ولكن هناك قواعد تطورية عامة يسيران عليها ــ فكما ان البشر يختلفون في ميزاتهم الفردية والشعبية ويتفقون في الخصائص العامة ــ فان اللغة والادب اللذين ينبعان من الانسان ويعتمدان عليه في تطورهما يتفقان مع لغات العالم في سنة التطور . وان من المضحك ان نستمر في الاصرار على ان اللغة العربية تنفرد بعدم الخضوع لسنة التطور العامة للغات وان الشعر العربي يتفرد بميزة البقاء السرمدي على شكله القديم والمحافظة في نفس الوقت على استمرار الابداع .

وفي المقابلة التي يجريها عدد من الكتاب بين ادبنا المعاصر وادبنا الموروث نجد ان بعضهم يصل الى حد الاستنكار اذ يلمس التغيير الكبير الذي طرأ على الادب العربي في العشرين سنة الاخيرة . ولم يفت عددا

---

(١) لعل من اهم ميزات الثقافة Culture هي انها تحتاج ، لكي تكون متمكنة في الاجيال والافراد ، الى عراقة موروثة من جيل الى جيل ، الى ما يمكن تسميته « بالاختمار الثقافي » .

منهم ان يحسب بعض هذه التغيرات بدعا لا تحمل شيئا من اصالة الماضي وقوته و« كماله ». غير ان هناك حقيقتين معروفتين لا بد من تسليط الاضواء عليهما من زوايا جديدة اذا اردنا ان نقف على قوة الصراع الذي واجهه ادباء هذا الجيل وعلى قيمة المآثر التي حققوها .

١ ــ الابتداء من نقطة الصفر : فالحقيقة الاولى هي ان ادبنا القديم يفتقر الى فروع اساسية كالقصة (بمعناها المعاصر) وكالمسرح والملاحم الشعرية (1) ، والاديب مضطر الى الاستعانة المباشرة بالادب الغربي الذي وصل الى نضجه واصبح له تكنيكه وفنونه وقوانينه ومفاهيمه . غير ان الاديب العربي مهما درس التكنيك الغربي ووعاه فسيبقى عنده، على الغالب ، ناحية ضعف لا مجال لقهرها : وهي ان الانسان مهما عب من تراث حضارة اخرى ومهما تمثل هذه الحضارة ، فان عطاءه الادبي يجب ان يستمد جذوره المباشرة من تراثه هو ومن حضارته ، فاذا لم يكن عندنا قصص فني ممتاز في الماضي فان محاولة تلافي هذا النقص ستكون شاقة جدا على الاديب الذي يبتدىء من نقطة الصفر . ان الابداع الادبي ، يتم على احسنه ، عن طريق تمثلنا لما ابدع عن حياتنا بلغتنا ، اي للروائع التي تحدرت مباشرة من تراثنا ، غير ان هذا لا يمنع ان يتأثر الاديب تأثرا مباشرا ايضا بما ابدع في آداب لغات اخرى ــ ولكنه ، على الغالب ، يظل مفتقرا الى طابع الاصالة الكاملة اذا كان تراثه خاليا من الفرع الادبي الذي يكتب فيه واضطر الى الاستعانة فقط باداب لغات اخرى .

هذه قاعدة اجمالية وان كنا نردف فنقول بان العبقرية طالما حملت للعالم مفاجآت تخترق السنن والقواعد وتتحداها .

٢ ــ عهد ركود طويل : اما الحقيقة الثانية فتتعلق بتطور ادبنا . ففي دراستنا لتاريخه تواجهنا حالة فريدة وهي ان ادبنا توقف عن التطور وتجمد مدة تجاوزت اربعة قرون طويلة . كان الادب العربي مزدهرا من الجاهلية حتى ما بعد انكسار شوكة العرب بزمن ــ ولعل عددا من ارقى مؤلفاتنا لم يوضع الا بعد ان بدأت الامبراطورية العربية تتمزق ، والا بعد ان اصبحت الحياة العربية على شيء كثير من عدم الاستقرار والقلق ــ وذلك لان تأثر الثقافة والادب بالحضارة يحتاج الى اجيال كثيرة من الاختمار ويستمر بعد زوال عنفوان هذه الحضارة بمدة . ولو زالت حضارة اوربا المادية والعلمية دفعة واحدة اليوم مثلا فانني لا اشك في ان العطاءالادبي والفني سيستمربعد زوال اسباب الحضارة المادية.

بعد ان مضت على العرب اجيال من الاستعباد عقب انحلال الخلافة العربية نهائيا ، واستطاع الاتراك ان يسيطروا على البلاد العربية سيطرة سياسية وفكرية تامة ، وقع العرب فيما يشبه الذهول وبدأت الشخصية العربية تنحل وتركد . وان ركود الشخصية وجمودها لاخطر شيء على الادب والفن ان في حياة الافراد الموهوبين وجمودها لاخطر شيء على الادب والفن ان في حياة الافراد الموهوبين انفسهم او في حياة الامم . ومضت القرون والنتاج الادبي الهزيل غارق في تفاهاته وغثاثاته ، فلما تسلمناه نحن فيهذا العصر رفضنا ، بصورة حاسمة ، كل هذا الادب التافه الذي انتجته الشخصية العربية الجامدة في عصور الانحطاط ، ودفناه بايدينا ، وتناولنا ادبنا القديم سالما كما كان في عصور ابداعه ورحنا نبني عليه . غير ان الهوة الطويلة الفاصلة بيننا وبينه والتي قطعت حبل استمراره في العطاء ، وقفت تمثل لنا مشكلا شائكا ينطوي على الكثير من التحدي . فهل كان ممكنا ان يأخذ الادب طرف الحبل المقطوع ويسلم نفسه ببساطة الى عملية تطور طبيعي متجاهلا عهد الجليد الطويل بين الادبين ؟ هل كان ممكنا ان تستأنف الشخصية العربية عملها الادبي وكأن شيئا لم يحدث خلال هذه القرون الطويلة ويغيرها وكأن الحياة الجديدة لم تنفتح على مشكلات ومواقف لم تألفها الحياة القديمة ولم تعرفها ؟

وفي بداءة النهضة اضطر اديبنا ، في محاولاته اللاهفة لاستعادة الاصالة القديمة في اللغة والتعبير ، ان يضغط شخصيته المبلبلة باطار الشخصية القديمة وان يتناول التعبير القديم جاهزا ويتقمص العواطف ووجهات النظر التي كان يعبر عنها الادب القديم لانه لم يكن قد وجد نفسه بعد.

كان الاديب العربي يترعرع في هذا القرن مع السنين وهو يبحث عن امرين ــ العودة الى الاصالة القديمة ، وهذا كان منه بحثا واعيا افاد الكثيرين ولكنه اوقع الكثيرين في التقليد والاتباعية واوجد عندنا بالنهاية جيلا من الرجعيين ، ثم التعبير عن الاصالة الفردية ، عن الشخصية المعاصرة ، هذا كان منه الى عشر سنين ونيف خلت ، بحثا لا واعيا اوقع البعض في بلبلات الضياع بين الاديب الغربي والعربي واوجد في جيلنا جماعات من المقلدين والزائفين .

ولم تستطع فروع الادب جميعها ان تتطور وتتقدم بنفس السرعة ، فقد سبق النثر الشعر بمراحل ، واستطاع خلال فترة وجيزة ان يلحق، من الناحية التعبيرية والاسلوب ، ببساطة النثر العالمي ومرونته في هذا العصر ــ وان كان لاقى من الناحية اللغوية ، اي من ناحية المفردات مصاعب عديدة لم يتغلب عليها جميعها حتى اليوم. اما الشعر فقدكان تطوره اقسى على اصحابه ، فانهم حملوا عدوى القوانين التي فرضها النقد القديم على الشعراء ، كما وان الشعر لم يكن مدعوا كما كان النثر لتلبية حاجات التعبير اليومية عن كل مرافق الحياة .

غير ان تفاعل الشخصية الانسانية مع الفن اثبت موجوديته يوم راح الشعر المعاصر يعكس التيارات الادبية واحدا بعد الاخر وفي أقل من أربعين سنة تقلب الشعر العربي في أطوار كثيرة استغرقت قرونا عند سوانا ، وتنقل من الكلاسيكية الجديدة المثلة في شوقي ومعاصريه الى شبه الرومانطيقية المثلة في ناجي والشابي وطه ومئات من الشعراء الذين نظموا في العقد الرابع والخامس من هذا القرن ، الى الرمزية التي برزت الى الميدان في العقد الماضي ممثلة في سعيد عقل وبشر فارس الى الواقعية المثلة في الشعراء الشباب من العراقيين وسواهم .

ورافق ذلك دعوات لتحرير الشكل الشعري وتجارب في الشعر الحر والموسيقى الشعرية بدأت في أوائل العقد الرابع وفشل أغلبها الى ان نجحت حركة الشعر الحر في العراق في اواخر العقد الماضي .

ورافق تحرر الشكل الشعري تحرره في المضمون وقامت دعوات صارخة لتخليص التعبير الشعري من اتباعيته وبدأت الشخصية الشعرية العربية تلح عن وعي منها أن تعبر عن حياتها المعاصرة وان تعبر بما يتلاءم مع عصرها من وسائل .

هذه طفرات سريعة خاطفة ، ولعل سرعتها تفسر لنا شيئا من هذا الرهق ومن هذا الاعياء الذي يبدو على بعض نماذج شعرنا المعاصر ، فكأنه يسابق الزمن ليدرك مكانه وليتعرف على روح عصره وليحاول ان يمثلها وان يترجمها من جديد الى العالم . غير اني مؤمنة بان الشخصية الشعرية العربية قد بدأت تجد نفسها . انها لا ينقصها الموهبة ولا المعرفة

(1) لم يخل ادبنا من بعض التجارب الملحمية خلوا كاملا ــ فهناك مثلا ارجوزة ابن المعتز الطويلة في مآثر العباسيين وهناك في الادب العامي قصة بني هلال الملحمية الخ .....

النظرية بمقاييس الادب الرفيع حتى تصل الى درجات الابداع ، وانما ينقصها تعمقها لنفسها ، وتمرسها على الحياة الفنية ، وفهمها لطبيعة وظيفتها « الشاعرة » ، وقبل كل شيء تطورها العقلي والروحي والاخلاقي الذي يؤهلها للمساهمة في ابداع الجمال والمشاركة ، لا في اغناء التراث العربي وحده ، بل الارث العالمي ايضا .

*

هذا نحن من تراثنا . ان احترام التراث لا يكون بابقاء الادب على أمثولة هذا التراث بل بتركه يعيش معنا ومع ادبنا ويلون تذوقنا ، ويعلمنا ، ويزيد في غنانا ، ويقوي من تعبيريتنا التي يجب ان تحتفظ بعصريتها في الوقت ذاته اذا اردنا ان ننتج ادبا رفيعا . يجب ان يتغلغل التراث ويذوب في العمل الفني المعاصر . ان هذا يتم حين نستطيع ان نستنشق الاصالة العربية وروح التراث في القطعة الفنية دون ان نعثر على مواد خام لهذا التراث فيها .

واحترام التراث يكون ايضا باحيائه ، بالعمل على تدقيق مخطوطاته الغفيرة العدد المكدسة باسطامبول والاسكوريال والمغرب وغيرها ، وعلى احياء شعراء وادباء قدامى ابدعوا في فنهم ولكنهم ، لسبب او لاخر، لم يستطيعوا ان يفرضوا انفسهم على الذين أرخوا التراث أو على الذين احيوا منه ما كان ابرز واشهر ، الشهرة مزلق هين للانسان .

واحترامنا للتراث يكون بفهمه وباعادة تفسيره ، وبنقده فنيا وبتجديد اعتباراتنا له وبتغيير بعض ترتيباتها .

ويكون احترامنا لشخصيتنا واخلاصنا للفن وهذا اول اخلاص يدين به الفنان الاصيل بالوقفة التي نتخذها من مواطن الضعف في تراثنا ، بتخلصنا من العاطفية الزائدة التي تجعل من تعلقنا بقديمنا شبه مرض ادبي يضعف من ثقتنا بانفسنا ، برفضنا ان تحكمنا نفس القوانين التي قيدته ومنعته من الانطلاق ، بتمكننا من ان نميز ونفاضل ونقرر أين تقع عبقرية كعبقرية الجاحظ العظيمة مثلا بين عشرات المصنفين والكتاب الذين حفل بهم عصره والعصور التي تلته .

٢ ــ الاديب الثوري والحضارة العالمية

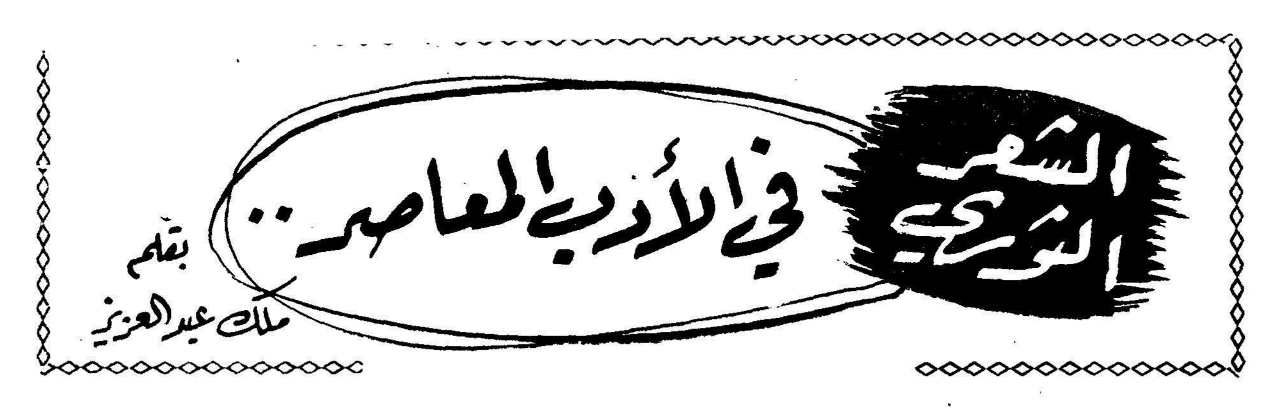
لست معنية هنا بما يرافق الحضارات من تقدم علمي واقتصادي وصناعي فهذه وحدها لم تكون يوما ما حضارة، وهذه وحدها يمكن الوصول اليها في فترة وجيزة من الزمن اذا توفرت الامكانات المادية والارادة ، كما حصل في روسيا مثلا،كما وان التقدم في هذه المجالات لم يكن خيرا على الانسانية فان لم يكن من نتائجه سوى الاستعمار والقنبلة الذرية لكفى .

وانما ركيزة الحضارة الاولى هي خيال الانسان المبدع وما اعطاه من فن وفكر واخلاق ووعي انساني ودفق روحي . وهذا ما يجعلني أرى الحضارات جميعها عبارة عن طفرات تتنقل بين الامم ، فالامم تتناقل حمل الحضارة امة بعد امة مضيفة اليها من روحيتها شيئا خاصا . ولو راجعنا التاريخ العالمي لوجدنا الحضارة في امة ما تقوم (وبسرعة فائقة احيانا كما حصل للعرب) وتزدهر بكل خصائصها المتميزة واسلوبها المتلون بروحيتها ثم تخمد وتضمحل لتحمل مشعلها امة اخرى . فليس في حمل الحضارة اي احتكار ، ومن المخجل ان يعتقد احد بهذا . وهذا ما يجعلني انظر الى كل حضارات العالم على انها تخصني بالمشاركة الانسانية ، وعلى اني وريثتها بقدر ما استطيع ان اتمثلها واهضمها . وروحية الهند مثلا التي حملتها الى العالم نفسية غاندي العظيمة ، لا تخص الهنود وحدهم بل تخصنا نحن ايضا ، اذا عرفنا كيف نفهمها ونتأثر بها .

ومهما حاولنا ان نبرز الفروق بين حضارة الاخرين وحضارتنا فان الحياة الحديثة ستقرب ما بين هذه الفروق وتزيل عددا منها . ان الحياة الحديثة ستقرب بينها اولا لكثرة اختلاط البشر وسهولة اتصال الشعوب بعضها ببعض ، وثانيا للنزعة الحديثة نحو المشاركة العالمية في الفكر والثقافة والسياسة والعلم ، وثالثا لان الفكر المعاصر يركز على قيمة الانسان ويتخلى عن الدين او يتجاهله ولقد كانت الاديان دائما عنصرا من اهم العناصر التي ميزت الحضارات واقامت الفروق بينها .

ومهما كان رأينا في مستقبل حضاري منسجم في العالم كله يقرب بين الحضارات جميعها ، فاننا لا نستطيع ان نتجاهل هذا الاتجاه في سير تيار الحضارة العالمية ،وعلينا، اذا كنا اذكياء ، ان نفكر على هذا الصعيد . ان التقريب بين الحضارات لن يحرم الامة الواحدة من ميزاتها الاصيلة اذا كانت ذات قيمة انسانية غير ان الامم في المستقبل قد لا تتفرد بحضارة مستقلة بل بتيار خاص ضمن الحضارة

ــ التتمة على الصفحة ٩٩ ــ



الشعر الثوري في الأدب المعاصر

بقلم ملك عبد العزيز

عندما تلقيت رسالة الصديق الدكتور سهيل ادريس ، يعهد الي فيها بالكتابة عن الشعر الثوري في ادبنا المعاصر ، كان من الطبيعي ان يتبادر الى ذهني اول مايتبادر – الشعر الوطني وشعر المعارك التحررية التي يخوضها اليوم عالمنا العربي . ولكني لم ألبث قليلا حتى ادركت ان الشعر الثوري وان كان بلا شك يشمل ذلك النوع من الشعر الذي اشرت اليه ، والذي يمثل جانبا كبيرا منه – الا انه مع ذلك اشمل منه واوسع مدى . فالنفس الشاعرة تثور لدوافع متباينة مختلفة ، تختلف باختلاف مشاكل الحياة وتباينها .

والثورة هي سخط على وضع قائم فاسد ، وحركة عنيفة لتغيير ذلك الوضع والقضاء عليه من اجل ارساء القواعد لاوضاع جديدة تطابق المثل العليا التي يهدف اليها الثائرون . وهذه الاوضاع الفاسدة التي يسعى الثائرون للقضاء عليها قد تكون اوضاعا وطنية او قومية ، عنصرية او انسانية ، اجتماعية او خلقية ، وان كان الترابط والتفاعل موجودين دائما بين الكثير من هذه الانواع ، وفيها جميعا تكون الكلمة الشاعرة هي المحرك والوقود ، بل هي المبشر والمتنبىء ، وهي المؤيد والممجد ، وهي المثبت لاركان الثورة اذا قيض لها النجاح .

والثورة الوطنية ضد الاستعمار كانت دائما ثورة ضد المستبدين والطغاة من الحكام العرب ، أولئك الذين كانوا دائما مطية المستعمرين ، وحلفاءهم يكممون الافواه ويحكمون بالحديد والنار لانهم يتعاونون معه ضد مصالح الشعب .

وديوان « اصرار » الصادر في القاهرة ١٩٥١ لكمال عبد الحليم وديوان « أعاصير في السلاسل » الصادر في حلب ١٩٥٤ لسليمان العيسى ، يعبران خير تعبير عن كل ذلك .

فقصائد كمال عبدالحليم التي كتبها في عهد الملك السابق فاروق ، بل وفي عهد رئيس الوزراء الطاغية صدقي باشا ١٩٤٦ انما كانت دعوة صريحة للثورة ، بل نبوءة لم تلبث ان حققتها الايام .

ففي قصيدة « هذه الثورة » (١) المكتوبة ١٩٤٦ نرى الشاعر يتنبأ بالثورة بل يتصورها قد حدثت بالفعل فيقول :

هبت الريح وللريح اذا هبت زئير
وتراءت كتل الاجساد كالريح تطير
كتل يقتلها الصمت وتحييها القبور
حطمت بيد الثورة ماضيها الصغير
ومضت تنحت مستقبلها بين الصخور

وفي نهايتها يقول :

انه الشعب دعاه الليل ان يصبح شعله
قد احس الارض قضبانا وفي القضبان ذله
انه يفنى ليحيا فوق ارض مستقله

. . . .

هذه الثورة لن تخمد – ان لم تظفر
لن ينام الشعب عن قيد – اذا لم يكسر
لعنة الشعب على الاصنام والمستعمر

وفي نهاية قصيدة اخرى بعنوان « هجرة » نراه يقول :

بل تعالوا نحطم « الصنم العاتي » ونبني هنا الحياة الجديده
يارفاق الشقاء هل من مريد لنزوح الى بلاد بعيده
حيث تحت السماء قوت وستر وحياة يقال عنها سعيده

ولقد حطم « الصنم العاتي » حين خلع الملك الفاسد بنجاح ثورة ٢٣ يوليه المباركة ، وبدأنا بحق في بناء الحياة الجديدة .

اما سليمان العيسى فلقد كان يهاجم ذلك العهد الديكتاتوري المستبد الذي رزحت تحت نيره سوريا عامي ١٩٥٣ ، ٥٤ ، ويقرن بينه وبين سيطرة الاستعمار وتطاول اسرائيل على الحدود العربية . ففي خاتمة قصيدة « على الحدود » يرى اننا يجب اولا ان نتخلص من الحكام الطغاة واعوان المستعمر لكي نستطيع ان نلقى اعداءنا الخارجيين وننتصر عليهم :

لو كان في كفي قياد القدر (١)
غسلت جفني أمتي بالشرر
ألهبت بالثورة حتى الحجر
طهرت ارضي من ظلال العبيد
عندئذ ... ألقى عدوي العتيد

وفي قصيدة « ادفن الشكوى » نراه يقول : (٢)

نحن ؟ هم يدرون من نحن ، جراح الضعفاء
كمما كموا فما زلزلهم ألف نداء
وهم من هم ؟ حثالات عبيد واماء
لفهم « مستعمر » نذل بثوب الكبرياء
لم يحن مابيننا يا أمتي يوم اللقاء

ثم يقول منذرا ومبشرا بفجر الثورة التي ستطيح بالاستبداد :

ليزجونا غذاء السجن مثنى وفرادى
وليبيعوا مثلما شاؤوا لمن شاؤوا البلادا
لا رعانا الله ان نلبس على الخطب حدادا

---

(١) ديوان « اصرار »

(١) ص ٩٠ من ديوان « أعاصير في السلاسل »

(٢) ص ٣٦ من ديوان « أعاصير في السلاسل »

فجرنـــا أقوى على الافـاق نـورا واحتشـــادا
نفحة الارهـــاب لـن توسعه الا اتقـــادا

ولئن عبر هذان الشاعران عن دعوتهما للثورة بذلك الشعر القـوي الواضح الصريح فان بعض الشعراء قد تلجئهم ظروف العسف والاستبداد وتكميم الافواه والرقابة المتعنتة على وسائل النشر ، قد يلجئهم كـل ذلك الى الرمز حتى يستطيعوا اذاعة اشعارهم الثورية (١)

ولئن كان الرمز في حاجة من القارىء الى قدر اكبر من التأمل لاستكناه دقائق المعنى المختفي خلفه ، الا ان استخدام الرمز نفسه يعطي العمـل الفني ثراء وعمقا ، ويهبه بعدا ثالثا ان جاز هذا التعبير ، أي يجـده ، ويجعل القصيدة وحدة تشكيلية ، كالتمثال المنحوت ، لامجرد اندفاعات عاطفية وصرخات حارة ، قد تكون مؤثرة بلا شك ، وقد تكون مترابطـة ترابطا منطقيا مسلسلا ، ولكنها رغم ذلك تظل تفتقد تلك الوحدة الكلية التي نلمسها في التحفة المنحوتة المجسدة ، ذات البنية العضوية السليمة المترابطة . بل ان الرمز قد يكون من الثراء بحيث يحمل اكثر من مدلول يمكن تفسير العمل الفني به دون تعسف .

على ان الرمز وان كان في بعض الاحيان تقية سياسة ـ الا انـه ـ بالاضافة الى ماذكرت ـ يعطي الشاعر الموهوب امكانية الخروج على الطرق المالوفة ، والالفاظ المحفوظة والاساليب المعادة . لان الشاعر سينساق مع الرمز الذي اختاره فيعبر عما يلزمه به وما تتم به صورته ، فيتحـرر من القوالب القديمة المحفوظة التي براها طول الاستعمال خصوصا وان الرمز على هذا النحو الكلي لم يكن معروفا عند القدماء مما يساعد على هذا التحرر . وخير مثال لذلك قصيدة « مدينة بلا مطر » لشاكـر السياب . وقد نشرت القصيدة في العدد الصادر في اب « اغسطس » ١٩٥٨ ، ولكن القصيدة قد كتبت قبل ذلك بلا شك ، خصـوصا وان الدكتور سهيل يقول في تقديمه لذلك العدد انه كان ينبغي له ان يصور في « ايار » « مايو » ولكن قيام الثورة في لبنان حال دون ذلك . وقد كتب على ذلك العدد نفسه « حزيران ـ تموز ـ اب ـ » لانه جاء بعد الفترة التـي انقطعت فيها « الاداب » عن الظهور .

وفي هذه القصيدة يتخذ الشاعر رموزه من الاساطير البابلية : تموز اله الخصب الذي صرعه خنزير بري ، ولكنه ينبعث كل عام فتنبعث معه الحياة بعد هجعة الشتاء ، وتعود بعودته حبيبته عشتار الهة الحـب والخصـب .

وفي الجزء الاول يصور الشاعر تلك الثورة المكتومة التي تضطرم فـي صدر المدينة وتوشك ان تشتعل :

« مدينتنا تؤرق ليلها نار بـــلا لهـب
تحـم دروبها والـــدور ثم تزول حماها
ويصبغها الغـروب بكل ماحملته من سحب
فتوشـك ان تطيـر شرارة ويهب موتاها »

ولكن النار لاتشتعل ، وطبول الفرح لاتدق بعودة تموز فان عشتـار الهة الخصب « فارغتان كفاها » و « قاسيتان عيناها » ، واهل المدينـة جياع فالسحب مرعدة مبرقة دون امطار .

ان الشاعر ينتظر الثورة التي تحمل الحرية والتي يرمز لها بالمطـر ، تحمل معها الخصب والحياة ، ولكن الانتفاضات الصغيرة التي يقـوم بهـا الشعب احيانا ، ليست سوى رعود بلا امطار .

(١) في بعض الاحوال لايكون الرمز مجرد تقية بل قد يكون اسلوبـا فنيا فضله الشاعـر .

ولكـن مـرت الاعـــوام كثـرا ما حسبناهـــا
بـــلا مطر .. ولـو قطـره
ولا زهـر .. ولـو زهــرة
بـــلا تمر كأن نخيلنا الجرداء انصاب اقمناهـا
لنذبل تحتهـــا ونموت »

ثم يذهب صغار بابل يبتهلون الى عشتار ان تسقيهم وتمنحهم المطر :

« ورف كأن الف فراشة نثرت على الافق
نشيدهـــم الصغير :

قبور اخوتنا تنادينـــا
وتبحث عنـك ايدينـــا
لان الخوف ملء قلوبنا ورياح اذار
تهز مهودنا فنخاف والاصـوات تدعونا

. . . .

فيا من صدرها الافق الكبيـر وثديهـا الغيمـه
سمعت نشيجنا ورأيـت كيف نمـوت فاسقينا
نموت وانت ـ واأسفاه ـ قاسية بـلا رحمـه
فيا أباءنـــا مـن يفتدينا ؟ من سيحيينـــا ؟
ومن سيموت : يولـم لحمه ودماءنـــا فينـــا ؟

ان الشاعر هنا ـ في هذين السطرين الاخيرين يدعو للثورة ، يدعـو لان يحمل عبئها بعض الضحين الذين يولون حياتهم قربانا لحرية لكـي يفتدوا الاجيال الناشئة ويحققوا الأمل الذي استشهد في سبيلـــه الشهـداء من قبـــل .

اما الجزء الاخير فلعله يرمز الى ان الثورة قد اندلعت في بلد اخـر خارج اسوار بابل ـ لعله مصر او لبنان وان هذه الاسوار التي ترمـز الى الحكم الفاسد المستبد ، قد حالت دون المطر ودون ان ينزل في بابل نفسها ، ولكنه مع ذلك قد حمل الامل في ان بابل سوف « تغسل يومـا من خطاياها » ، الامل الذي يرمز له الشاعر بالقمر او بالنجمة او بقطـرة مـاء انفلتت من الغيمة :

« وسح وراء مارفعته بابل حــول حمـاهـا
وحـــول ترابها الظمان مـن عمد واســوار
سحـاب كان لـولا هـــذه الاسوار رواهـــا
وفي ابد من الاصغار بين الرعـــد والرعـــد
سمعنا ـ لا حفيف النخل تحت العارض السحاح
او ما وشوشته الريح حيث ابتلت الادواح
ولكن خفقة الاقدام والايدي
وكركرة واه صغيرة قبضت بيمناهـــا
على قمر يرفرف كالفراشة او على نجمـــه
على هبة من الغيمـة
على رعشات مـاء ، قطرة همست بهـــا نسمه
لنعلم ان بابل سوف تغسل من خطاياها »

وانا بعد اعلم ان امثال هذه القصيدة الرمزية الرائعة لايشعر الانسان بكل روعتها الا اذا قراها كاملة ، وان الاستشهاد باسطر منها يتلفهـــا ، لانها بنية حية لايمكن نزع جزء منها دون ان يختل بناؤهـــا .

وفي موقف قريب من هذا ، موقف انتظار الثورة التي لاتتحقق لتحمل الحرية الى الشعب ، الثورة التي تحاول ان تنهض ولكنها لاتعبر عـن نفسها الا في انتفاضات جزئية لاتبلث ان تخمد بحيث توشك ان تحمل

النفوس على اليأس ــ نجد قصيدة نازك الملائكة اللاهبة اللاذعة « الراقصة المذبوحة » (١) انها تهديها« تحية الى الجزائر في نضالها » ولكن القصيدة كما سبق ان اوضحت (٢) لايمكن ان تنطبق على ثورة الجزائر بحال من الاحوال ، بل هي تنطبق على حال العراق قبل ثورة تموز . فالقصيدة تعبر عن روح من تولاه اليأس من صلاح حال انسان او شعب عزيز على نفسه ، ولكن في ضميره بقية خفية من أمل ، ولذلك فهو يخزه ويجرحه ليثير فيه النخوة ويحفزه للمثابرة ، وهي بذلك تختلف عن قصيدة السياب التي تبتهل وتحنو ، بدلا من ان تخز وتجرح وفي النهاية تبشر بالامل وقرب الخلاص . وها هي ابيات من قصيدة نازك تعبر عن روحها :

انتفاضات ؟ وفي الشعب بقايا
من عروق لم تسل نبع دماء ؟
انفجارات ؟ وبعض الابرياء
بعضهم لم يسقطوا بعد ضحايا
لم يكن جرحك بدعا في الجروح
فارقصي في سكرة الحزن المميت
الارقاء الحيارى للسكوت
احتجاجات ؟ لماذا ؟ استريحي !
اضحكي للمدية الحمراء حبا
واسقطي فوق الثرى دون اختلاج

(١) ديوان قرارة الموجة

(٢)في تعليقي على قصائد عدد المعركة في عدد شباط « فبراير »١٩٥٧

منة ان تنبحي ذبح النعاج
منة ان تطعني روحا وقلبا

كما اننا نلاحظ ان شاكر السياب قد التزم رمزه من البداية الى النهاية فظل يتحدث عن تموز وعشتار والمطر والجفاف . وحتى الدعوة لثورة رمز لها بالدعوة لتقدمة الضحايا للالهة . بينما خرجت نازك على رمزها اذ لم تلتزم التزاما حرفيا صورة الراقصة المذبوحة بل انها اشارت اشارة صريحة الى الشعب وانتفاضاته ، وان كانت قد اضطرت ان تنسب القصيدة للجزائر لا للعراق .

علم ان الشعر الثوري المعاصر يتخذ طريقا اخر للتعبير غير التعبير الحماسي المباشر او الرمز الملتزم او غير الملتزم . انه يلجأ الى القصة . الى قص حادثة بذاتها قد يجعل الشاعر من نفسه احد ابطالها او مجرد راويتها فحسب . والشاعر يختار لها بعض التفاصيل الصغيرة الموحية يتدرج بها في بساطة حتى تصل الى ذروة المأساة فتهزنا قوتها الدراماتيكية . وعندئذ ، وعندئذ فقط تستطيع ان تدعونا الى النضال بعد ان تهيأت نفوسنا له تهيؤا كاملا بقراءة القصة .

ان الشعر الثوري ذا التعبير المباشر يناسب فترة احتدام المعارك الفعلية ذاتها . انه كالمارشات العسكرية ، يلهب النفوس ويدفع الى الحماسة والحمية . ولكن الشعر الثوري القصصي هو المهد لتلك المعارك ، هو الذي يؤصل الصور الثورية في النفوس ، بحيث تستطيع ان تتقبل العمل الفعلي الايجابي حين يحين اوانه . انها التبرير النفسي للثورة والصورة التي تظل عالقة بالوجدان حتى ولو خفتت وقدة الحماس بحيث يستطيع ان يوقدها القادة السياسيون او شعراء المعارك من جديد باقل جهد ، ثم يجدون استجابة حارة واعية من نفوس الشعب .

ولهذا الشعر اصوله في ادبنا الشعبي : في المواويل والقصص الشعرية التي تنشد في الموالد على نغمات الرباب . وهذه الطريقة القصصية اذ تلجأ الى حكاية التفاصيل الصغيرة الموحية ، تستخدم لغة بسيطة تلائم السرد القصصي ولكنها مؤثرة بما تجسم لخيالنا من تفاصيل الحياة الانسانية البسيطة ، الاليفة الى قلوبنا ، لانها من نسج حياتنا التي نحياها في كل ساعة وفي كل يوم . فالانسان القدر بطبيعته على الانفعال والتأثر بالاشياء التي تقدم له في قالب محسوس حتى اكثر من قدرته على تمثل الافكار والمثل المجردة ، التي لا يتسنى تمثلها الكامل الا لعدد محدود من الناس . وهذه الطريقة القائمة على تصوير التفاصيل الدقيقة الموحية تجدد ايضا في لغة الشعر ، وتبعد به عن القوالب والصيغ المتوارثة ، لان الشاعر القصصي ينظر الى ما حوله ليصوغ قصته، ولا يلجأ الى الذاكرة التي تحمله على التقليد ، وخير شاهد على ذلك ديوان « مع الغرباء » لهارون هاشم رشيد الذي يتخذ موضوعه الرئيسي من مأساة فلسطين واللاجئين . وفي الديوان قصائد كثيرة زاخرة بالاحساس الحار والتعبير الثوري بالطريقة التقريرية المباشرة ، ولكننا رغم ذلك نحس ان درتي الديوان هما القصيدتان اللتان اختار لهما الاسلوب القصصي ، وهما قصيدتا « قصة » و « مع الغرباء »

اما القصيدة الاولى (١) فلها كل مقومات القصة ، فلها بدء وقمة وختام وبها بعض الفقرات الحوارية . وهي في الحقيقة قمة من قمم الشعر المعاصر . ويبدأها الشاعر بالحديث عن موت جاويش من جنود

ــ البقية على الصفحة ١١٣ ــ

(١) ص ٥٠ ديوان « مع الغرباء »

صيحة الرواد

في مهرجان الكواكبي



حملتُ في شفتيَّ النـار والالما
هما جناحايَ في الزحف العظيم .. هما

الفان قيثارتي والجمر .. ما رَعشا
الا ومن دميَ المطـلول نبضُهما ...

غمست في كهب الاعصار قافيتي
وما اكترثت ... رمادا عدت أم نغما !

لي في ضلوع الدجى ثأر سأبلغه
ثأر الصباح سجين القبر متَّهمـا

ثأر الينابيـع مدت في خمائلنا
أنهارها ، واحترقنا في الهجير ظما

ثأر الشريد تشق النار محجرَهُ
ان مر منزله في جفنه حلما

ثأر الملايين من لحمي ، ومن عصبي
بين المحيطين .. لحما مزقوا ودما

ثأر العروبة .. ان لم أسق وحدتها
شعري ، فلا اهتز قيثارتي ولا سَلِما !

✶

ماذا تريد سماء الوحي من وتري
وفوق صدريَ تاريخ الاسى جثما ؟

ماذا ؟ اسوسنةٌ في الحقل ضاحكة
أصوغ أنداءها للمجتلي كلما ؟

أباقة من شعاع الشمس غاربةٌ
أذيب فيها فراغ الروح والسأما ؟

أهمسة من شفاه الحب عابثة
أقصها .. فأغذي الجيل منهزما ؟

كفرت بالحقل يؤوي غير زارعه
ويحمل الجرح .. لا شكوى ، ولا برما

كفرْت بالحب ان ينشر غلالته
على حبيبين حام الذل فوقهما

كفرت بالشمس ان تشرق على بلدي
الا لتلثم ارضا حرة وسما

آمنت بالوتر العطشان محترقا
وينبت الزهو من يمناه والشمما

آمنت بالشعر شلالا أصب به
سحر الرجولة، أسقي الجيل مقتحما

✶

دعني ألملم على المأساة جانحتي
غمامة تتحدى الفجر مبتسما

دعني شعاعا على أهداب قاهرتي
أهدهد الشوق سكران الخطى نهما

زرعت في كل ثغر لحن ثورتها
أهزوجة ، وتركت الدرب مضطرما ـ

وجئت القي الاماني فوق كاهلهـا
والعبء للكاهل الجبار ان زحَما

أغرودة الوحدة الكبرى ، خذي كبدي
عبر الرمال تسابيحا لها وفما

قرات في أعين الاطفال طلعتها
اني لالمح شـلال الضحى امما

في الشام ، في الشاطيء الوردي، في حلب
في كل زندٍ بعطر التربة التحما

آمنت بالزحف يغشى كل ناعقة
لم تتصل نسبا فينا ، ولا رحما

الحاقدون تلاقوا حول صحوتنا
وهيأوا للربيع الشوك والنقما

الناشرون على فجري ضبابَهُم
« ايمانهم » بحراب الغاصب اعتصما

القاتلون.. ويتلون التقى سورا
ويملأون سراديب الدجى حكما

ماضيَّ أحمله لحناً بحنجرتي
ولست احمله لحدا ، ولا رمما

رمالنا السمر تدري من ينضِّرها
ومن يرد شباب الفتح ان هرما !

✶

أزحزح الستر عن فجري فألمسه
مواكبا بخطاها تصدع الظلَما

تنازل البغيَ رأيا شع في أفقٍ
وتخلع النير سيلا ثائرا عرما

وفي رحاب بني حمدان وشوشة
تفجر الارض بالسر الذي كتما

تسقي العيون خيوط النور صافية
والافق غاشية من حولها وعمى

وترتمي صيحة الرواد لاهبة
تجوز في وطني الاغوار والقمما

تنبهي يا وكور النسر وأنفتحي
على السماوات ، ان القيد قد حُطما

ومد « يلدز »(١) عيدان الردى،وهوت
اولى القوافل ، تسقي الزهو والشمما

وخضبت جنبات الشام زمجرة
لم تنطفيء بعد لا رعدا ولا حمما

(١) قصر الطاغية السلطان عبد الحميد .

وانداح في النيل زأر كلما مطرت
زرق الحراب عليه ماج واحتدما

عبده ، النديم ، عرابي ، بعض غضبتنا
للفكر ، للحق ، للعرض الذي ثلما

للشعب .. يسلبه العدوان لقمته
فان شكا ، من رصاص المعتدي طعما

من فجر ايار كم جرح وعاصفة
خضنا ، فلم نرتعش خطوا ولا قدما

من فجر أيار .. نعطيه جماجمنا
يا فجر تموز.. ما زال العطاء كما ..

✶

بغداد .. جرحك في صدري، أأوقظه
ولو هدأتِ لكنت اللفحَ والضرما

أجيل طرفي على ستين قد درجتْ
فما أرى جدة فيها ، ولا قِدما

من مذبح بدم الاحرار مشتعل
لمذبح بقرابين العلى ازدحما

السابقون الى الميدان .. ما هدأوا
ليمنحوا الخيل بعض الروح واللجما

«أم الطبول(١) تدق السمع صامتة
يا روعة الصمت .. يطوي صدرها قسما

اذا تمطيت يا بغداد عن عربي
لنعرفن بك العملاق ، والقزما

لتشهدن وقاحات غصصت بها
أمة ملء سمع الدهر ام أمما ؟

(١) ساحة اعدام الشهداء ببغداد

ماذا أغنيك يا أرضي ؟ ومعركتي
بين المحيطين تجري في دمي زخما

نشيديَ البكر ما «سري» (١)بشهقته
املي ، وما « ناظم » (٢) فيٍنزعه نظما

نشيديَ الفذ .. بن بلا وبسمته
تزلزل الظلم والسوط الذي ظلما

تزيح عن جبهة التاريخ وصمته
تلقن الوحش نبل العهد ، والذمما

نشيدي الحلو عملاق سكبت له
نبض الملايين في قيثارتي نغما

وهبت للنيل ذوب الروح قافية
عرباءَ مرت على الامها كرما

لقصفه النسر ما ضمت جوانحنا
وللعروبة ما ابقى الكفاح ذما

ونحمل الورد للكف التي حملت
لنا السهام .. ونفدي الحب حيث رمى

✶

كنانة الله، مدي الظل في وطني
وفيئي السهلَ من عدنان والاكما

انا طلعنا على التاريخ اغنية
خضراء ، فليصطنع اعداؤها الصمما

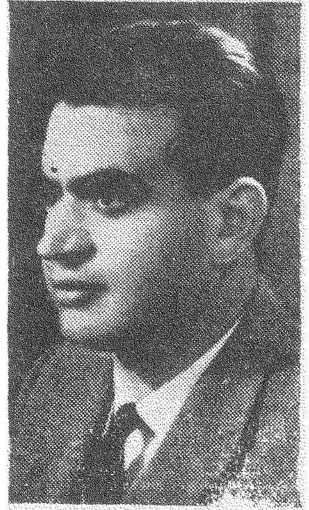
كالشمس ثورتنا ينداح عسجدها
على الكروم فيسقي الشوك والعنما

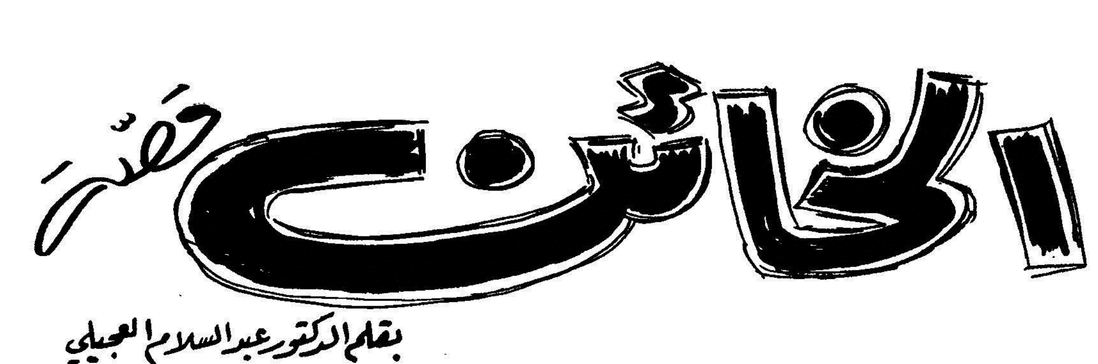
كالنهر موكبنا يمضي لطيته
ويستحث خطاه الصخر ما اصطدما

آمنت بالوحدة الكبرى ، بصحوتنا
هما جناحاي في الزحف العظيم .. هما

القاهرة **سليمان العيسى**

(١) الشهيد رفعة الحاج سري
(٢) الشهيد ناظم الطبقجلي





وقف المتهم ، وهو ضابط في ريعان شبابه فارع القامة وثيق البنيان تلتمع عيناه السوداوان تحت حاجبين كثيفين مقرونين فوق انفه ، وعلى كل من كتفيه تبرق ثلاثة نجوم نحاسية ، وقف المتهم حيال هيئة المحكمة وتطلع مليا في النائب العام العسكري حتى اضطر هذا الى ان يطرق ببصره متشاغلا بتقليب بعض اوراق ملف بين يديه . حينئذ توجه المتهم بنظره الى رئيس المحكمة الذي كان يتصدر المنصة يحمل شارات رتبته وكل اوسمته ويحف به من الجانبين اعضاء المحكمة وكلهم ضباط من مختلف الرتب والاسلحة في الجيش ، وقال :

سيدي الرئيس

اقف بين يديكم لالقي كلمتي الاخيرة قبل ان تصدروا حكمكم علي ، فارجو ان يتسع صدركم وصدر النائب العام العسكري لهذه الكلمة . انها الكلمة الاخيرة لي امام محكمتكم وربما كانت الاخيرة لي في الحياة كلها . بالامس اوكلت الكلام عني الى محاميّ وقد قام بجهده مشكورا . ما الذي يستطيع اقدر المحامين ان يطلبه لمتهم مثلي ، تكاثفت عليه الوقائع وطوقه النائب العام باغلال فصاحته وبيانه ، غير الرافة والرحمة ؟ وقد كان في عزمي ان اكتفي بدفاع محامي واتقبل حكمكم بعده لولا ان خاطرا تسرب الى ذهني والح على تفكيري طوال الليلة الفائتة . هذا الخاطر كان يدعوني ، ما دمت مقدما على الحقيقة الكبرى التي ستتلفظ بها شفاهكم ، الى ان اقول كل شيء ، اقول كل الحقائق الصغرى التي اعرفها او التي عرفتها في هذه الايام الاخيرة . كان هذا الخاطر يصور لي اجراما ، اكثر من الاجرام الذي اتهمني به النائب العام ، أن أختص بهذه الحقائق الصغيرة لنفسي ويلح علي ان اقولها بصراحة وبصوت عال . لمن اقولها ... للتاريخ ؟ لكم يا سيدي الرئيس ويا سادتي الاعضاء ؟ للشعب ؟. لست ادري على التحقيق . ولكن علي ان اعترف لكم اني اومن بكم وبهذه المحكمة التي امثل امامها اكثر من ايماني بالتاريخ ومحكمته . كل الذين يقولون بان التاريخ ينصف مظلوما او يحاسب مجرما افلتته محاكم ايامه هم اما مخدعون او قليلو المعرفة اوهم سيئو النية . اما عن الشعب .. ولكن علي يا سيدي الرئيس ان لا استرسل كثيرا وان اصل سريعا الى الحقائق الصغيرة التي الح علي خاطري في الليلة الفائتة بروايتها وبان انفضها امام محكمتكم بصراحة ، وبساطة .

قبل كل شيء اريد أن اطمئن النائب العام الى أن هذه الحقائق الصغيرة لن تفعل شيئا في الطوق المتين الذي اثبته حول عنقي ، والى انه ما دام قد طلب راسي فسينال راسي . ليطمئن ،بل ربما وجد في هذه الحقائق الصغيرة ما يعينه على احكام ذلك الطوق لو ان في التهم التي صاغها لي زيادة لمستزيد . انا متهم بعصيان الاوامر العسكرية وبقتل المواطنين الابرياء وبالتآمر على كيان الدولة والنظام القائم ، وفوق ذلك كله انا متهم باني خائن ... خائن للثورة . ان التهم الاولى التي اثبتها النائب العام علي تكفي وحدها ، او بعضها ، لان تفقدني الحياة ، فما بال التهمة الاخيرة ؟ انا خائن للثورة ! ... انها ليست تهمة تقتل يا سيدي الرئيس بل هي سبة تلحق روحي بعد الموت وتلصق باسمي حين لا يبقى على وجه الارض جسد يحمله . كم انا معجب يا سيدي الرئيس بمقدرة النائب العام العسكري على احكام الشبكة حول فريسته حتى لا يترك للنجاة لها مهربا ! انها لمقدرة هائلة تزود لها بالعلم والفراسة وطلاقة اللسان وزادت مضاء بالمران ! .. لقد اشاد النائب العام بي ، بمواهبي ، بتقارير رؤسائي المشرفة عني ، بميولي الثورية واندفاعي المنهل في الطريق التقدمية ، ورفعني باطرائه الى القمة ليحسن بعد ذلك القائي في الهاوية السحيقة التي حفرها لي في أصل تلك القمة ، هاوية اتهامي باني خائن للثورة . اني اخفض هامتي احتراما لمقدرة النائب العام العسكري ، واصدق روايته لحوادث اليوم المشهور الذي جعلتني حوادثه مجرما ، ولا أطعن أبداً في صدق احد من شهوده الذين قدمهم للشهادة علي ، بل اني لاعترف امامكم بوجدي الشديد ببعض هؤلاء الشهود . ولكني رغم ذلك كله اريد ان اروي امام محكمتكم الموقرة حقائقي الصغيرة يا سيدي الرئيس .

تريدون مني ان لا اطيل وان أبدأ برواية الحقائق ؟ حسنا يا سيدي، سابدأ حالا . سابدأ قبل كل شيء برواية الوقائع ... ولكن أي الوقائع ابدأ بها ؟ لولا ان تظنوا بي السخرية لبدات بيوم خلق السموات والارض، فكل وقائع هذا الوجود تبدأ بذلك اليوم . ولكن ذلك تاريخ بعيد ،فلأبدا باليوم الذي قامت فيه القيامة التي امثل من اجلها امامكم الان . في ذلك اليوم وسدت لي مهمة لا يستطيع غيري ان يقوم بها وان علت مرتبته وسما مقامه . لقد غاب رئيسي ورئيس رئيسي في الفرقة التي انا ضابط في احدى وحداتها فانيط بعاتقي الواجب الذي توسم في القادة الاعلون كفاءة القيام به ، والذي من اجله مرض رئيسي واستدعى رئيس رئيسي الى مهمة في بلدة نائية . كيف حدث هذا فتخطى ذلك الواجب السامي اعناق الكبار ليقف عندي ؟ حدث ذلك لاني شاب قوى

الشكيمة ماضي الارادة واضح الاندفاع والاتجاه الذي تسير فيه ثورتنا المقدسة ... ثم لاننا في ثورة . اني لن افصل في ماهية ذلك الواجب فقد كفاني النائب العام العسكري مؤونة ذلك ، بل انه قد اورد في حرفيتها نصوص الاوامر التي تلقيتها شفاها وكتابة من القادة الاعلين . كان واجبي واضحا . في هذه المنطقة التي تعسكر فرقتي كانت ستقوم ثورة على الثورة .... استغفر الله والوطن ، بل سيقوم عصيان على الثورة . فكان علي ان احطم هذا العصيان كما يجب أن تحطمه قبضة بطاشة لضابط مثلي شاب قوي الشكيمة مؤمن باهداف ثورتنا التي يقوم في وجهها هذا العصيان . انها فرصة ثورتنا العظيمة التي لا تعوض ، للخلاص من الانهزاميين والرجعيين والمخربين ومن كل من يضع في عجلة التقدم الثوري عصا مجرمة . وقد انتهى الي ، انا الضابط المبتدىء المتواضع الرتبة ، شرف أن أعير ساعدي لثورتنا تحطم بها في هذه الفرصة اعداءها السفلة ، حثالة الحثالات . قال النائب العام العسكري امامكم ان كل ما كان متوقعا ومهيأ قد تم ، فنشب العصيان وانكشف الانهزاميون والرجعيون والمخربون واتيحت للثورةفرصتها العظيمة المرتقبة ، الا ان الساعد الذي كان عليه ان يبطش ويضرب الضربة القاضية قد تهاون وتخاذل بل تآمر وانقلب . ذلك الساعد هو ساعدي . لذا حكم علي النائب العام باني مجرم اثيم ووصمني فوقها باني خائن ... خائن للثورة . اي ثورة يا سيدي الرئيس ؟ ان احدى حقائقي الصغيرة تقوم على ان هناك الوانا من الثورة يجب ان نميز بينها ، وكان على النائب العام ان يوضح لمحكمتكم اي ثورة قد خنتها انا . اذن لقال لكم انها ثورة الشعب .

حسنا .... على كل حال فان النائب العام لم تعوزه الادلة ان في تهمته لي او في وصمته فساق منها كثيرا كثيرا . وكذلك لم يعوزه الشهود . فلو شاء لحشد مئات الشهود الذين يتطوعون ليتقدموا الى عدالتكم بما رأوه من تهاوني وتخاذلي وتآمري وانقلابي . ولكن النائب العام لم يرد ازعاجكم واكتفى بازعاجي انا ... قدم اليكم فيما عدا شهادة مرافقي الذين تلقوا اوامري المباشرة في ذلك اليوم شاهدا واحدا اليس من حقي بعد هذا ان أتقدم بالتهنئة الى النائب العام على مقدرته وبراعته وحنكته ؟

سيدي الرئيس :

اقسمت سلمى امام محكمتكم يمينا على انها تقول الحق ، ولقد برت بيمينها وما كذبت . هناك ، على ما اعرف ، محاكم غير محكمتكم الموقرة يقسم الشاهد امامها على ان يقول الحق كل الحق ولا شيء غير الحق ، فلو أن سلمى كانت ادت قسما كذلك القسم قبل أن تقدم شهادتها ضدي امس اذن لاستطعت القول انها حلفت يمينا كاذبة وانها ما برت بقسمها . ذلك ان سلمى لم تقل الحق كله امس . روت حقا ما فعلته انا حين خالفت الاوامر الصريحة التي زودت بها فلم اوجه نار رشاشات وحداتي الى المظاهرة القادمة من الاحياء الشمالية حاملة على الثورة وبعض لافتات تحمل بعض الشعارات بل وجهتها الى الجموع التي كانت تحمل علم الثورة وتحمل معها حبالا للخنق واعمدة للشنق وسواطير تفلق الهامات والتي قدمت من الجنوب . روت سلمى هذا وكان هذا حقا ، ولكنها لم ترو ماذا عملته انا في الليلة السابقة لليلةالعصيان . روت سلمى حقا انقلابي المفاجيء على الاتجاه الذي كنت اسير فيه في اندفاع نحو غاية عهدنا الجديد ولكنها لم ترو حقا لم كان هذا الانقلاب ولا ماذا كان دورها هي ، سلمى ، في هذا الانقلاب . ثم ان سلمى اعطت النائب العام العسكري مستندا ليس اقوى منه حينما قالت اني خائن للثورة ، وكان قولها ذلك حقا ، الا انها لم تقل فيه كل الحق اذ لم تبين للنائب العام ولا لمحكمتكم ما هي الثورة التي خنتها انا . ان احدا غير سلمى لا يستطيع ان يميز بين الثورة التي خنتها وتلك التي لا ازال لها مخلصا. وحقائقي الصغيرة التي وقفت لارويها لكم تقوم على ما لم تقله سلمى في شهادتها امامكم يا سيدي الرئيس .. انها تقوم على ما علمته انا في الليلة السابقة ليوم العصيان وعلى التمييز بين ثورتين اذا كنت اعترف باني خنت احداهما فاني آبى كل الاباء ان أوصم باني خنت الثانية او تهاونت في امرها . الثورة الحقيقية انا لم اخنها ولن اخونها ، وحسبي أن رأسي الذي يطلبه النائب العام العسكري منكم سيكون فداء لها ...

سلمى ... وانا لا اسميها باسم اسرتها ولا اسبق اسمها بلقب الانسة . سلمى هي كما وصفها النائب العام خطيبتي . بل هي اكثر من خطيبة يا سيدي الرئيس .. هي حبيبتي ! ان ساحة محكمتكم الموقرة ليست معودة على ان تسمع اعترافات الحب .. ولكن سلمى حبيبتي ونحن انما قمنا بالثورة لنسمي الاشياء باسمائها ، اليس ذلك صحيحا ؟ قبل الثورة كانت تعمر قلبينا ، سلمى وانا ، مشاعر واحدة عن اعداء الوطن ومستثمري الشعب وتدور في راسينا افكار متماثلة عن الطريق الصحيحة التي يجب ان يسلكها الشعب للخلاص من اولئك الاعداء والمستثمرين ولبلوغه حريته . كانت هي في مدرستها تلقن تلميذاتها حب الوطن وانا في قطعتي اهييء جنودي لحماية الوطن ، وفي كل كلمة منها وكل ايعاز مني لمحة من الثورة التي لاشك في قدومها ، ثورة الشعب في سبيل الوطن . فلما شبت تلك الثورة وحد انتصارها بين قلبينا ، انا وسلمى كثائرين باكثر مما وحد عهد الخطبة بين مصيرينا كرجل والفتاة التي ستكون امرأته . بالثورة اصبحنا حبيبين بعد ان كنا لسنا غير شابين تعاهدا على الزواج . ولكن كان مقدرا لنا ان نفترق من حيث التقينا .شب حبنا مع الثورة ونما بنموها فاصبحنا ، انا وسلمى، نلتقي ونتحادث ونتناقش في صراحة وكندين في ميدان الثورة وفي ميدان الحب معا ، لنكتشف ان بيننا تباينا في مفهوم كل منا لمعنى الثورة ... ولمعنى الحب كذلك . تباين خفيف اخذ بالتوضح شيئا وراء شيء حتى انتهى بنا ، انا وسلمى ، الى هذه النهاية ... الى ان نمثل امامكم : انا في قفص الاتهام وهي في موقف الشهود . كان التباين ضئيلا اول الامر يا سيدي الرئيس . كنت انا ارى ان الثورة المجيدة التي قام بها الشعب هي ثورة للوطن ، اما سلمى فكانت ترى ان الثورة للشعب. واي فرق بين الوطن والشعب ؟ كنت ، وكانت .... كنا نحسبه فرقا هينا ولكن انظروا الى اين انتهى ذلك الفرق الهين ..

سيدي الرئيس . اني رجل عسكري قد تعودت ان استخدم ما بين يدي من مادة في سبيل غاياتي المعنوية : استخدم الحديد والنار والقذائف والارض الجرداء والقرى المعمورة وحتى جنودي ، وهم اخوتي الادميون ، في سبيل الوصول الى الظفر والمجد والمثل الاعلى . ليست نشأتي العسكرية وحدها هي التي تدفعني الى تفضيل المعنى على المادة والروح على الجسد ، بل اني افعل ذلك لاني من امة آمنت دوما بان الروح فيها اولى من الجسد وبان معاني مجردة مثل الجود او الشجاعة او الذكر الحسن هي أسمى من المال او طول البقاء او من الحياة نفسها . فاذا انسقت انا العسكري المنتسب الى هذه الامة الى التفريق بين الوطن وبين الشعب ثم سئلت عمن اختار بينهما فمن الطبيعي ان اختار الوطن فافضله واقدمه . ذلك ان الوطن هو القيمة المعنوية للكمية المادية التي اسمها الشعب . منذ الصغر ونحن نهتف : نموت ويحيا الوطن ..

من نحن ؟ نحن الشعب !.. في صبانا وفي فتوتنا وشبابنا تعلمنا وعملنا على ان نضحي بغايات الافراد وبحيواتهم في سبيل سلامة الوطن وحريته وعلائه . فلو ان انسانا عرض علينا ان يبيعنا رفاه الافراد ، وهم الشعب ، وامنهم وسلامتهم بثمن يقبضه من مثلنا العليا ومن قيمنا الروحية اذن لصفعناه على وجهه ورددناه خاسئا مدحورا . لماذا ثرنا ثورتنا الكبرى يا سيدي الرئيس ؟ اننا ثرنا على اناس كانوا يمنوننا بالرفاه وبالتقدم المادي في مستوى حياة الشعب ، لاننا رايناهم يسعون الى ذلك على حساب عزة الوطن وكرامته . لهذا ثرنا وفي اعماق اعماقنا يعيش شعرنا القديم : نموت ويحيا الوطن . في اعماق اعماق سلمى كان يعيش ذلك الشعار مثلما كان يعيش في اعماق اعماقي ... ولكن رياحا نكباء هبت على شعلة ثورتنا من جهات الارض الاربع فحرفت نور الشعلة عن الوطن وسلطته على الشعب . في البدء قالوا : ماالوطن وما الشعب ؟ انهما سيان ! ولكن شعاراتهم اخذت تتضح شيئا بعد شيء وتأخذ اتجاهها المنحرف الذي يريدون . كنا نقول الحرية ، فاصبحوا يقولون : الخبز . كنا ننادي بعلاء الوطن فاصبحوا ينادون برفاه الشعب . كنا نهتف بالجهاد ونحن نعني النضال حتى النصر فاصبحوا يهتفون بالسلام وهم يعنون الذل والعبودية والتبعية . ما اكثر من انساقوا وراء هذه الشعارات المستحدثة وهم لا يدركون مغزى ما يفعلون ؟! من هؤلاء سلمى التي بدأت انحرافها بأن كانت تناقشني في ان ثورة الشعب وان مدلول اللفظتين واحد ثم انتهت الى ان تتهمني باني خنت الثورة لان الثورة هي ثورة الشعب للشعب وانا خائن للشعب ! ولكن قولها هذا لم يكن الا امس يا سيدي الرئيس وفي محكمتكم هذه . اما قبل امس ، قبل يوم العصيان اقصد ، فان سلمى كانت تناديني ببطلها الحبيب وانا اضمها بين يدي وأهصر قدها بذراعي والتهم شفتيها بشفتي .

اسمحوا لي يا سيدي الرئيس .... لا اريد مما اقوله الان ان اسيء الى سلمى ، سلمى حبيبتي اول امس وخطيبتي اول اول امس . وانا اطمئنكم على ان ما اقوله في حق سلمى سيسرها ولو كان سوءا ، فانها ستتخذه دليلا على شدة اندفاعها في السبيل الذي دفعها فيه مديرو وجدانها السياسي . للثورة في النفوس اثر مثل اثر الخمرة في الرؤوس وقد فعل هذا الاثر في نفس سلمى فانتشت به وسكرت منه وبدل بسلوكها سلوكا جديدا في الحياة وحيالي انا خطيبها . اخذت العلاقة بيننا تتسم بسمات جديدة لم تكن لها حين كانت سلمى تقابلني على استحياء وتحدثني بخفر وتحمر وجنتاها الخمريتان خجلا اذا ما مست احاديثنا مستقبلنا الذي سنكون فيه زوجين لكل منا على الاخر حق القرين على القرين . كل ذلك حدث بعد الثورة . لقد ظللت انا اسير ثكنتي وفرقتي واوامر قادتي العسكريين ، لحياتي مفاسد كل حياة جندية ولكن مفاهيمي المعنوية ظلت في عليائها لم تنحدر الى مستوى الارض ولا تمرغت في الوحول . اما سلمى فان تطورات ما بعد الثورة زلزلت مفاهيمها العاطفية فاخذت هذه المفاهيم اشكالا جديدة ادركتها انا فتركتني بين الدهشة لسرعة انطلاق سلمى في تطورها وبين الغبطة لان تطورها قد اغدق علي من مفاتنها مالم اكن احلم به . انتم يا سيدي الرئيس ويا سادتي الاعضاء عسكريون تدركون جفاف حياة الضابط في ثكنته اذا كان مستنفرا وكانت ملقاة على عاتقه مهمة يتعلق بها مصير كيان نظام ودولة . ولكن سلمى ، المعلمة الحيية حين عرفتها قبل ان تدير الثورة ، ثورة الشعب اعني ، راسها ، سلمى هذه كانت تجد الوسيلة ، بصفتها عضوا ذا شأن في المنظمة الشعبية ذات النفوذ السياسي الكبير ، الى ان تزورني كل ليلة في مقر قيادتي وان تقضي الساعات الطوال في مكتبي تناقشني في تطورات الحال الراهنة في قطاع عملي وعملها ، القطاع المشرف عليه انا عسكريا والمشرفة عليه هي سياسيا .

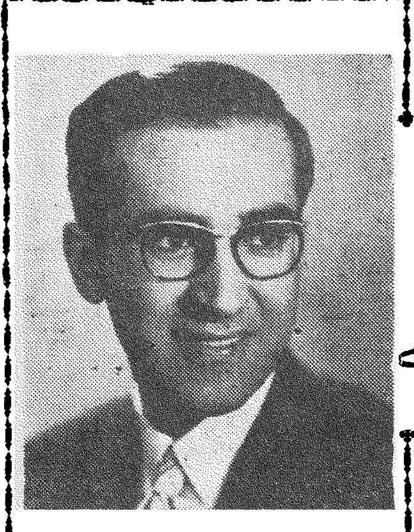
وفي الليلة التي سبقت نهار العصيان زارت سلمى مكتبي مثلما فعلت في كثير من الليالي الفائتة . استبدت بها الحماسة وهي تحدثني في خطة الصباح وتطلعني ، على غير توقع مني ، على اسرارها حتى برقت عيناها بالق التصميم واستطالت قامتها بفورة الاقدام . ان عيني سلمى كما لاحظتم ولا شك يا سيدي الرئيس عسليتان واسعتان ، بل هما وحشيتان طويلتا الاهداب . وقامتها كما رأيتم معتدلة لفاء ينهد منها صدرها بارزا مغريا ويلتف دونها ساقاها مشيقين رائعين . فما كان لي عذر ، في فورة الحماس وفي وحدتنا واغراء الليل بنا ، الا اتناول قدها بيدي اهصر خصرها واحطم شموخ نهديها والتهم شفتيها المحمومتين بشفتي الجشعتين . ولقد فعلت .. فختمت بقبلة لاهبة على اتفاق بيننا ان انفذ في صباح الغد تلك الخطة السياسية التي اسندت الي من اجل تنفيذها قيادة قطعة ليست هينة من الجيش بعد ان غاب رئيسي فيها عنها مريضا واستدعي رئيس رئيسي في مهمة خطيرة في بلدة نائية .

كيف قبلت بتنفيذ تلك الخطة بمثل تلك البساطة ، بل كيف هضمتها قبل ان القنها في لحظة معرفتي باسرارها ؟ جواب ذلك ان ذهني كان مشتتا في تلك الساعة من الليل لان بصري كان معلقا بالفرجة بين نهدي سلمى بادية من زيق قميصها الرياضي وهي تحدثني حديثها الحماسي . جواب ذلك ان جسد سلمى وانا اضمها كان يتقلب افعوانيا بين ذراعي ليلتحم بي كأن كل خلية منه كانت في شوق الى كل خلية من جسدي . جواب ذلك ان قبل سلمى كانت من القوة والحرارة ان ظلت تحرق شفتي الى الصباح وتركض في عروقي الدم الفائر والشهوة العارمة . الخطة كما صورتها لي سلمى كانت هينة واضحة : في صباح الغد سيقوم العصيان المبيت على ثورتنا المقدسة ، وواجبي الهين الواضح ان اقمع ذلك العصيان ببطش وجبروت لئلا تقوم لاعداء الثورة بعدها قائمة . ويقينا ما كنت في حاجة الى ايضاح من سلمى ولا لتشجيع منها ولا لاغراء حتى اقوم بذلك الواجب . كنت في اعماق نفسي اشعر بالفخر ان اسندت الي مهمة البطش بهؤلاء العصاة الجناة الخونة المأجورين ، الذين يريدون اطفاء شعلة الثورة والعودة بالوطن الى عهد الرجعية والفساد . اني سأفتك بهم قابضا عليهم بالجرم المشهود ، في محاولة ارتكاب جريمتهم الشنعاء ... فقد كنت أعلم مقدما بأن عصيانهم سيبدأ بصورة مظاهرة تبدو سلمية ولكنها مهيأة لتنقلب بعد دقائق من بدئها الى عملية تقتيل وتذبيح وتدمير الغاية منها ان يتاح لاعوان معروفين وضع ايديهم على مرافق الدولة العليا والقضاء على ثورتنا المجيدة المقدسة . كل هذا كنت اعرفه مقدما واهنيء نفسي على معرفتي به وفي نفسي ان ليس من حقائق عن المؤامرة المبيتة اكثر مما اعرفه . ولكن سلمى ، في تلك الليلة ، شاءت بدافع من واجبها كمسؤولة سياسية تريد اطلاع المسؤول العسكري المخلص او بدافع من عاطفتها كحبيبة تريد ان تكتم شيئا عن محبها الموله ، شاءت ان تفتح عيني على امور جديدة ما كان لي بها علم مسبق . اعلمتني سلمى ان العصيان الذي سيقوم في الغد له حقيقة غير الحقيقة التي أبلغتها من رؤسائي ، وانه وان بدا مهيأ من أعداء الثورة هو مدبر في اصله من اولي الامر في الثورة وفق خطة متقنة محكمة التدبير اعلمتني سلمى بكل تفاصيلها .

ـ التتمة على الصفحة ١١١ ـ

ملامح الادب الثوري في العراق

بقلم محيي الدين اسماعيل



علينا هنا ان نحدد الخصائص العامة للادب الثوري في العراق ، وان نشير الى معالمه الرئيسية دون تفصيلاته . ولنا ان نتبين وجهته العامة الراهنة ، اذ نحن لانستطيع ان نتنبأ بالاتجاهات الفكرية المقبلة في اي ادب من الاداب ، طالما لم يستطع احد بعد — وقد لا يستطيع — ان يستكشف القوانين التي تتحكم بالانواء الفكرية ، ليشير الى اتجاهاتها وتناوحها ، كما يشار اليوم للانواء الجوية في الارصاد العلمية الحديثة .

على ان الحقيقة التي نستطيع ان نتبينها من خلال دراستنا للادب العربي المعاصر في العراق ، هي هذا الالتزام الصارم الذي اخذ الاديب العراقي به نفسه ، والذي تحول ، فيما بعد ، الى تمرد أو ضرب من النزوع الثوري الذي يتخذ شكل « توقع » حينا ، وشكل « قوة دافعة » حينا اخر ، وشكل رغبة في قلب المجتمع ، بما فيه من اوضار واوجاع وأوصاب ، في معظم الاحيان .

ولس لنا ان نؤكد هنا ، او نناقش ، البديهية القائلة بأن الادب الثوري في العراق ، جزء لايتجزأ من الثورة الفكرية في اطارها العربي العام ، والتي هي ثورة وتمرد ورغبة في القلب والتصفية ، بقدر ماهي تطور عضوي ، متصل غير منفصل .

ولكن كيف تطورت هذه الثورة وتبرعمت ؟ وما تفسير ظهورها في هذه المرحلة ؟

لا قراءة التاريخ السياسي ، ولا الفساد في الادارة والجيش ، ولا الافطاع والانحطاط الخلقي ، ولا رذائل المجتمع ، ولا البربرية الضارية التي عوملت بها الشخصية العربية في العراق وحدها ، كل ذلك ليس بوسعه ان يفسر لنا تمرد الفكر العربي وليس بمقدور ذلك على اية حال ان يفسر لنا ظهور الادب الثائر وجرأته على اقتحام ميدان النضال ..

ان جميع الاسباب والمسوغات والمعاذير التي يضعها المؤرخون والنقاد التقليديون لاتستطيع ان تفسر لنا الحماس الثوري في العراق ، ووعي العربي العراقي لذاته ، ان نحن اغلقنا على « الشخصية العراقية » قوقعة الذات العراقية ، وعزلناها عن مسارب التاريخ الحيوي للعراق ، أي ان نحن امسكنا الباب على العراق ، وعاملناه باعتباره تجربة متكاملة ، بمعزل عن الكيان العربي العام .

ولا ريب ان هناك طائفة من المؤرخين والنقاد الذين تسحرهم الالفاظ والمصطلحات ، لا الحقائق الصلبة الصلدة قد دأبوا على تفسير الاوضاع الادبية في العراق ، وفي اي قطر عربي اخر ، تفسيرا موضعيا محليا ، مع اضافة بعض الاجواء الغريبة التي تضفيها اوهام الالفاظ والمصطلحات التي لاعلاقة لها بالنطاق الكياني الحقيقي للشخصية العراقية — العربية .

فالتفسير الاكثر اصالة من ذلك كله ، هو ان نعتبر هذه المرحلة الثورية التي يمر بها الادب العربي في العراق مرحلة موصولة الحلقات مع المراحل التي سبقتها ، وانها ليست محض ردود أفعال لتيارات اجنبية عارضة . مع اننا نؤمن ان هاتيك التيارات كانت ، وما تزال ، من عوامل الاثراء والاخصاب والتعميق في الادب العربي في العراق وغيره من الاقطار العربية ، الا انها ليست هي الروافد الاصيلة التي تفجرت عنها هذه الارتجاعات الفكرية الحديثة التي تتسم بسمة الثورة والتمرد اليوم .

ففي بعض أدوار التاريخ فترات ، يستشعر فيها الادباء والمفكرون ان شعوبهم مقبلة على احداث خطيرة فيها جدة وحسم ، وان الواقع الذي تعيش فيه هذه الشعوب يقترب من تلك اللحظات الحواسم التي يتحول فيها ذلك الواقع الى حالة غير معقولة ينبغي ان تزول . ولو رجعنا الى الفترات التي سبقت جميع الحركات الثورية في العالم ، لرأينا ان المفكرين والادباء والمؤسسات الفكرية بأسرها قد شاع فيها هذا الضرب من الشعور الذي نشأ عنه نمط جديد من التفكير ، واستجابات روحية معينة ،هي هذا الذي ندعوه اليوم بالحس الثوري أو الروح الثورية ،والذي كان يدعوه ادباء القرنين الثامن عشر والتاسع عشر في اوروبا بالاخطار السياسية . كان الامر كذلك قبل الثورة الفرنسية الكبرى ، وقبل ثورة ١٩١٧ الروسية . فالحياة الفكرية قبيل هذه الحركات الثورية ومثيلاتها تتخذ موقف « التوقع » او الترقب من ناحية ، وموقفا تحاول ان تتحول فيه الى « قوة دافعة » بالاتجاه الثوري ، من ناحية اخرى . وعندئذ يمكن أن يوصف الاتجاه العام في الفكر بانه ثوري متمرد يعمد الى القلب والتصفية ، برغم المضاعفات الثانوية التي قد تطرأ على الفكر ذاته.

ففي اواخر القرن التاسع عشر اهتم ادباء القارة الاوروبية وبريطانيا بحادثة قد تبدو عابرة تافهة للنظرة الاولى . ذلك ان اسكافيا يدعى « هارتمن » قد تفوق تفوقا ساحقا في الانتخابات العامة في « هامبورغ » امام اثنين من المرشحين من كبار الساسة يومذاك . وكان اجماع الكتاب في ذلك الحين ان فى جو القارة الاوروبية ، اثر هذه الظاهرة العجيبة ،

مأينذر بوقوع « أخطار سياسية » ـ على حد تعبير ذلك الزمن ـ فكان لهذه الحادثة الصغيرة أثرها في أوساط الكتاب والمفكرين .

ومن هنا نجد ان دراسة الواقع بالذات ، بما فيه من تناقض وانسجام وحيوية ظاهرة ومستورة ، هي وحدها التي تعيننا على تفهم شتيت الاتجاهات في الادب والفكر . وهكذا فان دراسة الواقع العربي له الحظ الاوفى والنصيب الاجزل في تفسير هذا النزوع الثوري في الادب العربي في العراق . فالافلاس الروحي الذي اصيب به عدد من ادباء الجيل الغابر ، والخيبة النفسية التي اصيب بها الشعب العربي بأسره على يد المحترفين من الساسة ، والكوارث المتلاحقة الفاجعة ، وعجز النظم الفاسدة عن الاستجابة للبواعث الانسانية لدى الشعب ، والفروق الهائلة بين الكوابيس الحاضرة التي تعيش في ظلالها المقيتة جماهير غفيرة من الشعب العربي ، وبين احلام المستقبل ... بين هذه الكوابيس الراهنة واحلام الغد ، اي بين الامكان والتحقق يزداد التوتر في كيان الشعب ، ويتعاظم نزوعه الثوري .

فالعربي ، والعراقي ـ على وجه التخصيص ـ ، والاديب العراقي ، بصفة اخص ، قد وجد نفسه ، على فجأة منه ، امام حالات معقدة شديدة التعقيد ، على نحو تكاد لم تشهده حتى تلك المجتمعات التي صنعت الثورات الكبرى في التاريخ من قبل . وهذا التعقيد الذي تألف من اشتباك سلاسل من المساوىء والمفاسد ، قد ارغم الفكر العربي في العراق ارغاما على ان يعي ذاته وان يعي هذه الطائفة الشتيتة من الاخطار والقوى المعادية من الداخل والخارج،والتي تناصبه العداء والموت والتدمير!

من الداخل ، على الصعيد الاقليمي حيث الرجعية المسرفة في الغباء والتي تمثل فيها ابشع شكل للحكم الجائر الباطش ، الى جانب القوى الاخرى التي استهدفت بشكل منظم ماكر ، محق معالم الشخصية العربية في العراق كالشيوعيين واعوانهم منذ عام ١٩٢٥ ، الذين حرفوا الاذهان عن حقيقة الصراع الذي اخذ به الشعب العربي نفسه من اجل انقاذ حضارته وتحريرها ، وسلطوا الاضواء على صراع سطحي زائف آخر ، برزت على واجهته لافتات تدعو لا الى تحرير الشعب العربي وحضارته، بل الى تحرير الدستور والبرلمان ! .. ومن الداخل ايضا ، على الصعيد العربي حيث الرجعية العربية المتضامنة فيما بينها ، والصهيونية التي تقف تحديا وفحا شاذا للكيان العربي ... ومن الخارج ، على الصعيد الدولي حيث الاستعمار الذي لا يعرف غير الاوراق المالية وصكوك المساومات والمسلح بأبرع الوسائل وامكرها لمحق الذاتية وتشويه الكيان القومي .

هذه التحديات السريعة الخاطفة التي انثالت على الكيان العراقي، قد وضعت حدا سريعا حاسما للانحلال والانخذال في الادب العربي في العراق بعد نهاية الحرب العالمية الثانية . فبدأ الادب العربي في العراق يميل الى ان يكون تنفيسا عن طاقة روحية ضخمة مرصودة في اعماق الشعب العربي ، تحاول الصمود بوجه هذه التحديات الخارقة . اي ان يكون قوة دافعة للصمود بوجه المحنة والالم ... ولا مراء ان اعمق التجارب الانسانية هي تجربة الضمير الصامد بوجه المحنة والالم .

ومن هنا وحيث ان الادب في العراق قد اتخذ موقفا يحاول فيه الاجابة على هذه التحديات ، على اساس حضاري ، وعلى مستوى كياني « هي محاولة على الاقل » ، لذا فانه لم يكن بحاجة الى من يسنده من مصممي الحلول الاجتماعية والسياسية والاقتصادية ، كما هي الحال في المجتمعات الاوربية التي ظهر فيها من امثال ماركس واوين ولاسال وسان سيمون . فالمعركة التي بدأ تمثيلها توا الادب العربي في العراق، هي معركة صون الحضارة العربية واثبات الشخصية العربية ـ الانسانية التي افاقت اليوم ورفضت قطعا ان تلقى مسخا شائها على شاطىء القرون ! وهذه الحقيقة بالذات هي التي جهلها الكتاب الغربيون ، فنظروا اليها نظرة خلوا من النفاذ ، فظنوا ان معركتنا هذه ، لم تتهيأ للغد ولمشكلاته . وقد ذكر مثل ذلك عدد من هؤلاء الكتاب ممن عناهم ما عناهم من امرنا من امثال والتر لاكير W. LAQUEUR وغيره .

اما النزعة الانسانية في الادب ، فقد دخلت الادب العربي في العراق خلال الحرب العالمية الثانية ، فاصبح الانسان وازمته المعاصرة هي موضوع الايحاء عند شعراء وكتاب الجيل الجديد ، فظهر اثر ذلك بلند الحيدري والسياب ونازك الملائكة وخالد الشواف وعبد الملك نوري وفؤاد التكرلي . وقد بدأ هؤلاء الادباء وغيرهم ، لا سيما الشعراء منهم يتطلعون الى عالم الحلم الذي قذف الشعب بنفسه في اعماقه ، وهنا وجدنا الشعر يكاد ينشق عن الفن في بعض الفترات ليكون أداة مباشرة من ادوات الثورة والتحريض عليها وتسعير وقدتها ، كما تفعل الخطابة في دفع الجماهير . وهنا علينا ان ننص على حقيقة واضحة في تاريخ الادب العربي في العراق ، ذلك ان الشاعر هناك ، كان دائما ينازع خطيب الثورة مهمته ومسؤولياته . فكان لكل انتفاضة ثورية في العراق، شعراؤها الذين يقفون في الشوارع يخاطبون الجماهير ، ويدفعونها في الاتجاه الثوري بخلاف ما عرفناه في الاقطار العربية الاخرى ، حيث لم يقتحم الشعر سورات الجماهير . فخلال وثبة الشعب العراقي في أوائل عام ١٩٤٨ ضد معاهدة بورتسموث الاستعمارية الجائرة ، وانتفاضته ضد مؤامرة تقسيم فلسطين نزل للشارع عدد من الشعراء منهم الجواهري والسياب والشواف وبحر العلوم وغيرهم ممن كانوا يلقون قصائدهم في الطرقات وعلى ارصفة الشوارع . كما أن ثورة ١٩٢٠ ـ ١٩٢١ العراقية كانت قد جرت الى الشارع من قبل شعراء تلك الفترة في النجف الاشرف من امثال الراضي والرصافي والبصير .اما في مصر فلم يكن اي اثر لثورة عرابي مثلا في شعر البارودي بالرغم من انه كان من رجالها وقد اكتوى بحرورها ، قص مثل ذلك في الشعراء الذين عاصروا او ساهموا في ثورة ١٩١٩ .

ان هذه الظاهرة في العراق ، والتي توشك احيانا ان تجعل الشعر ينفلت من وجهه ليكون قوة ثورية مباشرة ، انما هي ظاهرة لها اسسها التاريخية البعيدة في العراق .

ومع موقف الالتزام الصارم الذي اتخذه الاديب العراقي ، كانت النزعة الانسانية تنمو وتتعاظم ويتمثلها الاديب في العراق منذ بداية الحرب العالمية الثانية . ومن هنا ، اي منذ ان اصبح الانسان ، والانسان العربي بالذات موضوع الادب ، بدأت الظاهرة الملحمية تبرز في الشعر ، فطفق الشعراء الحديثون يقلعون عن كتابة الشعر الغنائي الذي اتسمت به فترة الحرب العالمية الثانية . واستعلنت هذه الظاهرة في شعر السياب كخير معبر عن هذه المرحلة ، فبدا يكتب بالاتجاه الملحمي ويدافع عنه . وهذه الخصيصة تشبه ، الى حد بعيد ، الاثر الذي تركته معركة الارمادا في ادب عصر اليصابات في انكلترا ... ولا ريب أن للشعب العربي ارمادا ثانية يخوض معها المعركة اليوم !

ومن الخصائص التي نلحظها ايضا في الادب العربي في العراق خلال مرحلته الثورية هذه ، انعدام تلك الطلاقة التي لا تعرف الالتزام في آثار الجيل السابق من الشعراء والكتاب . لقد فقد ادباء الجيل

ـ التتمة على الصفحة ١١٩ ـ



شهيد

الى روح أخي سعدالله ..

أخي الذي لم أشترِ له الكفن
ولم أوَسِدْهُ ضلوع الانين
ولم أقل له : أخي الوداع
أخي الذي مات فداءً للوطن
أخي الشهيد

*

أخي الذي لم انثر الاكليلَ حول مرقدِه
ولم أرَ قميصَهُ الملفوفَ بالرصاص
لم اعتصر قميصه المبلول بالدماء
فكلُ بقعةٍ ربيعْ
وردٌ غراميٌ ، وذكرى شباب
أهديهِ للشيخ الذي أحبُه أخي
أهديه من بعيدْ
اليكَ يا أبي
فذلك القميص لك
والصبرُ لك
يا ايها الشيخ الذي احبه أخي

*

والصورُ الحلوةُ في غُرفته
لتلكم الحسناء .. يا أبي
لتلكم التي احبتُها .. أخي
أحبها والشوق في فؤاده قديم
أحبها .. بكل ما في قلبه العظيم
من قوةٍ وحبْ
نحفظها له ،
الصور الحلوة في غرفته
نحفظها له ،
نحفظها فتزدهي
حكاية الشوق بقلب الشهيد

*

أخي الذي مات فداء للوطن
في عهد أنصار السلام الطغاه
في عهد ذلك الرجيم ،
عبد الكريم ..
باسم السلام يحكم الجبان في البلاد
باسم السلام يقتل الرجال
وينشر الدمار والمحن
يستعبدُ الوطن
ويزرع الارهاب والدماء والدموع
في كل بيت .. في العراق
في كل ساحةٍ وحي ،
لينبت الحقد .. اذن .. يا سماء
ولتغسل الدماء
ارض بلادي من بقايا الطغاه
لتخلد الحياه
للشعب .. للاحرار .. من جديد

*

في كل بيتٍ من بيوتنا شهيد
وطفلة .. وأمْ
وفي شبابنا العتيد
عزمٌ .. وثارٌ .. ودم
فللغدِ الجديد
تمضي مواكب الحياة ، من جديد
ليسقطَ الصنم .

القاهرة — **عدنان الراوي**



ثورة .. على الفكر العربي المعاصر

بقلم محيي الدين محمد

الضوء على المشكلة (*)

ها هي مجموعة من الاقطار والبلدان ، في شرقنا العربي ، متحدة اللغة والثقافة والاصول تريد ان تنهض من عثرة سقوط مدمر الغى وجودها مئات من السنوات وحجرها وصيرها بالتخلف لتي نراها عليه الان. وارادة النهوض هذه ليست الا تعبيرا مركزا جدا عن وعي مقدار التخلف الذي اصبحت عليه بالقياس الى امجاد الحضارة الاوروبية الحديثة .

الاتجاه العام القيادي هو تصنيع البلاد العربية ، وتغيير التراث الزراعي جميعه ، ليمكن للعقل ان يقفز من محدودية الخرافة والتسليم والرضى ، وهو مظهر من اشد المظاهر الانسانية تعاسة وخزيا ، الى انطلاق العقل والمحاجاة وطلب تحقيق العدالة والحرية .

الافكار في الشرق العربي مرتبطة بنوعية الحياة فيه ، فحيث يكون المحراث اداة الزارع ، يظل الفقر عاملا حاسما في تبليد ذهن الريفي وتأخيره ، بل وفي تحديد شكل وعيه ومدى عمق معرفته ، ويمكن بمقابلة بسيطة بين زارع في الاقليم الجنوبي ، واخر عراقي ، ان نستنتج الاثر المدمر لاصابع الفقر هنا وهناك . انه يوحد الملامح ، ويقرب التقاطيع .. بل ان الاغاني ذاتها ، وهي تعبير عن واقع الافراد في ارتباطاتهم الاسرية والمجتمعية ، تأخذ سمتا موحدا ، فآلام العربي في بلدها هي ذاتها آلام العربي في بلد اخر .. ولما كانت الاغنية والقصة والشعر هي عوامل التنفيس عن مأساة الوجود التي يعيشها اي مجتمع في العالم ، كان تأكيد هذا المجتمع على تخطئة لون من الوان الوجود ، اشارة منه بضرورة تغيير هذا اللون الذي يوشك ان يفجر تماسك المجتمع الشاكي ويمزقه .

والفنون في شرقنا العربي انين منصل من الفقر والعوز اللذين يحطمان الاسرة ويحطمان الافراد . انها تعبير عن واقع نعانيه ، يدوخنا ويقتلنا ويذهب معنا الى القبر .

فهل هو مجد ان نغير من اغنياتنا وقصتنا واشعارنا ، وان نستعير اشعار الغرب واغنياته بدعوى تطويرها .. ؟!

اهو مجد ان ننشيء المجلات الادبية والمنابر ، والجمعيات الثقافية والمكتبات ، بدعوى تغيير الذهن العربي ؟. منطقوا الامر ،اذن ما دام الفقر هو مشكلتنا الاساسية : كيف نغير ذهن الزارع المتدين الذي تتحول الدار الاخرة في وعيه ، من محض عقاب وثواب ، الى جائزة ينالها لقاء عذابه في الدار الدنيا ..؟ كيف نطور هذا الذهن الذي يقبل من اللاوعي فكرة فقره ، ويلح على وجودها ، كأن حياته بدونها لا تستأهل شيئا ..؟ الم يكن المنطق الديني هو الذي املى هذا الجواب على الريفي المسكين ليمكن له ان يحيا بكثير من الامل .؟ كيف نغير هذا الجواب ، وهذه الذهنية ؟!

اليس تلفيقا ان نحول هذا التيار الوجودي الزخم ، وان نتعاطى المسكنات الغربية من مذاهب وفلسفات واطر جمالية لا تعنينا في شيء ؟. اليس من الاوجب والانسب ان نبدأ من فكرنا ذاته الفارق في مليون حماة وطين .؟!

ان المشكلة هي في سيكولوجيا الذهن الشرقي الذي تأثر بالوضع المادي وبنفسية المذلة ، ووحي الدين وعنف الحاكم ، والرضى والتسليم بما كتبه الله (*) ...!!

كل ذلك مجمتما هو الذي وحد النتائج في كل البلدان العربية ،ووحد قسماتها ، وجعلنا هذا القطيع من الناس الذين لا يرفضون الظلم والبطش لان الدين يحض على التسليم بكل ما يقوله اولو الامر ، وجعلنا هذه النماذج التي لا تابه بطلب العدالة لان الدين يؤكد على وجود الطبقات بعضها فوق بعض .. فاذا كنا لا نابه بالعدالة ولا بالعيش الطيب ولا نريد الحرية في هذا العالم الرحب الغني العظيم المتخم خيرات ، اذا كنا لا نريد ذلك ونرفضه ، وندع اقواما اخرين يعيشون ويتسلقون فوق اكتافنا ورؤوسنا وينعمون بالعيش الطيب والحياة النظيفة الخالية من الامراض والذل والقذارة ، اذا كنا نرفض ذلك ، فلماذا اذن نتزاوج وننجب الاطفال ونبني البيوت والاسر والحدائق ..؟ لماذا لا نعيش في الكهوف والاديرة بدون زواج حتى الموت .. فهكذا على الاقل نصبح اقرب بمسافة عظيمة من الله ، مما لو واجهنا الحياة بنصف وجه ، وواجهنا الله بالنصف الاخر !!!

(*) يهم التحرير ان يؤكد مرة اخرى ان نشر هذا المقال لا يعني تبني ما ورد فيه من آراء لا سيما وان بعض هذه الاراء لا يرتكز الى حقائق ثابتة . ونحن نترك المجال واسعا للمناقشة والتعليق .

« للاداب »

(*) لعل مأساة فلسطين هي اشد مآسينا تحسيسا بهذه النكبة التي لوثت وجودنا النفسي ، الم يكن التسليم بالقدر والمكتوب بزيادة الخيانة والغدر هما سبب الضياع المؤقت لهذه الارض العربية . ؟!

عناصر المشكلة :

تغيير الذهن العربي كلية هو مسئولية وعي القادة والاوضاع المادية والزمن .

الاوضاع المادية تتكفل بها الدولة من ناحية والوعي من ناحية اخرى ، فلا يكفي ان يكون التصنيع سياسة تتخذها الدولة وحسب ، اذ يجب على الفكر الذي عايش التمرد الاوروبي وعرف عنه اخطاءه ومزاياه ، ان يعجل برسم الطريق الصواب ، وان يحذر من المهاوي والمزالق التي تعترض التطور ، اذ ان هناك ذهنين : الذهن الجلف العام ، والذهن القيادي للمفكرين . فاذا امكن للدولة ان تتخذ التصنيع مسالة حيوية تغير بها من واقع الامة المادي ، وجب على الذهن القيادي ان يخضع الذهن العام للقوانين العلمية من رفض للخرافة والتقاليد ، ومن تحطيم الاوثان الزراعية ، ومن انهاض شامل للوعي الشاك في معجزات الاضرحة واولياء الله ، ومن الحاح على نزع ديدان الخمول من الذهن العام الذي يرفض ان يطالب بالعدالة وبالحرية وبقية الاسس التي تقوم عليها النهضة ..

والزمن من ناحية اخرى عامل فعال ولكنه بطيء جدا في تغيير الذهن وتحويله (اي ان الادارة البشرية الفاعلة تخضع في النهاية تحت الحاح الزمن وضغطه فتبدأ مهمة التحويل في قنوط وبطء) ، وبالطبع ليست فعالية الزمن مباشرة وجذرية ، ونحن احسن الامم فهما لهذه المشكلة فقد امضينا في صمتنا وجمودنا مئات من السنوات بدون ان نحاول التحرك والتطور .. وذلك لان الزمن وحده لا يمكنه ان يفعل شيئا ، فلا بد للزمن من ذهنية تقابل بين المجتمعات المتطورة الاخرى وبين المجتمع الساكن ، وتحاول ان تقارنوتدرس ، فتطالب وتطالبوتحرك .(✱)

اما وعي القادة فمسئولية ملقاة على كاهل شبابنا العربي المثقف الذي يلاحظ التطور بعيون ناعسة . ان الجيل السابق على هذا ، اي جيل آبائنا لا يستطيع ان يشارك النهضة التي بدات بجيلنا الشاب ، والمشكلة كلها ، في هذا الجيل ، والجيل القادم .. هذه البراعم التي نشاهدها الان تلهو بالكرة في الطرقات ، وبالورد في الحدائق .. ان مقدرات نهضتنا العربية كامنة في هذه الاكف الوردية الصغيرة التي تجهل جسامة ما هو مطلوب منها ..

ان على الذهن القيادي ان يحول وعي الجماهير ، وان ينتشل منه الخوف والشكوك التي عذبته ، وان يزرع بدلها الصلابة والادراك والمطالبة باستعمال اقسى الوسائل لتحقيق العدالة والحرية ، والذهن القيادي تخطيطي في اساسه ، والذهن العام تطبيقي وعاكس ، فلا مرد اذن والامر هكذا على الذهن القيادي ان يتحرك وان يضع الاسس الموائمة لاحتياجاتنا طالما هو السابق في التطور منطقيا من حيث وجوده في الزمان ..

وكل عنصر من هذه العناصر (الاوضاع المادية . الزمن . وعي القادة) متماسك مع العناصر الاخرى بشكل لا يقبل التجزئة ، ومخالف في نفس الوقت من حيث النوعية واللون والقسمات لبقية العناصر .

الوعي القيادي يعني مسئولية المفكرين ، والمفكرون في شرقنا العربي لا يخرجون عن حدود الادباء وهذه مشكلة فرعية اخرى ، فالظاهر ان علم الاجتماع بافرعه الاربعة لم يستطع — في تاريخ كلياتنا — ان يخرج مفكرا اجتماعيا كبيرا عربي القسمات ، يستطيع ان يحدد القيود الاساسية لتخلفنا ... وذلك بالطبع نتيجة حتمية لانصراف الذهن العربي العام عن متابعة مشاكل هامة كهذه ، وبحثه عن المغيبات والمكيفات وكافة وسائل قتل الوقت والغاء الواقع (✱).

الادب اذن في شرقنا العربي صورة فكرنا وضميرنا ، بكل الوانه من الاغنية الى المقال . اذا نظرنا الى حياتنا وجدنا هذه اللامبالاة وحس عدم المسئولية الذي نجده واضحا في ادبنا وضوحا شديدا ، فهل ذلك لاننا فقراء .؟

ان الفقر بكل ما يتبعه من جهل ومرض ومذلة وكراهية ورغبة في العزلة ، بزيادة الاوصاب الاخرى النفسية التي تراكمت فوق نفسية الشرقي فصيرته هذا الرجل الذي يغني لماضيه الفقير ، حيث كانت اعظم مظاهر الرفاهة هي اقتناء اربعين جارية ، والذي لا يمكنه ان يخجل من حاضره ، لانه لا يقيم وزنا له .. ولا لمستقبله .. هذا الفقر الذي اطر مشكلاتنا وصبغها بلونه ،يظل على راس كافة ما يجب ان ننادي بتغييره وتبديله في سبيل مستقبل ناصع ومشرق لبلادنا ..

واذن ، فلا بد ان نؤمن بالتحول ، وان نعمل له ، واذا كان فكرنا في هذه المئات الكثيرة من السنوات منعزلا عن واقعنا الحياتي ، بتاثير دكتاتورية العقيدة ، وبتأثير الفهم الخاطيء لطبيعة العمل الفني وفعاليته فعيب كبير ان يظل هذا الفهم الملوث غائصا في عقولنا حتى منتصف القرن العشرين ... وان كانت طبيعة العمل الفني ان يكون عاكسا للحياة ، فان امكانياته الخاصة بالتطوير وتحويل الاذهان طبيعة فيه ثانية ، واشد من تلك خطرا واهمية . فلنؤكد اذن على العنصر الثاني ، ولنتشبث به ..

طرح المشكلة :

الادب الاوروبي الحديث ، ادب له جذور عميقة وغائصة في قلب حياتهم المتطورة المندفعة . والرجال العظام الذين اسهموا في عملية التكوين الجديد للواقع الفكري الاوروبي كشيكسبير ودانت وجوته ، لم يخلقوا من الهواء روائعهم الفنية ، اذ كانت الارضية موجودة بكل زخمها وعمقها وتفتحها واستجاباتها . ان عناصر الفكر الاوروبي الحديث قد بنيت اساسا على : ا — الثقافة الاغريقية — ب — الثقافة المسيحية — ح — ثقافة العلم الحديث . وبالطبع تعتبر كل قيمة من هذه معاكسة ومناقضة للقيمة التي تليها ، فكيف اذن تداخلت هذه القيم المتعارضة وخلقت هذا التيار الموحد الذي هو طابع لعقلية الغرب الحديثة ؟..

ان الثقافة الاغريقية بكل ما قدمته من عقلانية واصرار على حرية الفكر والعقيدة كانت القاعدة الراسخة التي قامت فوقها المسيحية ، فما استطاعت بكل محاكم تفتيشها وسلطاتها وشرطتها والهها ان تقوض البناء الاغريقي للفكر ، وان تزعزعه .. وما ان تولت المسيحية السلطات التشريعية والقانونية ، حتى هب الاحرار في كل بلد غربي وطالبوا بالحد من دكتاتوريتها وعنفها ، وكان في اذهانهم الوعي الاغريقي العظيم بقيمة

(✱) يقولون ان سائحا غربيا لقي اعرابيا يسكن في كهف بالصحراء فابتاغ منه بيضة دجاجة بقرش واحد وبعد عشرة اعوام تقابل الاثنان مرة اخرى ، غير ان السائح اراد هذه المرة ان يشتري دجاجة كاملة ، فكم كانت دهشته عندما اخبره الاعرابي ان ثمنها قرش واحد .. وغابت الدهشة عن وجه السائح عندما فسر له الاعرابي ذلك بقوله .. « ان الفرق بين البيضة والدجاجة هي مسالة زمن فقط ، ونحن لانهتم بالزمن ولا نعيره التفاتا .... »

(✱) بل ان اهتمام الجريدة عندنا بابراز الجريمة وقصص الزنا الفاضحة يوجه عن قصد لارضاء الذهن الفردي المقهور الذي يطلب من مذلة اخرى وقهر اخر ان يرضيا بطريق التداعي قهره الخاص .

الانسان وقيمة الحرية الفردية . وهذا التأكيد على الاهتمام بدراسة الانسان كأقيم عضوية في الوجود ، نازع وصارع حتى الموت الفكرة المسيحية في الغاء مناقب الانسان الاغريقي وتحويله الى الانسان الصنم المقعد الذي يجب ان يحول وجهه نهائيا الى الله والى الزهد .

ولما ثبتت المسيحية اقدامها في المجتمع الاوروبي لم تستطع اطلاقا الغاء هاتين الفكرتين الاساسيتين للذهن الاغريقي (قيمة الفرد . الحرية) بالرغم من انهما تعتبران من العوامل الفعالة في هدم البناء الاساسي للديانة المسيحية ، واذن فقد استطاع العقل الاغريقي ان يبث في الزمان روحه وعقلانيته الى ان تم النصر للعقل نهائيا بمقدم العلم الحديث الذي صارع المسيحية وصارع قالبها السكوني ، وما زال يحفر القبور لها في كل مكان من القارة .

كل قيمة من هذه القيم كانت تحمل في داخلها الهلاك لقيمة الاخرى السابقة لها ، وكان يمكن ببساطة - كما حدث في شرقنا العربي - ان تسود قيمة واحدة تظل تحكم الى الابد ، لو لم يكن ذلك الذهن النادر الذي حصن اول ما حصن على حرية العقيدة وحرية التبشير بها ، وكانت اوروبا حسنة الحظ جدا لان القاعدة هي التي نادت بذلك وآمنت به ..

واذن ، فقد كان القاع مفتوحا لكافة المناقشات وللتعبير كيفما كان شكله وخطورته ، وبدأ الذهن الفولكلوري الذي شغلته الاساطير اليونانية القديمة جدا ، يجد ربه في اقامة شعائر غنائية تمثلت في الياذة هوميروس وأوذيسته ، وقفزت بعد ذلك بمدة طويلة في أشعار فرجيل وصافو وتاسو واريوستو .. ومن الشرق أضيف ذلك التراث الذي كانت أصوله موجودة قبل ذلك في كتاب الموتى ، احد اعمدة الثقافة المصرية القديمة ، وفي نقوش بابل ونينوى ، ومن بعض مقاطع الرامايانا والمهابهاراتا ، واضيفت اقاصيص التوراة القديمة لتحيل الذهن الغربي جحيما من الاسئلة والمعارضات والشكوك ، وعلى أثر كل نكسة كان الذهن اليوناني يتدخل بصورته الرائعة ، فيرتد الذهن الاوروبي من التسليم الى النقد ..

فاذا وضعنا في اعتبارنا المشاكل التي عرضها لنا الشاعر الانكليزي وليم شيكسبير وجدناها لا تختلف اختلافا كبيرا عن المشاكل والعواطف التي يعانيها الاوروبي في حياته الحديثة ، وذلك لان مظاهر الحياة الاوروبية لم تتغير كثيرا عن مظهرها الحديث . اذ ان البناء الحديث لاوروبا بناء اعظم من حيث الكمية وليس من حيث الكيف . ان اوروبا لم تتغير كثيرا في اربعمائة عام ، وخاصة من حيث الجو النفسي للحضارة ، صحيح ان الوجه الاقتصادي لها قد تقلب اكثر من مرة بين الاقطاعية وبين بعض صور الاشتراكية ، ولكنه صحيح ايضا ان افتراق الوجه الثقافي هنا عنه هناك ليس متعارضا الى الحد الذي سوف يجعلنا نعقد المقارنة القادمة بين هذا الوجه لاوروبا وبين مجتمعنا العربي .

ان تاريخ الثقافة في الغرب يشبه اناء من الماء القراح تضاف اليه بين كل آونة واخرى قطرات من الالوان المتغايرة . صحيح انها الوان يمكن ان تغير لون الماء كلية ، ولكنها لم تفعل فيه اكثر من توحيده بلون واحد متحد في كل جزئياته .. اما في شرقنا العربي فهناك طبقة من الزيت بدل الماء القراح ، لا تستطيع الالوان ان تتحد به الا بصورة شوهاء ودميمة للغاية .. وذلك اذا مثلنا الماء القراح بحرية العقيدة .

الادب العربي ادب له جذور مخالفة لشكل حياتنا الحديثة ، لانه تعبير عن حضارة رعوية جافة ، ظلت لمدة طويلة طراز حياة الامة الوحيدة التي كان لها كيان نفسي في تلك الايام ، والدين الاسلامي ذاته تعبير عن تلك الحضارة الرعوية وتأكيد لها ، بل ان صورة الفردوس تعكس الى مدى بعيد مطالب الرعاة الذين لا يشاهدون سوى الرمل والصخور ، ويقتلهم الجفاف والعطش ، ويقلقهم الى حد العذاب انغلاق مجتمعهم من حيث الجنس والعلاقة بين الرجل والمرأة ، واذن فالفردوس يجب ان يخالف هذا المظهر لحياتهم : هناك الحدائق بازاء الصحراء ، وهناك انهار العسل والخمر بدل الجفاف والعطش ، وهناك حور العين ونساء لم تقع على جمالهن عين ، بازاء المجتمع الحابس لطاقات الرجال ..

اما الان فليس شكل حضارتنا فقط هو الذي تغير ، بل جوهرها ذاته، فحضارة المدينة تختلف جذريا عن حياة الواحات ، كما تختلف حياة المجتمع الكبير عن حياة القبيلة ، وتظهر المقارنة هنا مدى البون الشاسع بين التحول الكبير الواسع الذي حدث لحضارة الاوروبية . فالمدينة في الغرب تطورت الى مدينة أحسن ، وسوف تتطور الى المدينة الاحسن . اما هنا فالواحة تنقلب الى مدينة ، بكل الفارق الجسيم بين الاثنتين ..

اذن ، لقد تغير جوهر حياتنا - على الاقل اراديا - بكل ما يتبع ذلك من تغير للنفسية وللجو وللمشاعر وللوعي والفهم ، وكان لاوروبا الفضل الكبير في ذلك. التكنولوجيا تنتقل من هناك الى هنا، فنغير نحن الوسائل ولا نستطيع تغيير الغايات لاننا نحيا في قلق وجود وقلق فهم .. ان هذا اليأس القلق (لانه ليس يأسا كليا) الذي نحياه هو اعمق مظهر من مظاهر حياتنا .. لانه لا يتمثل فقط في علاقتنا بالرب ، بل لان علاقتنا بالرب تستوجب ان نلون علاقتنا بالاخرين وبالدنيا وبحياتنا .. بنفس لون علاقتنا بالدين . وهنا خطورة وضعنا ، فلم يكن الاسلام دينا بين الفرد وربه ، بل كان تنظيما تشريعيا ، وضعت مواده اصلا لمدينة صغيرة في الصحراء ..

وقد حارب الحكام المسلمون كل حركة تبغي امانا فكريا وتسليما من الدولة بحرية الذهن والتفكير ، وماتت حركة بطولية تمثلت في المعتزلة والقرامطة ، كان يمكن لها ان تكونّ القاعدة الاساسية لتطورنا الذهني ، ماتت هاتان الحركتان ، لا لان الدولة قضت عليهما ، بل لان العربي الجاهل المؤمن كان يفضل الف مرة ان يموت مؤمنا اعمى ، على ان يعيش مفكرا ملحدا مفتح العينين . اذن .. هناك تعارض كبير وضخم ومتسع للغاية بين الجذور القديمة لثقافتنا التي كانت تعبيرا عن واقع صحراوي (ومئات الشواهد في شعرنا وامثلتنا واحكامنا تثبت ذلك) وبين حياتنا الجديدة التي تستمد من الغرب اكثر من وجه . اي ان هناك اختلافا كيفيا بين واقعنا ، وواقع ادبنا الذي يسلك الطريق الكلاسيكي القديم . ان حياتنا تمشي ، وفكرنا واقف مكانه ، فهل هذا اداء لانطلاق مأمول ؟..

المظهر الثقافي الوحيد في حياتنا كعرب هو القرآن ، ومجموعة الشعر القديم ، ثم قصص الف ليلة وليلة .. اما عن القرآن ، فلم يكن ممثلنا بالميثولوجيا كما كانت التوراة ، قدر امتلائه بالمواعظ والحكم والانذارات. وللتوراة فضل اخطر واجل من ان ينكر في خلق اجيال عديدة من الشعراء والروائيين وكتاب القصة الطويلة والقصيرة في الغرب ، على حين كان القرآن تعليميا للغاية ..

ومجموعة الشعر التقليدية ابعد عن حياتنا بشكلها الجامد ومضمونها الرعوي ، بصورة تعجز الباحث عن اكتشاف قيم غير شكلية او وعظية فيها ..

اما الف ليلة وليلة ، فلا تراث غربيا او شرقيا يمكن ان يقف بجانبها او يطاولها ، في تلك الفترة المضيئة من ايام وجودنا ... فهل تعد هذه

المجموعة العظيمة من القصص والحكايات بناء محكما للانطلاق منه الى ثقافة جدية ؟!..

ان في ذلك استحالة ، لان انصاف الحلول لا تبشر ، وحياتنا قبل كل شيء هي التي تطالب بالتحول ..

عرض للمخارج :

اننا نصنع بلادنا الان ، ونستغني قليلا قليلا عن البضائع الغريبة لان انتاجنا اصبح يقف على قدميه وسوف يناطح الانتاج الاوروبي قريبا ، بل ان نفسية العربي ذاتها قد اخذت في التحول ، وادراك مدى ضرورة ان نعيش على مستوى انظف واجمل واعقل من المستوى الذي عاشه آباؤنا ...

ان الآلة تصبح العلاقة بيننا وبين الطبيعة ، بعد ان كنا نفهم الطبيعة على انها الشيء الوحيد الواجب تجنبه في نزوعنا الى المجرد والى الله!! ان منطقنا نفسه يتغير لاننا احتككنا بالذهن الاوروبي ، واذن ، فوقفة منا صغيرة لاختبار الارض التي نسير عليها ، كفيلة باضاءة طريقنا :

الى متى يظل الادب العربي كصورة لحياتنا متخلفا ، على حين تتطور الاداب الاوروبية بشكل منتظم ، وكيف يمكن لنا ان نمنع التحول الظاهري الى الغرب ، بخلق ادب له ملامحنا وشكلنا وينطق بعربيتنا ؟!..

ان امامنا اكثر من مخرج :

ـ ان نلغي تراثنا برمته ونلقي به في المحيط ، وان نبدأ في الوقت ذاته عملية ترجمة واسعة النطاق وبمنتهى الدقة والامانة لكافة الاعمال الغربية التي اسهمت في خلق الذهن الاوروبي ، ابتداء من الفكر الفلسفي والنقدي حتى المسرحي والروائي والشعري ، والا نترك مفكرا كبيرا واحدا بدون ان نترجم اعماله جميعا ، وذلك يتطلب منا اخلاص خمسين عاما من العمل المتواصل الشاق ، ويتطلب ايضا ان تكف الاذهان الخلاقة عن العمل وان تتحول الى الترجمة ، وهذا يفترض ان نؤمن باننا جيل الخيانة . لان ذلك معناه ان نرفض ماضينا وحاضرنا وتاريخنا. ان نقتل ذواتنا وان نتشبه بمن لن نشبههم ولو في مليون جيل ..

٢ ـ ان نغربل انتاجنا الادبي برمته ونصفيه ونختار منه الصالح ونلفظ القميء والسيء والمحدود ، وان نحاول ان نجعل من الاعمال المختارة اساسا نبني فوقه تراثنا الحديث ، وذلك يفترض ان نختار الاعمال الفنية التي تقارب شكل حياتنا الحديثة ولا تعارضها ، والوجه الخطأ لهذا المخرج هو انعدام الاعمال الفنية الصالحة لحياتنا الحديثة في شرقنا العربي ..

حـ ـ ان نرفض ادبنا القديم كلية ، وان نرفضه بدعوى لاصلاحيته مع واقعنا ، وان نرفض الادب الاوروبي جميعا بدعوى لاانطباقه على حياتنا ولغتنا وثقافتنا ، وان نخلق من اعمالنا الحديثة جذورا لادب مستقبلي جديد ، وفي هذه الحالة يجب ان نقنع بمجرد الامل .. وحتى صورة هذا الامل ستكون مهزوزة جدا ، فما هي اعمالنا الحديثة التي تصلح خلفية لادب قادم ..؟

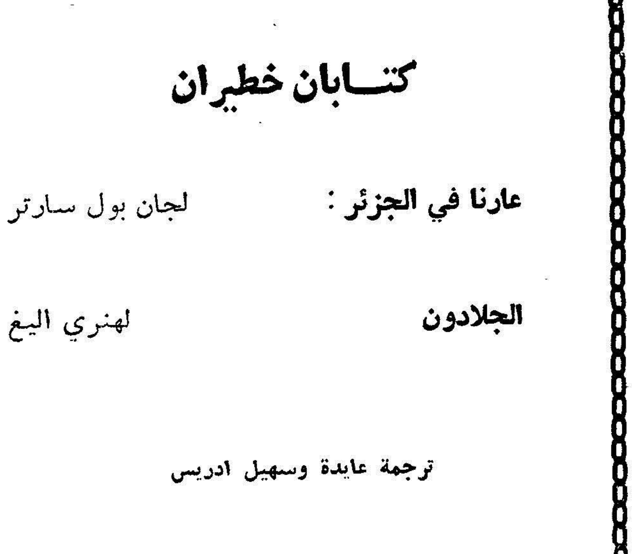
د ـ ان نغوص في الادب الشعبي وان نستخرج وننظم ونكشف هذه الاعمال المغمورة ، وان نطرحها في الاسواق ، على امل ان تكون هذه العملية خلفية حضارية هامة للذهن العبقري الذي نتشوف اليه، وخطأ هذا المخرج يكمن في ان الفولكلور تعبير مكثف جدا عن نفسية الشرقي التي نحاول ان نغيرها باستعراض هذه الحلول .. فكاننا ندخل دائرة لافرار منها ..

هـ ـ ان نختار كل هذه المخارج ، وان نلفظ المتعارض ، وان نعمل بها جميعا : لنترجم ، ولنبحث في فولكلورنا ، ولنغربل انتاجنا ولنوضح اعمالنا الحديثة ونقيمها ، وعيب هذا المنطلق المتعدد الوجوه يكمن في انها تتطلب تآزر الدولة والافراد ، في عمل متفان ومتواصل .

ولكي نكشف الارضية التي نقف عليها ، يجب ان ندرس امكانيات الفلسفة وامكانيات العقل ، وان ندرس كيفية الحد من الدين ومن التشريع ، وان نحاول ملاحظة الاسس التي تجمدنا وتؤخرنا ، وسوف نلاحظ ان عملية تحويل ادبنا من شكله القلق الراهن الذي هو نتيجة قلق حياتنا تصبح مستحيلة اذا لم نغير من واقع حياتنا ذاتها .. اذا لم نخطط لها أسسا ماوية منظمة ، تقلب واقع الشعب من جموده الى منتهى انطلاقه وتحرره ...

امكانيات الفلسفة :

نحن نعرف ان الفلسفة في اوروبا سابقة على المسيحية ، وذلك لان العالم القديم الممثل في اليونان كان حيا ومتفاعلا : كانت هناك امبراطورية ، وكانت هناك تجارة متسعة ومتشابكة مع بلدان العالم المعروفة وقتها ،والتجارةتفترض تبادل المعرفةوتبادل اللغات والثقافةوالمفاهيم وانشغال الشعوب بالواقع الحياتي للشعوب الاخرى ومناقشة قضاياهم وادراكهم لقوانين الوجود ولمشاكل الموت والحياة ، وقد كان لمصر الفرعونية شرف التفكير في هذه القضايا ، وشرف نقشها وكتابتها على الاعمدة ولفائف البردى ، وقد كان لتجارة مصر مع فينيقيا ومع بلاد بنت وقبرص، ان تحرك الذهن المصري فخلق وناقش وخاض في موضوعات على غاية من الاهمية والخطورة بالنسبة للواقع الفكري القديم . واذن فقد كانت التجارة اليونانية مع مصر ومع بلاد اخرى كثيرة فرصة نادرة للانشغال الذهني ولمناقشة القضايا العقلية الكبيرة قبل مجيء المسيحية بوقت طويل . ولو افترضنا ان الاسلام وليس المسيحية هو الذي غزا اليونان ، لما امكن له بشكله التشريعي ان يدوم طويلا ، وذلك لان اليونان كانوا مشرعين وفلاسفة واخلاقيين من الطراز الاول ، وجاءت المسيحية فسدت نقصا كان ملحوظا في وجودهم ، وهو فراغهم النفسي من عبادة التوحيد . اما في شرقنا العربي فالفلسفة اولا متأخرة عن الدين . وثانيا كانت كل صور الفلسفة تابعة لسلطة الدين وغير مناوئة له ، اي كان المطلوب من



الفلسفة ان توافق على التعاليم الدينية وان تصوبها ... والعامل الوحيد الذي يقهر روح الفلسفة هو الضغط والاكراه التقليديان ، فالمعروف ان الذهن الفلسفي لا يابه لشيء قدر ما يأبه لحرية التعبير عن الافكار وحرية المجادلة ، وقد كان هذا الضغط عاملا فعالا جدا في تمزيق الذهنية الفلسفية العظيمة لاحد الفلاسفة المسلمين ، وهو ابن رشد ،بقدر ما كان عاملا مساعدا في حدة هجوم الغزالي على منطقية الفلاسفة الذين يقولون بقدم العالم ويقولون بضرورة الوجود العنصري للاسباب والمسببات ، وقد قام كل هجومه اساسا لان اولئك الفلاسفة استطاعوا ان ينخروا البناء الديني ، وان يثيروا اسئلة منطقية ، كادت اجوبتها ان تزعزع الايمان التقليدي في قلب الجمهور .. واستند الغزالي في اقامة قضاياه على منحة الهية ، وهي جبن الفلاسفة الاخرين من بطش السلطة ، وخوفهم من النفي والتحريق ، فيما لو ردوا على تلك القضايا الردود العقلية الصريحة.

وقد فطن ابن رشد لهذا المزلق الخطير ، فحاول في خضوع ورقة ومذلة ان يجيب على تلك القضايا باكثر الاساليب ضعفا وخشوعا ، هذه القضايا التي كان يمكن لجواب عقلي واحد ان يقلب الذهن العربي راسا على عقب ..

اذن . كانت الروح الفلسفية معطلة وساكنة لان مشيئة السلطة والتقاليد ابت الا ان يكون المنطق والذهن في خدمتها .. ولقد كان ارسطاطاليس كاملا بين أيدينا ، فما كان احرانا ان نكون اول من يعرف الغرب على ذهننا الخالق ، لو كانت السلطة اقل دكتاتورية ، فاباحت التفكير ، واباحت المناقشة والنقد .. فكروا في الاف العباقرة العرب الذين ماتوا لان التقاليد كانت مصلتة فوق اعناقهم ، لان اقل مناقشة منطقية كانت قمينة بأن توردهم مورد الهلاك ..

وبسبب من هذا الشر بالذات يزخر تاريخنا بالاف المتصوفة والرهبان وعاشقي ذات الله ، فهذا هو الميدان الوحيد الذي ابيح خوضه ..

لقد كان هذا الخطأ ــ منع الفلسفة بالقوة ــ خطأ عصر باكمله ، خطأ مفكريه ومعتقديه وجمهوره .. وعلينا نحن تبعة ان نغير ذلك . فلو شئنا ان نحيي من جديد فكرنا الفلسفي القديم ، صدمنا باستحالة ذلك ، والا اعدنا من جديد صورة الضغط القديمة ، فلسوف نجد امامنا فلسفة اسلامية وحسب ، اما الفلسفة العقلية فهي اما احرقت واما ضاعت كلية ولو شئنا ان نقيم من جديد تلك القضايا التي ناقشها الذهن العربي ولم يصل فيها الى جواب ، لعنف السلطان الديني من جهة ، وانعدام الوعي من جهة اخرى ، صدمنا مرة اخرى لان الوضع الذي نعانيه ما زال هو هو ، فالسلطان الديني ما زال قويا ، والوعي من جهة اخرى ما زال مفقودا

واذن ، فان امامنا فرصة ان نترجم الفلسفة الاوروبية جميعا ابتداء من الذهن الاغريقي حتى الذهن الامريكي المعاصر .. وليس هذا التراث ثقيلا جدا لدرجة تعجزنا ، ففلسفة العصور الوسطى برمتها ، فلسفة لاهوتية ، ويجب أن تشجع بعض مشروع ذهني كهذا ، فاذا اردنا ان نعيد ترميم ذهننا الذي نام بالقدر الذي حلا له ، وجب ان نبدأ فورا هذه العملية العظيمة التي سوف تسهم ــ لا محالة ــ في خلق الكيان العربي للمستقبل القريب والبعيد ، واذا كانت ترجمة ارسطو خلقت الى هذا الحد هذا التيار من التفكير العربي ، فما الذي تؤديه ترجمة الفكر الغربي جميعا .ولنلاحظ ان الترجمة لا تعني التبعية ، بل تعني الانفتاح على القضايا ، ولنضع في اعتبارنا الترجمة الجليلة التي قدمها لنا شيخ المفكرين في مصر وهو احمد لطفي السيد ، لارسطاطاليس ، وما اداه هذا العمل الفردي من خدمات عظيمة لاوساط المثقفين الكبار والشباب ..

امكانيات العقل :

ان المعرفة هي وسيلة للقدرة كما عبر بيكون خير تعبير ، مفيرا بذلك تيار التفكير التقليدي كله ، الذي كان يظن ان المعرفة غاية في حد ذاتها ... فالسيطرة على قوانين الاشياء للاستفادة منها هي غاية الفكر ، وليست غايته هي الكمون الداخلي في قلب الذات لملاحظة العالم ملاحظة اجترارية هزيلة ، تنمي فيه الجانب اللامبالي ، وتغطي الجانب المقاتل الفعال

ومنذ كان الشرق شرقا ، كانت ملامحه على ما هي عليه الان : تقوى ومثل وخرافات واعتقادات قديمة واساطير وتواكل وبخور وتسليم بالقدر ورضى بعنف الحاكم ، بل وقبول مبرر بذلك ..

وكان على من يهاجم هذه الروح ان يضع في اعتباره مبدئيا ان الشرق هو الذي اعطى العالم الانبياء والرسالات الطاهرة ، والاخلاق والعبادة ... ومن هذا المنطلق كان الناقد يهتز حتى الاعماق بهذه العصبية الجنسية، وينسى معركته الاساسية ضد هذه الروح الخاشعة .. وتصبح مهمته الاولى هي اقامة التبريرات الاخلاقية على مايسميه عطش الغرب الى تراثنا.

المشكلة ابدا ليست اقامة الذهن الغربي ضد الذهن الشرقي . ان القضية اساسا في مدى قبول الذهن الشرقي للتطور ، فلو كان الذهنان قد تطورا معا من نقطة واحدة ، فذهب الغربي الى احتضان العلم ، وذهب الشرقي الى الحض على الزهد ، لكانت اقامة المقارنة منطقية تماما. ولكن الحادث يعاكس ذلك ، فالذهن الغربي الذي كان يؤمن بالزهد قد تطور الى ذهن علمي ، على حين غرق الذهن الشرقي في التيار الالهي ، وجمد على ذلك .. فباي حال تعقد المقارنة بين جسد يتنفس ويتقدم ، حيا الى نهاية منطلق الحياة ، وبين جثة يحفظها الكحول ، وبعض العقاقير ؟؟!..

ان نشأة الدين في بلادنا ليست سببا لتراخينا الذهني ، باكثر مما يكون تراخينا الذهني سببا لخلقنا للاديان والخرافات . فمنذ الاف السنوات نكبت بلادنا العربية ، ونكبت الهند وفارس بالقوى العسكرية الغريبة الجتاحة التي لا يحد جبروتها شيء ، وكانت هذه القوى تمتص حيويتنا وعصبيتنا وروحنا وقوتنا ، وتحاول ان تذيبها في الخضوع والتسليم ، وكان مجتمعنا الزراعي البسيط مساعدا فعالا لهذه الحركة الباطشة : فالمزارع لا يعرف الحرب ولا يفهم الثورة ولا يدرك اسبابها طالما المستعمر العسكري يسكن في المدينة ولا يهتم بالريف الا كما يهتم المدني العادي به ، ورجل المدينة لا يمكنه ان يصبح قوة عسكرية تطرد الطغيان وتلغي وجوده ..

وبقيت القوى الظالمة في بلادنا ما وسعها البقاء ، حتى تعلمت بعض البلدان الشرقية اصول الحرب والثورة ، وقامت بقلاقل كبيرة وصغيرة كما حدث ايام الحيثيين والبطالسة والمغول والاتراك والفرنسيين والانكليز.

ان الذهن الشرقي قد عطلته الزراعة بشكل عميق ، مستنفدة وقوده الثوري الخالق ، ودافعة له على الرضوخ لاي شكل من اشكال الظلم والبطش ..

ولا بد للذهن العام ان يحول بغضه الخارجي الى حركة داخلية ، اما تبتغي امانا ، وذلك شكل من اشكال الرضى ، واما الى حركة اخرى اخلاقية تسفه المظهر العسكري والقوة والشر ، وذلك يعني الدين ..

واختار الذهن الشرقي الحركتين معا . اختار ان يخلق الدين ، واختار ان يصبح اكثر امانا ، واصبحت مادة التبرير ذاتها دافعا الى السكون اكثر منها تفسيرا ..

ــ التتمة على الصفحة ١٠٢ ــ

صرخة ثائرة !

وداعاً .. أيها الأدب !

بقلم محيي الدين صبحي



حاولت فيما مضى ان ابين للقاريء العربي العوامل غير الادبية التي تؤثر في ادب الاقليم الشمالي وتعيقه عن الازدهار ومسايرة النمو الاجتماعي ، فبينت ان تشكيل المجلس الاعلى - واخص منه لجنتي الشعر والنثر - هو تشكيل تاريخي يضم افرادا تأخروا في مفهوماتهم الادبية عن المفهومات الحديثة التي تطور اليها الشعر العربي الجديد ، وبذلك فهم ذوو تأثير رجعي .. اذا ما تدخلوا في مجرى الادب المعاصر . كما انني اوضحت كيف تتحول الجمعيات الادبية الى صالونات اجتماعية تتفق على كل شيء الا على تبني مفهوم ادبي وطرحه في انتاج مذهبي يحتفظ بالفروق الفردية ضمن نظرة موحدة .. وارى اليوم ان اختم هذه السلسلة من الدراسات بحديث يحلل العوامل الادبية التي تؤخر الادب، مازجا ذلك بذكر الظروف الشخصية التي تلعب دورا كبيرا في حث الاديب على متابعة انتاجه او انصرافه عنه.. مع اثباتي لبديهية لا يمكن فهم الحياة الادبية عندنا بدون اخذها بعين الاعتبار ، وهي ان الاجيال الادبية ، في الاقليم السوري ، نقطعة تماما فيما بينها ، وانها لا تشكل سلسلة متصلة يتمم فيها الجيل اللاحق اعمال الجيل السابق، وانما هي حلقات متقطعة يبدأ فيها كل جيل من مفهوم وتجارب خاصة به حتى ينتهي ، لسبب او لآخر ، فيحل محله جيل جديد مختلف عنه كل الاختلاف ! ولهذا نجد انعبد السلام العجيلي لا يمت بصلة الى فؤاد الشائب وان نزار قباني بعيد كل البعد عن انور العطار ، وان زكريا تامر منقطع عن حسيب الكيالي وعبد السلام العجيلي .. وهكذا

ولعل تلك البديهية تمنح ادبنا خصبا وتلوينا ، لكنها تفقده طابع الاستمرار والفهم المتعدد للتجربة الواحدة التي تواجهها مختلف الشخصيات الادبية : كل من وجهة نظر خاصة بها ، كما حدث للوجودية مثلا بين سارتر ومارسيل وكامو وغيرهم .. وواضح ان السبب الاساسي لذلك هو فقدان اتجاه واضح في ذهن اي اديب .. او عدم امهال الزمن له كي يعبر عما لديه .. هناك مثلا طلائع فهم روحي عند عبد السلام العجيلي.. ولكن ما كتبه حتى الان لا يعبر الا بشكل غامض وغير كاف عن نظرته الشرقية للانسان . ولعل انعدام المفهوم ، او عدم وضوحه ازمة يشتكي منها الفكر العربي كله .. ولكن يستحيل نشوء ادب بدون فكر .. وما دام هناك ادب فهناك اذن فكر وراءه يسيجه ويصونه من التميع .

ما هو مصدر الفكر في ادبنا ؟

ذلكم سؤال محرج .. والاجابة عنه تشعرنا بالكثير من الخجل .. ولكن ما دمنا في صدد تقرير الوقائع ، وجرد حساباتنا مع ثلاثين عاما من الانتاج الادبي ، فلنقلها صريحة : « الاستيراد هو مصدر اكثر افكار معظم كتابنا » .. انها جملة طويلة ومعقدة بعض الشيء ولكنها صحيحة تماما .. وهي شاملة من حيث التاريخ ايضا .. وهنا لن نبتعد كثيرا ، فأول جماعة حاولت ان تصدر في كتاباتها عن مفهوم واضح محدد هي « رابطة الكتاب العرب » . ومن المعلوم انها اعتنقت المفهوم الماركسي وقدمت نتاجها على اساسه ، وحصرت نفسها ضمن حدود نظرياته ، وسواء افلحت ام اخفقت في تمثيل اتجاهها ، فانه مفهوم مستورد ، غريب ، مع العلم بان اكثر هؤلاء الكتاب اعتنقوا هذا المذهب لاسباب عديدة ... ليس من بينها معاناة الكاتب للمذهب . واقصد بكلمة « معاناة » تمرس الكاتب بمذاهب فكرية عديدة بغية الوصول الى قناعة بحقيقة ما ... حتى اذا تجلت له تلك الحقيقة اصبح صاحبها ومكتشفها . انه قد اكتشفها لنفسه على الاقل ! وبذلك تصبح جزءا من كيانه وتتكهرب بلفح من حرارة قلبه واندفاعة حياته ... فاذا ما انتج اثرا ادبيا كانت الناظم الذي يسلك ضمنه كل اجزاء العمل الفني.. والا ظهرت الفكرة ملصقة بصمغ سيء على الاثر الفني وظهر التوجيه فيها واضحا واستحالت الكتابة من فن الى منشورات...

.. وخلف الرابطة جيل جديد من الكتاب يجمع بينه الرفض للماركسية ثم يفترق بعد ذلك في اتجاهات عديدة ، منها ما هو مقتنع برسالة الفن في توجيه الجماهير توجيها مباشرا نحو الاشتراكية العربية، واولئك خلفوا سابقيهم في كتابة الخطب والمبادىء ضمن الشعر والاقصوصة ، ومنها ما هو مقتنع برسالة الفن غير المباشرة في توجيه الجماهير ، انه يريد اولا ايقاظ وعي وجودي في ضمير القاريء ، ويريد ايضا فلسفة هذا الوعي وتحديده في سبيل توجيهه واستغلاله ، ويمثل الاتجاه الاول شريف الراس - على قلة ما يكتب - ويوسف الخطيب في بعض شعره ، كما يمثل الاتجاه الثاني مطاع صفدي فيما يسميه « القصة الاشكالية » ويدعي في مقدمة كتابه « اشباح ابطال » ان القصةالاشكالية هذه لا يمكن ان يفهمها الا قاريء اشكالي .!

ومن المعلوم ان الاشتراكية العربية ما تزال شعارا لم تحدد تخومه بعد، لهذا يكتب المتحمسون لها عن شيء يتخيلونه ولكنهم لايعلمونه حق العلم ... اما اصحاب الوعي الوجودي او ما شابه ذلك من مصطلحات فمن المعلوم لدى الجميع ان كل ذلك مستورد .. وان الذي يكتب عن بطل متوتر قرفان يعاني الغثيان .. كالذي كتب عن عمال المناجم ومصانع الفولاذ .. سواء بسواء ، كلاهما دخيل . كلاهما يستورد أزمة ويمط الواقع او يقاصه حسب مقتضيات افكاره المستوردة ونتاجه الهجين. ومن المعلوم ان الادب هو التعبير عن المطلق من خلال النسبي ، اي على الفنان ان يستطيع تحديد اطارات عمله واعطائه هويته .. فدوستويفسكي مثلا قدم الاخوة كرامازوف في أزمة بحث عن معنى الحياة ولكن ضمن ملامح محددة ونهائية لخصائص اسرة معينة في وطن معين وزمن مخصوص ايضا

... واين هي ملامح مجتمعنا في كل الكتابات السالفة الذكر ؟ واين هو العربي بين كل اولئك من ابطال وعمال وقرفانين ؟ نعم يحدد لنا الكاتب هويته بان له كذا وكذا من الصفات..ولكن هذا لا يكفي لاننا نحس بانطباع البطل بطابع هذه الصفات .. انها مجموعة ملصقة تخرج دمية لا انسانا حيا .

والقارىء حاكم متواضع .. لكنه ذكي وشديد الحساسية ، وهو يعاقب مهربي الافكار بالصمت وبالاغفال ... صحيح ان الرواج ليس مقياسا للجودة ، ولكنه دليل على التجاوب او النفور .. ولا احب ان يتهم القارىء بالسطحية لاننا اذا وافقنا على هذا الادعاء صفعنا الواقع بضربات قاسية فكل النتاج الجيد قد نفذ من السوق واعيد طبعه مرات .. والدليل على ذلك مترجمات منير البعلبكي ! فاذا تركنا الترجم واتجهنا الى المؤلف وجدنا ان « الحي اللاتيني » اعيد طبعه مرات وان كتابات العجيلي تلاقي رواجا ، اما دواوين «القباني» و « ابو ريشة » فانها ما تكاد تظهر حتى تختفي .. وارجو الا يحاجني احد بالنكهة الجنسية في تلك الكتابات لان في كتابات المتمذهبين كثيرا من أزيز السرائر .

... ولو تركنا جميع هذه الاعتبارات ، ونظرنا الى الحياة الخاصة التي يعيشها الكاتب في اقليمنا .. ـ اي كاتب ـ لوجدناها حياة رتيبة مملة فارغة . انها خالية من التجربة .. ومن المعلوم ان الحياة المليئة بالتجارب تزيد الكتابة زخما وتملأ السطور بجذور تشدها من شحوب التجريد والتخيل الى لزوجة الواقع وتعقيدات الحياة . ان الوظيفة هي السوس الذي ينخر موهبة كتابنا ورغم كل العيوب التي ذكرتها ، فقد كان بالامكان ان يزداد خصب الانتاج لولا الوظيفة .. وفؤاد الشائب ذكر ذلك عن نفسه اكثر من مرة .. واذا كان بعض الشر اهون من بعض ، فان امر الوظائف التي تستنزف حيوية ادبائنا الشبان ..هي وظيفة التعليم بما تقتضيه من تكرار وتبسيط وبما يشغل وقت المعلم من امر تصليح الوظائف وامتلاء الذهن بكتابات الناشئة من المراهقين ، ولو استعرضنا اسماء الادبا في الاقليم الشمالي لوجدنا اكثرهم كذلك : رفيق فاخوري ، عبد الباسط الصوفي ، مطاع صفدي ، محمد حيدر ، جورج سالم .. وغيرهم كثيرون منهم كاتب هذه السطور ... واذا اجتمع وقار الوظيفة بوقار التعليم ، وروتين العمل اليومي بروتينية التدريس والتصحيح .. فاقرأ السلام على امكانية القراءة والكتابة فضلا عن امكانية التجربة والتمرس بالحياة .

ورغم ان وزارة الثقافة ارادت ا لتخفيف من هذه الازمة باستحداث مشروع التفرغ ، فان هذا المشروع اذا طبق ، لا يحل مشكلا بل يخلق مشاكل .. ان توفير عمل غير مرهق للاديب ، كأن يوضع موظفا في المكتبات او المراكز الثقافية او غير ذلك من الاعمال التي تضمن عدم اضطراره الى التخلي عن مستواه الفكري ، ان ذلك لافضل الف مرة من ان تطعمه الدولة لوجه الله ! ذلك افضل لانه حل وسط لايرهق الدولة ، لانها بحاجة الى موظفين يملأون تلك المراكز التي تتعلق بالثقافة ، ولانه حل يمكن ان يشمل عددا من الادباء اكثر من العدد الذي يشمله قانون التفرغ . كما انني اعتقد ان العمل الذي يتلاءم مع مزاج الاديب ولا يمتص امكانياته خير واشرف واكرم من البطالة التي يوفرها قانون التفرغ ..

ان اديبنا مرهق مضغوط مسلوب من الحياة ، يعيش في دوامة تفاهات يومية تجعله يفقد صلته تدريجيا بالناس وبالثقافة وبنفسه فيضحل انتاجه ويضؤل ثم يموت .. والدلائل على ذلك اكثر من ان تذكر .. فهذا عبد الباسط الصوفي ، بالامس كان شاعرا ملء السمع والبصر ، له في كل موسم حصاد .. ومنذ عين معلما صمت ، والقصائد التي نقرأها في الاداب من نتاج شهر قضاه في العطلة الصيفية .. وها هو الان هارب الى غينيا ، وقبله خسرنا محمد حيدر ، فقد كان منذ سنوات قصاصا منتجا ثم عين معلما فترك فن القصة الى كتابة « عرض حال » في مجلة الثقافة ، اما الابحاث التي قدمها لمجلة الاداب فهي ايضا من نتاج العطلة الصيفية .. وقبلهما استحال رفيق فاخوري من شاعر رمزي قبل التعليم الى ناظم كلاسيكي ، وما يزال في تقهقر مستمر .. اننا نتساقط ومعظمنا يتجمد او يهبط مستواه ، اي يحصل فينا بعكس مايحدث لكل ادباء العالم الذين يبداون ثم يتحسنون .

فاذا اضفنا الى ذلك فقدان وسائل النشر وانحصار الجوائز المالية بالاغنياء الشيوخ من الكتاب ، في الشهر الماضي تناول طه حسين ألفين وخمسمائة جنيه ، جائزة الدولة للادب ، فذكرت قول برنارد شو : « ان جائزة نوبل تشبه بتقديم المعونة لغرقى الذين وصلوا الى الشاطىء » مع العلم ان الرئيس عبد الناصر حين كرم توفيق الحكيم منحه وساما ، وهذا هو المنطق والمعقول ـ اذا ذكرنا كل ذلك ادركنا كثيرا من عوامل تأخر الادب عندنا في الزمن الماضي ، واستطعنا التنبؤ بما ينتظر المستقبل الادبي من نضوب وجدب في الاقليم السوري ..

ان التدريس مهنة سامية وذات رسالة ، وان الدولة تميز المعلمين عن غيرهم في المعاملة ، ولكن هذه المهنة تريد استقرارا في الذهن وتفرغا تاما للعمل بها وتريد سرعة انتاج ولزوم حد معين من مستوى التفكير ..

وجميع ذلك يخالف مايقتضيه الادب من تأمل وهدوء وتطور في المفاهيم كما ان ملاحقة الانتاج الادبي المحلي والعالمي يتطلب وقتا يتوفر في بقية الوظائف اكثر مما يتوفر في التدريس . كما ان الطفرات الذهنية والانقطاعات الظاهرية بين فكرة واخرى ، ومحاولة الاديب تكثيف نفسه وتجديدها .. امور تخالف التبسيط والتكرار الذين هما عماد التعليم .

*

اكتب هذه السطور الاخيرة وعلى طاولتي الف ومائتا ورقة تنتظر التصحيح ، ولم اقرأ منذ اشهر سوى الجريدة اليومية .

ـ وبما انني اؤمن بان الثقافة هي الوسيلة الاولى لتطوير الاديب ،

ـ وبما انني اعتقد بصحة رأي همنغواي من « ان على الاديب ان يكتب وكانه سوف يموت غدا » ، ولا اجد الوقت لشيء من ذاك بسبب مهنتي التي اضطرتني اسباب العيش لها .

ـ وبما انني مطلع على احوال ادباء كانوا اكثر مني ثقافة واغزر موهبة ثم تدهوروا حين مارسوا « التثقف » على اوراق الطلاب .

ـ وبما انني سمعت كثيرا من الوعود كانت نتيجتها اوضاعي الحالية .

ـ وبما انني احترم اسمي ولا اجد الجراة على الكتابة بدون علم .

فانني اودع كل ذلك العالم الحلو الذي عملت فيه ومن اجله مدة خمس سنوات ، .. هذا العالم الذي طمعت في يوم من الايام ان اكون سادنا في معبده . وارجو الايظن احد ان هذا المقال نداء او استجداء عطف بل هو كلمة لمن سوف يتساءل ـ ولو بعد الف عام ـ : « لماذا صمت وكان في ضميره كلمة تستحق ان تقال ؟ » . انني كتبت مقالتي هذه لمثل هذاك السائل . انني اودع احسان عباس . اودع محيي الدين محمد ورجاء النقاش ... هؤلاء وغيرهم ممن هم خميرة الفكر والحرية في وطننا العربي .

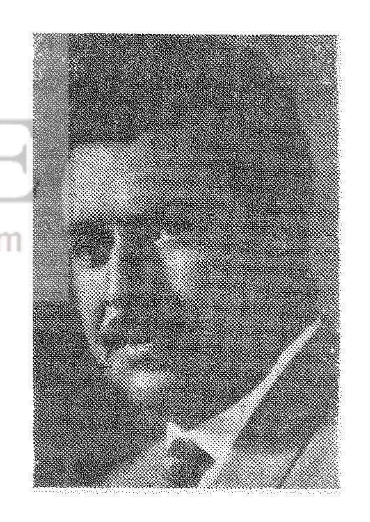
فيا اخوتي ، يامن قرأت لكم وكتبت معكم ..

لن اقول : « الى اللقاء » ، بل اقول : « وداعا » .

قرية درعا — **محيي الدين صبحي**



« الى الشعب العربي الذي انجب الانبياء والمحررين بالامس وينجب اليوم الابطال والمنقذين ..... »



الله تجسد في شعبي
ياشعبا حضبر اوربا
يا أسمر
يالون الصحراء البكر
ياقلبا يحتضن الدنيا
لا لن تفنى
ما مات الله
والنور الخالد لن يطفأ
والشعلة في جوف الصحراء
نور وردي يتلألأ
والراية في قبضة طارق
شمس وضاءه
والبحر سفين
اشرعة بيضاء كالطهر
كرمال الصحراء
باسم الله المجرى والمرسى
ياغرناطه
يابركة نور وضاءه
يافيضا من نور العرب
لا لن أبكي
اوراس تثور
بن بلا في قيد الاسر
بن بلا في كهف اسود
يابن بلا ... يابن بلا
ياصرخة جيل هدآره
ياروح الثوره

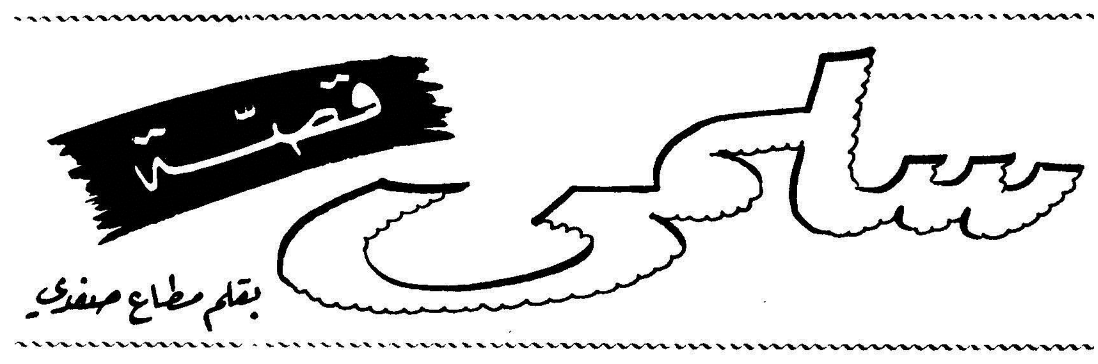
الراية عادت خفاقه
« باسم الله واسم الوحده .. »
من اعماق الشعب الثائر
دوت للعالم اغنيه
ابناء عمان العربيه
صوت يقرع باب الخلد
عرب .. عرب .. لا لن نخضع
والجبل الاخضر نار

*

بغداد القلعه
نافورة دمع ودماء
« والاوحد » يغتال الثوره
ويئز رصاص
وتخر نجوم
ويعربد مخمور في الحانه
مات الله وعاش « الاوحد »
والسور الاسود
وعيون تلمع في الظلمه
في حقل القضبان
ولهى ترتقب الفجر الاخضر
والشارع حنجرة تزار
عرب .. عرب ... لا لن نخضع
والشعب العملاق الاسمر
لا لن يفنى
قسما بالبعث ولن يقبر

شفيق لكمالي





١ ـ العجاج

وسمعته ثانية يصرخ بعد كل ضربة من سوطه الاسود على جلدهـــا المخملي :

ـ اللعينة .. تريد ان تكون جميلة بو حيرد .. جميلة الثانية ..

واغمضت عيني . لقد كان الانين فاضحا كل شيء . يدهم حواسي كلها . فلا حاجة اطلاقا لان ازيد الحس بالرؤية . وشعرت بارتخـــاء اليم في مفاصلي ، فاتكات على قيودي ... ودوت الحروف فـــي اعماقي تلك التي تؤلف اسم جميلة بو حيرد ..

كان ذلك عشية انصرافنا من الجامعة ، وقد وقفت عند الباب الخارجي انا وصديقي « حسين » نجمع التواقيع من الزملاء احتجاجا على تعذيب جميلة بو حيرد بيد انصاف الرجال من الفرنسيين ، عندما رايت سلمى مقبلة متمهلة فاترة ، تلوح بمحفظتها حسب ايقاع حالم فـي روحها ، ونسيمات المساء تحمل صمتا ورعشة وشرودا لقلوب الصبايا ، وقد خلت من هموم اليوم الدراسي .. توقفت عندنا قليلا ، تطلعت الى العريضة المزدحمة بالتواقيع . وسقط نور المصباح على جبهتها الخمرية وقد غطت جانبها غرة كثيفة من الشعر الاسود القاتم .. وابتسمت وهـــي تحنو بنظراتها على شيء مبهم يبدو لها مني :

ـ لم تنته مشاغلكم بعـــد ..

ـ الا توقعين ..؟

ولوحت بالمحفظة جيئة وذهابا .. وصعدت بانظارها الى اعلى :

ـ لا ارى فائدة فيما تفعلون ..

وكاد حسين انيقذف بغضبه السريع في وجهها ولكني سارعتبالقول :

ـ على الاقل يالنسة سلمى نحن نبقي على مبادىء جميلة التـــي تتعذب اليوم من اجلها حية حارة في قلوبنا بهذا العمل الصغير ...

واطلقت آهة غريبة أدهشت صاحبي .. وسرحت ببصرها اكثـــر الى اعلى وغمغمت :

ـ ليتنا .. ليتنا نستطيع حقا ان ندرك عظمة تلك المبادىء .. نحـــن هنا ، لا لشيء سوى للتحسر .. ولامضاء التواقيع .

وكادت ان تمضي في طريقها لولا انني ناديتها :

ـ سلمى .. سلمى .. لماذا لاتساعديننا قليلا . تقفين لبرهة معنا .. ولا بد ان نجمع تواقيع اكثر ..

وغمغم حسين اخيرا :

ـ صحيح .. زين والله ، لن يبقى شاب في الجامعة الا وسيوقع .. معنا سلمـــى .!

وضحكنا للحظات . ولكن سلمى تمهلت قليلا قبل ان تقرر . ثـــم هزت محفظتها ، وارعشت غرتها بحركة سريعة من رأسها .. ومشت ، وخلفت وراءها عطرا غامضا عنيفا للشعر الاسود

وحشرج صوت حسين في اذني :

ـ ارأيت .. اتعتقد انها تهتم لمثل افعالنا هذه .. سلمى ليست مـــن عالمنا ياصاحبي .. كف عنها ، والا صيرتك يوما اضحوكة لهـــا فـــي الجامعـــة .

واحترقت الرغبة في حلقي . لقد خمدت رعدتي ما ان تحركت تنورتها تنفض علينا نسمة عبقة انثوية ، كنت اخشى حقا لو انها انصاعتووقفت الى جانبي . اكره ان احتمل ظل انثى . لست اريدها حقا .. انهـــا تعذيب لذيذ لي .. جنتي التي لن ادخلها ابدا .

ـ يقولون انها تعشق فارسا مجهولا . لديها ثروة ياصاحبي مـــن مال الاب والام ، ومن سيل المعجبين .. مامحل امثالنا في حياتها .. دعك منها .. انت تعدو وراء سراب ساخر .. اتذكر استاذ الاقتصاد .. لابد انها فتنت بشاربه الاشقر ، ولهجته العذبة في القاء دروسه . لقـــد سمعتها تقول له في نزهتنا السابقة مع الاساتذة : انك يادكتور تلقـــي شعرا ولا تلقي باحاديث مادية . فضحك الاستاذ الماركسي واجابها : ان القوانين الاقتصادية هي التي تعلم الشعر .! ومن ذلك اليوم وهـــي تجلس في المقعد الامامي ، وترفع له بعينيها المخيفتين .. وينوب هـــو وراء منبره شعرا اقتصاديا ..

واجبته اخيرا : انـــا اعلم انها تعبث .. تعبث ، ولا شيء اخـــر .. وهي من ذلك الطراز الذييختبيء وراء العبث والسخرية . انها تتعذب هي كذلك برغبة وحشية خفية .. رغبة ان تلقى مالم تلقه حتى الان ..

ـ انت تتمنى ان يكون الامر كذلك ... ومع ذلك من يدري .. الا انني احب ان القي اليك باعتقادي .. هذه الفتاة يامجيد كنز لمن يمتلكها . ولكن هل اسعدت الكنوز دائما اصحابها ..

ـ كفى ..! انك ضد المراة .. ضد الحب والجمال منذ القديم ، فـــلا قيمة لارائـــك ...

وصمت برهة ، أحسست خلالها بالمه . ولكنه ماعتم ان قال :

ـ هذا حق .. ولكن ليس مثلي احد يتمنى من صميم وجوده ان يصادف يوما جمالا انسانيا حقيقيا .. لاشيء في حياتنا ، حتى ماهو مادي منها ، الوجه والجسم واليد الصغيرة .. الا وهو بدون واقع ، بدون صدق .. انت تعرف كيف هجرت ..

وقاطعته بصرامة ، خيفة عليه ، انني اعرف ، اعرف فاجعته القديمة التي كررها على مسمعي عشرات المرات . ان هذا الانسان الضخم كصخرة مكدسة منذ الازل الى جانبي ، يئن من ثقب في صميمه . كما تئن الصخرة من فجوة ينبوع ، تعجب لمائه القليل كيف استطاع ان يحطم جلمودها ويثقب معدنها .. ولكن حتى هذا الينبوع قد جف ، وبقي قناة صماء مظلمة تصفر فيها الريح بدون جدوى .

قال حسين :

ـ هيا بنا .. طال وقوفنا هذه الليلة ، لااريد ان انبه اعين « السعيد » علينا ..

وانطلقنا نحو المدينة . كنا مطرقين صامتين ، نسابق ظلينا على الرصيف .. وما ان ابتعدنا قليلا عن الجامعة حتى لمحنا شبحا يتقدم منا .. وقف الى جانبنا :

ـ مجيد اعطني العريضة بسرعة .. سر بطريقك هيا .. غدا سأراك !.

✶

انهم يهولون ، وكذلك فأنا اهول معهم . ولكن الارض التي تلعقها نعالي لن تقشط عنها غبار الاحذية القذرة ، وتكشف عن صخرها الاملس البارد ، بالسهولة التي كنت احلم بها وانا بعد طفل في العقيدة ، طفل في التطلع الى الغبار ، كيف هو مكدس ، وكيف سوف اعدمه من ارض الغبار .

لقد كنت احسب السير في العجاج الرملي الذي يخترق شوارع المدينة فيوحد بين قذارة جوفها وقذارة سمائها ... والناس في هذه الساعات تعشى حواسهم ، فينكفئون على انفسهم ! انهم يعيشون قليلا بالغبار المتراكم حول مشاعرهم . هناك يحلو الضجر .. فهو جرعة افيون تحيل ثقل العجاج الى حلم مرهق ، يشعر معه الانسان انه مذنب بدون جريرة ما . انه مسؤول عن .. لاشيء . ومع ذلك فهذا « اللاشيء » موجود بطريقة ما . وهو مصدر عذاب وسعادة من نوع دنيء وحشي .

وحملقت عيناي ثانية في غرفتي العارية .. لقد تحولت احجارها الى كتل من الصقيع والسكون المعتق واللامبالاة المحزنة . ولم اتابع كتابة الرسالة الى اهلي في « دير الزور » بسوريا .. لن احدثهم عن عجاج احمر ، مثقل بالغبار القاتل . يعرفونه . وكذلك يعرفون ساعات الانتظار الشاقة خلف الابواب والنوافذ الموصدة باحكام ، يتشممون رائحة الهواء النقي بلا جدوى .

ولكنني أود لو اقول لهم ، فيما لو وصلت رسالتي اليهم ، ان العجاج في بغداد قد تحول الى مادة اخرى ، انه لاياتينا من هناك عبر القفار والصحاري الموحشة من الانسان والعشب والحب اليتيم ، ولكنه ينبعث كثيبا أملس من حنايا الازقة هنا . لقد بدأ يتصاعد العجاج من أقبية المدينة ياسلمى . وانه يطفو على هوائنا ، ويسبح بحشرات المجارير فوق انفاسنا .

وانا هنا ، موصد علي ، يسجنني عجاج اخذ لونه يعمق في الحجرة المغبرة . أتلمس الضياء والهواء ، وأبقى مسجي على سريري اعانق ظل سجاني بدون حب ، بدون تلامس حقيقي ، الا تلامس الاختناق والضغط المسعور .

لقد كان علي ياسلمى الا اراك الا قليلا بعد خروجي من السجن في عهد القزم التركي ذاك « نوري السعيد » . كنت اشفق ان تصيبك عدوى جنوني .. ان احدا في الواقع لم يكن يستطيع انذاك ان يبرر عاصفتي السمراء ، هذه النظرة الموحشة الفائرة الى قعر العالم .. لماذا انا محتد دائما ، أصمت برهات طويلة ، أنفجر بدون سبب حقيقي ، أختفي اياما من الجامعة ، أحيا الليل الطويل متسكعا على ضفاف دجلة ، على ضفاف بغداد المنسابة في حذر الاستسلام المخيف .. كنت اقف بعض اللحظات ارنو الى رموز بغداد وهي اضواء قليلة تنعكس على جبين دجلة ـ اواه ليتها تحس ما معنى ان ينعكس ضوؤها على الجبين ، جبين النهر الخالد ـ اقف وأحملق في هذا المائع بدون شكل او حجم ، يبدو بدون وجه سوى انه انسياب اخرس طويل معتق ، كانه افعوان من نوع أسطوري ، ليس له اول ولا اخر ، ولكنه يزحف بنعومته الثقيلة على بلاط بدون زمان .

أكاد أحس ان نظراتي الى الكتل الجبارة من القوى المنسابة في حضن هذا النهر ، القوي النائمة المتلصلصة الزاحفة في الاعماق ، نظراتي هذه تلهب البرودة هنا ، تجمد الحركة الكبرى الصامتة في القطرات المتزحلقة على اديم بعضها بعضا .. اني اتحداك يانهر ، أتحداك باسم أعماقك المظلمة الشهيدة تحت اثقال مياهك الرمادية ، اتحداك باسم الاضواء القليلة المترجرجة على جبينك ، أتحدى نعومتك وانسيابك البض الثلوج ..

وادور في الحي المتلوي . اطرق الباب في اوج الليل على حسين .. اوقظه ، يرتدي عباءته السوداء ، يسير الى جانبي شبه نائم ..

ـ الا تحس يا حسين صمت هذه المدينة ..

ـ انت عاشق ! ما اخبارك مع سلمى ..

ـ انها تشبه بغداد .. تتجمع كلها في غموضها وعنفها القنع حول نهر يشق صميمها وتزحف فيه اسرار الوجود كلها ..

واصمت برهة ثم اوقفه تحت مصباح ، احدج هدلات لحمه حول فمه المطبق من الازل :

ـ حسين اريد .. اريد شيئا غير المنشورات ..

ـ صبرا يا اخي .. اتدري لقد وزعت ، انت وحدك ، اكثر من نصف الكمية .. فمالك تلح هكذا علي ان اعطيك .. اعطيك .. ماذا بك ، اتريد ان تحتكر العمل كله . كنا نحسب انك قد افرغت طاقتك في سوريا قبل ان تاتي الى هنا !

ـ لو تدري ياحسين .. ان احدا من جيلنا الموحش لايعذبه وجوده بقدر ما يعذبه عدمه ، عدمه الازرق في صميمه ، ولهذا فلن تنضب طاقته، العدم لايفرغ ابدا .. اواه لكم تثيرني هذه المدينة المشقوقة الصميم بدريد بارد مخيف ينقل ازل الارض ويزحف به بدون معنى .. بدون قوة تصعد الى الضفاف .

ـ قريبا تهطل الامطار في الاعالي ، ويهدر النهر ، وتصعد المياه .. تصعد، تغرق الضفاف، تغمرالشوارع والازقة.. وتغسل نصف الانسان هنا.

ـ هل سيعم الطوفان .؟

ـ الطوفان .. الطوفان .. آه ، هذه هي الكلمة الرائعة .!

واجيبه وانا اهرول بعيدا عنه عائدا الى وحدتي :

ـ عجاج اخر من المياه .. عجاج اخر ، اليس كذلك ، أواه من يمكنه ان يكون البطل عندئذ : من يطير في العجاج ، او من يسبح في الطوفان.!

مازلت اتلعثم بالنظرة ولحركة المستريبة من يدي ، من جسدي كله وانا اجلس على الكرسي الوحيد المتخلع في غرفتي ، وأتأمل هـذه التي احلولك ثوبها ، وانهدل هدبها بحمل الغبار والحلم :

ـ ماذا جاء بك يا سلمى .. اخترقت العجاج،كيف اهتديت الى بيتي..

ـ انـك تتحدث دون ان تدري عن كل الاجزاء ، كل التفاصيل التـي تخص حياتك .. ومن يريد ان يعرفها فليتنبه الى حواشي احاديثك .. هوامشها .. عندما تدور .. تدور حول مالا تستطيع ان تعبر عنه ، فتلتقي بكل الظلال المبعثرة الاخرى حول هذا الشيء المفقود .. .

واختصرت الغرفة واشياءها وزواياها العارية بنظرة مهومة ثم فضت كيسا ورقيا في يدها :

ـ اليس لديك طاولة اخرى .. حسنا دعني ! سأنقل هذه الكتب الى الارض ، لابأس على ماأعتقد ، احمل معي ..

نقلنا طاولة الكتب الوسخة . مسحت الغبار ، بحثت عن جريدة . القتها بعناية كغطاء جديد مترف .. ثم راحت تنسق الطعام فوقها :

ـ جئتك بعشاء لهذه الليلة .. طبخت هذا بيدي .. ذق ! انه طعام بغـدادي اصلي ..

وحين لم أحر جوابا ، تناولت قطعة من الخبز وحمّلتها من لحم السمكة الكبيرة التي أتت بها وقالت ضاحكة :

ـ سآكل معك .. لاتخش هذه السمكة الغريبة .. انها من دجلة .. الا تشبه سمك « فراتك » في دير الزور .. لابد ان كل الاسماك متشابهة ولكن الصيادين يختلفون .. اليس كذلك ..

ـ او بالاحرى للطباخون ..!

وضحكت بجذالة متبشرة بهذه النكتة . فلعلني بدأت افارق جمودي قليلا . انها تدبر امرا .. تتبعني بنظراتها الحانية المبهمة .. حنووابهام يغمران طلعتها ، كما عرفتها دائما . وهي منذ تلك الامسية عندما حاولت حمايتي أنا وصديقي من جواسيس « السعيد » فرجعت على درب الجامعة واختطفت مني العريضة ، منذ تلك المفاجأة المذهلة وهي لاتبرح تزداد حنوا وابهاما كلما جمعتنا صدفة لقاء عابر .. الى ان اضطررت اخيرا الـى الاختفاء بعيدا عن متناول السلطات الشعوبية .. وقد مضى علي شهران دون ان اخرج إلى النور .. وأغلقت الجامعة وحل تموز .. وكان علي ان اعود الى سوريا ، ولكني بقيت احيا في ظلام بغداد .. اغوص في غرفة منفردة في احد الاحياء الغاصة بالناس . اعرق واتبلد ، وافكر ، والتقي بحسين والاخرين .. بينما يختنق النور والهواء في الخارج بالعجـاج الاصفـر الكثيف ..

وتطلعت الى الوجه الانثوي الطافح ثقة عربيدة ، كان لونه الشمـس والخمر ، معتقين برغبة الاستشهاد في نزوة واحدة ، كاملة الحياة والموت.

وانا الذي حلمت بلحظات لالقي اليها بحمل الصمت في فؤادي ، لم ادر ماذا انتقي لها من كلماتي الخطيرة ، وقد جمعتنا هذه الغرفة ، وتوقف العالم هناك عى العتبة بزمانه وضجته وعجاجه

واستطعت اخيرا ان اقذفها بسؤالي العتيق :

ـ لماذا فعلت ذلك ..

ـ مـاذا فعلت ؟

ـ اعني عندما ابيت ان تضمي امضاءك الى العريضة ، ثم رجعـت وانذرتنا برجال السعيد .. وها انت كذلك تقتحمين علي مخبأي ههنا ..

ـ ربما .. ربما كنت افعل ذلك حبا بالمغامرة .. بعض الناس ، الا تعرف ذلك ، مولعون بالطريف والغريب .. ولعلي أنا منهم !.

وضربت بيدي على الطاولة وقمت دون وعي:

ـ ليس عملنا هواية يا آنسة .. وان كنت ممن يبحثون عن المغامرات فلقد ضللت هدفك تماما ..

ودون ان يطرف لها هدب تمتمت بهدوء شل غضبتي كلها :

ـ لم أقصد هذا .. وانما .. لا لن اقول الان شيئا ، وانما احب ان انبهك الى انه قد توجد كذلك مهمـات اخرى لها خطورة مهمتك

ـ انا اشك ان لك فعلا مهمة ما من هذا النوع .. لقد كنت تعبثين بالشباب ، تلك كانت لذتك .. انت الهية ، الهية مفسدة تضللين الشباب عن اهدافهم الحقيقية .

وقامت الى بعض الكتب تقلبها ، وقالت دون ان ترفع الي بعينيهـا

ـ حدثني عـن جميلة بوحيرد .. ألم تكن جميلة جذابة ، ذات كبرياء انثوي ، الم تحب ، الم تكن لها نزوات الفتاة .. الم تدخل معركة الموت والحياة من اجل رجل ...

وقاطعتها وقد احتدم غضبي :

ـ لا ياآنسة .. لا ابدا ! مثل هذه المرأة لن يمتلكها رجل ابدا .. هي وامثالها يصنعن قضية .. انها فوق العواطف ، وان كانت هي الحب كله !

ومن خلال ابتسامة رائعة تقول بعذوبة شيقة :

ـ لا تغضب هكذا يا مجيد .. كل ما احاوله هو ان اوضح لنفسي بعض نوازعي الداخلية . انا ما زلت اشك .. اشك في قدرة اي انسان ان يكون ما يريد حقا. فهل يكفي مثلا ان اسلك سلوك البطل حتى اكون البطل .. حتى اكون جميلة،جميلة بوحيرد ..

وقلت وكاني اوجه هذا القول الى نفسي اولا :

ـ ينبغي ان تحيي الثورة لكي تكوني الثورة ، لكي تكوني البطل بدون ادعاء ولا زيف .. ارتبطي بالثورة ، كوني داخل الجحيم ذاته لكي تقدري بعد قيمة الاله والشيطان .. ان ارتباطك بالثورة هو الذي يبرر لك حتى اخطاءك . واما وانت خارجها ، فلا يحق ان يكون لك ثمة قلق او شك واضطراب بشأن البطولة الحقيقية او غيرها .. اننا في النار ، ومن هناك لنا صرخاتنا ..

واجابت وهي تمسح انامها بمنديلها :

ـ ومع ذلك فيجب ان اعترف بانى اذا كنت سارتبط يوما ما بالثورة فلا بد ان يجذبني اليها اولا شيء حي.. انسان ما .. هذه مشكلتي يا صاحبي فانا لا استطيع ان اؤمن بحقيقة مجردة ، فان كنت اريد الثورة فلا بد لي من ثائر اعرفها بواسطته ..

ـ لا تقولي هذا يا آنسة سلمى .. انك تبحثين عن رجل .. عن رجل وكفـى !

ـ قد يكون هذا صحيحا ، بل انه صحيح فعلا ، ولكن لا بد ان يكون هذا الرجل هو الثورة ذاتها ..

قالت ذاك وهي تودعني خارجة من الغرفة على ان تأتي لي بطعـام في اليوم التالي..

ـ سأراك كل مساء .. سأبدأ بهذا الواجب الصغير .. ان اطعم شابا صغيرا ثوريا ... وبعد سنرى ..! والى اللقاء.!

*

كان حسين يذرع الغرفة جيئة وذهابا ، بينما راحت سلمى تشغـل نفسها بجمع بعض الاوراق .. قالت :

ـ انك تكتب بشكل رديء جدا يا مجيد .. والرفاق لا بد لهم من قاموس خاص لحل رموز-حروفك .. ان اوامرك هذه يجب الا تكتب كذلك

بخط ثوري .. أهذا ضروري ؟

ولكن الصمت ما زال مخيما على الغرفة ... وتوقف حسين فجأة :

ـ يا مجيد ! أتعتقد ان ثورة الشعب يجب ان يحققها الجيش دائما ؟

وضرب مجيد المنضدة بقبضته مرة اخرى :

ـ اننا نفعل فوق طاقتنا ... تظاهرات ومناشير واجتماعات سرية ..

ـ وكذلك يفعل الشيوعيون ..

قالت ذلك سلمى بلهجة لا مبالية ، فانقذف مجيد نحوها صائحا :

ـ ومن اين علمت ذلك .. اهو استاذ الاقتصاد الاشقر .. اهو استاذ الاقتصاد الشاعري الماركسي دعاك الى احدى هذه الاجتماعات ...

فاجابت مصطنعة الهدوء :

ـ هون عليك يا صاحبي .. ينبغي ان نقدر كذلك منذ الان قوى الاخرين .. اننا نهيء لثورة ، ولكن هناك من ينتظر الثورة ليستولي على مكاسبها كلها

وتدخل حسين قائلا بثقة عجيبة :

ـ لا يهمنا هذا... الشعب معنا ، عندما نحقق له ثورته ، سيعرف حينئذ من هم ابطاله الحقيقيون ..

وسمع حينئذ قرع متأن على الباب ، وفتح حسين ، فدخل شاب شديد السمرة والنحولة ، تقدح عيناه بنار دائمة ، القى نظرة عى الجميع ثم تطلع لحظة الى مجيد ، تلاقت عيناهما ، وهز له الاول برأسه هزة خفيفة .

التفت مجيد الى الجميع وقال بلهجة رهيبة :

ـ حسنا ايها السادة .. لقد حلت ساعة الصفر .. سنتلاقى غدا مع ضباطنا امام قصور الطغاة .

ولم تفهم سلمى جيدا ماذا يعني هذا الكلام المشحون بالرموز فقالت :

ـ هل هي مظاهرة جديدة ؟!

وابتسم مجيد :

ـ نعم ولا .. انها المظاهرة الاخيرة ..

٢ ـ الطوفان

عيناك يا سلمى غاب من النور الاسود ، وأنا افجع من ضاع في غاب عينين ، مدينة ... أحساس متوحد مصلوب عليه العالم ..

اعتقد انني عنيف متوحش ، وعيناي تحلان الوحشة حيثما وفمنا على وجه او قلب او شارع تتكرم فيه كائنات .. من نوع غريب اسطوري . لا تخشي شيئا يا حبيبتي .. لا تعيدي اليك ذكرى تلك الظهيرة . لقد طافت بغداد فجأة .. خرج الاسود والثعالب معا من اوكار المدينة المخيفة .

كان هناك قتل . كان هناك اعداء لنا يموتون شر ميتة ، لقد بدأالقتل.. لا نهولي الامر ياسلمى.. اه .. انلمحين في ذلك بداية الطوفان ..

وصاح بي ، من اعماق دوامتي ، رفيقي الذي كان يسير الى جانبي على الضفة ...

ـ حذار انك تخوض في الوحول .. القذارة !.

انه شاعر ، يتآمر دائما ضد الحقيقة .. انه طفل عجيب ، يلقي على العالم من طفولته الثرة ويحسب انه يكسب الوجود اديما جديدا حالما تتجسد نشوته في قصيدة عذبة حالمة . ولكنه مع ذلك كان يكتشف الرعب بطريقة ما ، فتراه ينبهني الى وحول الضفة ، الى القذارة ..

ورحت انحدث بصوت عال

ـ سلمى يا ((عاكف)) نحس معنا الرعب ، بل نحسه افجع منا ، انها تصرخ بي دائما ... ماذا فعلنا لكي نسيطر على الطوفان .. سلمى بائسه لا ندرك فوتنا .. نحن ابطالالشعب . لقد أزلنا عدوه الاعظم ، لم يبق الا ان يهتدي الى طريقه الايجابية الجديدة ..

وسمعت الشاعر يرقص الى جانبي :

ـ نحن بسطاء .. بسطاء ، ابرياء ، نسكب الفجر على جبين الارض فتلتمع الصحاري بكنوز انوارنا الضائعة ..

ـ ولماذا تضيع انوارنا يا صاحبي ؟

ـ لانها انوار .. انوار .. يا للحقيقة العارية ، انها ستظل عذراء رغم عقول الفلاسفة كلهم من سقراط الى سارتر ..

وتمتمت بحذر مأخوذ :

ـ لقد اصبحت مخاوف سلمى حقيقة . بدأ الرعب يكشف عن وجهه المشوه من بين الزوايا والظلال .. رأت اليوم وجها جديدا للطوفان .. كانت تسير مع مظاهرة كبرى لتحية الزعيم الاوحد . فسمعت صوتا ينادي بحياة عبد الناصر قائد الوحدة ، والمظاهرة كلها تردد النداء ، ثم يصرخ صوت اخر : لا زعيم الا كريم ! فاذا بالمظاهرة تردد الشعار .

وصاح الشاعر :

ـ ولكننا نحن صنعنا الثورة ، نحن قدنا رؤوسنا الى الحتف ، نحن هبينا باعصارنا وبددنا سحب العجاج فوق مدينتنا ومن رئات شعبنا ..

ـ ولكن حل يا صاحبي الطوفان محل العجاج !..

ـ الشعب يعرفنا .. فلا خوف...

ـ ونحن لا نعرفه بعد .. فلنخف اذن !

ـ انهم يضللونه ، انهم يتاجرون بسذاجته ، يزينون له الجحيم باوهام من النعيم .. انهم اعداؤه الحقيقيون

ـ كفاك سذاجة يا هذا ... ينبغي ان نتهم انفسنا ، نحن ابطال ! صحيح . نحن صنعنا الثورة ! نهن هدمنا صرح الطغيان ، ولكن نحن لم نعمل على استمرار الثورة فتحولت الى فوضى ، الى طوفان ، نحن كشفنا

عن الينابيع ، فجرنا الصخور والقلوب ، ولكننا لم نحفر المجرى الواحد الحقيقي ففاضت كنوز الينابيع والقلوب وتحولت الى طوفان ، يطغى على كل شيء ، يتبعثر ، ويتنحر تدريجيا ، يبدد قواه ، يذيب حجمه العظيم ، ويصير اخيرا الى وحول ومستنقعات ، نغرق فيها ببطء العفن .. نحن أصحابه !

ونظر الي الشاعر مشدوها :

ـ ماذا ؟ أتريد من الابطال ان يصبحوا فلاحين .. ان يقسموا الارض ويزرعوا الطين !..

ـ الابطال يا صديقي ليسوا هم الهدامين فحسب ، ولكنهم البناؤون.. والا استحالوا الى قتلة مجرمين .

ودعت الشاعر . دخل الى الجريدة . تابعت طريقي . لن اكتب هذه الليلة حرفا واحدا . لن اوزع اوراقا وكلمات من اعلى . يقول رئيس التحرير ان علينا ان نوجه الشعب ، ان نكتب الاف الصفحات . هناك معركة توجيه بيننا وبين المضللين . انهم يغرقون السوق بالصحف ، بالاف الكتب والمجلات ، يوزعونها مجانا ياتون بها من جميع عواصم الشر ما وراء الحدود . هناك عقول وعلوم ونظم واموال والات جبارة تعمل الى جانبهم، ونحن لا نملك .. الا بطولة البراءة !

هذه الكلمة .. هل سأسخر منها يوما قريبا . اواه يا الهي ، كيف يمكن ان تلغى شخصية شعب بكامله ، كيف يمكن ان يخدر ، ان ينتزع منه وجدانه وعقله ، ان يهجّن ، يتهم بهويته .. وتشنق حريته فوق راسه !

★

بلغت غرفتي . كانت سلمى تلهث من نشيج طويل :

ـ اتيت اخيرا .. هذا فظيع . لن استطيع ان احدثك .. اواه يا ربي! قل لي اين تخبأ هؤلاء السفاحون .. انهم يهود ، نازيون ، تتر .. لقد رأيتهم بعيني .. الطلاب.. رفاق حسين

ـ ماذا حدث .. ماذا حدث .. ماذا فعلوا بحسين ، قولي هيا ..

ـ سحلوه يا مجيد ، قالوا عنه انه جاسوس ناصري ، تألبوا عليه من كل جانب في اروقة الجامعة ربطوا عنقه بالحبل وجروه الى الخارج ، الى الشوارع .. والناس ، الناس الطيبون ، الذين طالما احببت وجوههم السمراء وبسماتهم العذبة ... هؤلاء من تسميهم الشعب ، كانوا يصفقون ويهزجون ويعدون وراء القتيل ..

وتهاويت على السرير .. لقد بدأ الطوفان حقا .. بدأنا نغوص والوحول ستبتلع فجرنا الوليد .

وقامت الي شرسة مجنونة ، تهزني بعنف متعاظم :

ـ اخبرني ماذا ستفعلون ، ايها الابطال .. هيا ناد عبد الناصر ، ناد الرفاق من الجمهورية ، من كل انحاء الوطن العربي.. الواحد الواحد هاها!انهم سيفترسوننا واحدا بعد واحد،وفي كل مرة ستكون وليمة عظيمة للشعب . لم يعودوا يفرقون بيننا وبين اعوان العهد البائد .. انها مصيدة كبيرة .. لقد اصبحنا خونة ، لاننا ننادي بالوحدة .. اصبحنا مجرمين ، لاننا نقول ليس هناك عراقي وسوري ومصري .. ليس هناك الا زعيم لعرب واحد .. ليس للمركبة الا قائد واحد .. قل لي كيف سنقابل القتلة .. ينبغي ان نرد القتل بالقتل .. لم يبق الا طريق الدم ، طريق الدم .. اواه .. اواه ياحبيبي ماذا فعل بنا الوحوش ؟..

ـ لن نكون وحوشا مثلهم ، لن ننفذ لهم كامل خطتهم . لقد رموا بنا الى الغاب ولكننا سنضيء غابهم بانسانيتنا . لن يدفعونا الى القتل ،نحن اعددنا الثورة ولكننا لم نهيء للمجازر ، ستكون لنا ثورتنا العربية دائما وستكون لهم مجزرتهم الحمراء ..

ـ انه طوفان احمر ياحبيبي ونحن سنغرق فيه شئنا ام ابينا ..

ـ طوفان نعم .. ولكننا سنستعمله لخير هذه الارض ، لابد من تطهير طويل ...

ـ ايكون التطهير من نصيبنا وحدنا !.

ـ سنتألم اليوم وحدنا ، ولكن غدا سيتألم الشعب معنا .

لم اكن واثقا مما اقول في البداية . ولكن استرسالي على هذه النبرة ، جعل لكلماتي صدى عميقا في نفسي . وبعد ان كنت أكاد انفجر حنقا وارتباكا عاودني صبري وهدوئي . اننا في قلب الكارثة فلماذا نفر من مواجهتها ؟

وذات ليلة ، وكانت سلمى قد رجعت الى عادتها السابقة ، تأتي لي بالطعام كل مساء الى مخبأي الجديد في احد الاحياء الشعبية ، رأت عندي رفيقين لاتعرفهما جيدا وان سبق ان التقت بأحدهما من قديم قبل الثورة ، في مثل هذه المناسبة .

كان احدهما يعبث بقلم على ورقة امامه . اتأمله للمرة الالف وكأنني اراه جديدا . انه شخصية عملاقة ضمن قالب صغير . يمزق حدوده لينتبأ بنظرات صاعقة ، بكلمات حادة جازمة كحد الموسى .. وراح يتابع دون ان ينظر طويلا الى سلمى :

ـ ماذا قلت يامجيد .. حسنا ! لقد كانت عقيدتنا دائما هي ان يحرر كل قطر عربي ذاته بذاته من الحكم الرجعي والاستعمار .. ولكن ماذا نقول عن وحدة النضال العربي . نحن اليوم في القفر .. معزولون، وحيدون في هذه الواحة الموحشة ، وحولنا القفر والصحاري تفصلنا عن رفاقنا .. انهم ينسوننا .. نحن لوحدنا ، لوحدنا نواجه اكبر عملية مكر تحالف فيها جميع الشياطين ، شياطين الارض ، ضدنا ..

وتدخلت سلمى فجاة بنبرة حادة مريعة :

ـ ماذا تطلبون المساعدات دائما .. لقد انتظرتم في الثورة الماضية حتى قام الجيش بمغامرته الاولى ، دون ان يكون لكم اعدادكم الكامل .. ففرقنا بالفوضى ، وضاعت معالم الثورة كأنها لم تكن في يوم من الايام .. واليوم تنتظرون ثورة اخرى من قبل الجيش او انقاذا من وراء الصحاري. حسنا ايها الاصدقاء .. ابشركم : لقد قامت الثورة في الموصل .. وهذا جهاز الراديو اتيت به لكي تستمعوا الى هذه المغامرة البطولية .. البطولية دون عقل .. دون روية .. ماذا تستطيعون ان تفعلوا لكي تؤيدوا ثورة الموصل انتم هنا في بغداد !.

واستمعنا الى صوت الشواف ، يدوي في فضاء البلاد .. وتمتم عبد القادر ، هذه الشخصية العملاقة المحشورة في قالب صغير نحيف :

ـ هذا هو الجنون بعينه .. ولكنه الطريق الوحيد لانقاذ البلاد ... ينبغي الا نتردد ابدا ، فلنعمل شيئا هنا . ينبغي ان نتحرك بغداد بسرعة .. والا ضاعت فرصتهم الاخيرة .. علينا ان ندعم ابطال الشباب ..

وكان هناك في زاوية بعيدة عن مصباح الطاولة يجلس « فيصل » .. انه عملاق كبير ، يسبح وجهه في موجة دائمة من الطيبة والمرح البريء. لم يتكلم شيئا منذ زمن . يستمع الينا ندور في امكنتنا مع اصداء الصوت الثائر من الشمال ، و ارتفع صوته الجهوري بعد قليل :

ـ كنا ننتظر مثل هذه الوثبة ، ولكننا لم نعرف عنها شيئا ، متى واين وكيف .. وها نحن نفاجأ .. هذه النزوة الجبارة سائرة نحو الفناء

قريبا .. وستنقلب مصيدة لنا .. ولكل الابطال ، انها مناسبة لتدميرنا الى الابد فلنحــاذر ..

وطرق الباب شاب اخر ، اقتحم الغرفة صائحا دون ان يتمهل حتــى يرى الوجوه الجامدة المتعلقة بشفتيه :

ـ هيا .. ماذا تفعلون هنا .. الشباب في غليان مريع .. ينتظــرون قراركم .. بغداد فارغة ، بغداد تنتظر ، ستثور مع من يثور ، ستصفق للمنتصر .. الطواغيت تقهقروا الى جحورهم .. ولكن هذا لن يدوم. ان اذاعة بغداد تخلق الرعب والبلبلة في نفوس قادة الجيش والشعب انهــا تنذر وتتوعد ، تشن حرب دعاية مريعة . الناس حول المذياع في كــل مكان .. لابد من حركة صغيرة اولا ثم تعم بغداد بسرعة النار في الهشيم. لنحتل الشوارع الرئيسية ، لنخرج من بيوتنا ، هدفنا اولا دار الاذاعة .. لابد من قرار سريع .. هيا لاتضيعوا الوقت ..

وصاحت سامي :

ـ الليلة سيتقرر مصير البلاد لامة طويل ..

وتمتم عبد القــادر :

ـ المظاهرة ستكون انتحارا ساذجا ان لم تتحرك الجماهير ..

واجبتــه :

ـ الجماهير تنتظر قائدا مقداما .. علينا ان نفعل كل مابوسعنا .. وان كنا موقنين باننا نسير الى حتفنا بظلفنا ..

ونظر الي العملاق فيصل وهو يهم بالخروج :

ـ لقد اتخذت قراري .. لم تكن انتصارات الشعوب نتيجة تفكيــر بارد في قوى الدفاع وقوى العدو .. انما نتيح لانفسنا الان فرصة ان نعرف من نحن فعلا . نحن لانحب الموت ، ولكننا ندرك تماما ما قيمــة الحياة بدون موت حقيقي .

واتمت سامي قائلة :

ـ كنا نتناقش قبل قليل في عزلتنا .. ان البطل معزول ، ولو كــان بين جيش من الابطال يحيطون به من كل جانب .. البطل معناه الياس من الاخرين ، من كل القوى الا قوته هو .. ان عبد الناصر والرفــاق الاخرين وراء الصحاري ينتظرون بطولتنا الخاصة كما فعلوا هم مــن قبل في دمشق .. وفي القاهرة .. علينا ان نعرف من نحن حقا .. هذه فرصتنــا ...

وقفنا جميعا ، لم نقل شيئا ، كان علينا ان نتجه نحو الباب ، وان ننغمر في ظلام الشوارع الموحشة .. وان نملابغداد الموحشة المقفرة .

٣ ـ أنياب الآلهــه

لم يكن يغريك ياحبيبتي مايغري الصبايا في مثل سنك .. لقــد كان المساء أبلج الجبين ، وكذلك احاطوا بك من كل جانب ، وكذلك نظرت الى بقية الضوء على جبين السماء . ولكنهم انتهروك فلقد كنت رافعــة الرأس ، بينما كان الاخرون يقنعون وجوههم بعتمة نصف الظل ، يكومون رؤوسهم بين اكتافهم ، ينظرون الى الارض .

لقد خدعنا في الماضي منك كبرياء العزة ، والنظرة الشزراء ، ولفتة الكتف المتعالية في زوايا الطلاب ، والبسمة الغاضبة ، وقد شققت عــن بياضها الوان رغباتهم السوداء . ماكنت عابثة ، ولكنك تطلعت الى اعمق فسخرت من كل شيء موجود . من معاني حياتنا اليومية ، ومن برنامــج امالنا الزاحفة ، ومن تطلع ذليل نحو مثل لانعرفه . كنت تبحثين عنك . وكنا نبحث عنــا ..

وكان لكل منا درب من السطح ، من جانب ، من زاوية مسروقه مــن نور الشمس . ونهرب من الفضيحة . نتكىء على صرخاتنا الصغيرة ، نكبت فيها روح الالم الحقيقي . كنا جبناء دون الالم الحقيقي ، واعظم من ان نرقص في حلبات الفرح الفارغة .

وانت تدورين بعيونك ، غابة النور الاسود ، بين اشباحنا ، فلا تثبت على جسد قائم .. كنا نتهاوى .. ولا بد ان الحب الذي ادعاه بعضنا ، النضال الذي تجمل به بعضنا ، الثورية التي تاججت من نداءاتنا ، مــن شعاراتنا ، ومن لهبة عارمة في زوابعنا الطفولية ، لم تكن اكثر من مناسبة للامل .. وانت عرفت كيف تكتشفين ، في العديد منا ، جرحنا المستور ، هذا النزيف نحو داخل ..

هيهات ياسلمى ان نحقق البطل ، ونحن على هذا القدر من الثقــة بانني بطل ، وبانه بطــل ..

كان اعصار الغضب ، الحنق، كانت الغابة السوداء من الضوء الاسود تلتمع في جوهر العيون الصارخة عندما سالوك :

ـ أهــذا خطيبــك .؟

ـ نعم .. هــذا بطلــي .!

وجمدت نظراتك علي . كنت اتكىء على قيودي . كان الفبو معتمــا . وانفاس رجال بلا وجوه تقذر الهواء وسمعت قلبي وحده يقدم ايقاعــا خافتا لهــذا الصمت .

دعي عنك هذه النظرات ياسلمى . انني مازلت اتكىء على قيودي . وتأرجح في المسافة الضوئية بيننا ذلك الطاغية الطويل النحيل ،وتقدم مني ، كان عودا اجوف ، دودة طويلة تصل بين السقف والارض .

ـ يامجيد .. عثرنا عليها اخيرا ..

وصاحت هي من هناك ، من الضوء الاسود في عينيها :

ـ وماذا في ذلك .. لن تأخذوا منه كلمة واحدة ..

وقبض عليها طاغوتان ، دفعها الطويل من شعرها مسافة قدمين اواكثر. علقها . اسقطها فجاة . لم يقس عليها بعد . رفسها الى الارض ، انكبت على وجهها . جلس على ظهرها . كان يضغط نهودها بالارض ، بالحجــر البارد . ادارها . ما زالت العيون تشع بالضوء الاسود .

اتجه نحوي ، تعلق فوقي ، وراح يهتز بفجاجة ودبق .. دودة :

ـ ستتكلم .. ستتكلم .. اين رجولتك ، اتحب تعذيب النساء ...

وسمعت لهجة قاصفة من هناك ،من البقعة من الحجر التي تكومت فوقها :

ـ لم اعد امراة ..نحن سجناء جميعا وكفى .!

وقامت وقفة واحدة ، واندفعت الي ، حنت عينيها علي ..

قالت هامسة :

ـ مجيد .. لم يقبضوا علي . انا استسلمت لهم ، جئت لارى الرجال .. كيف هم الرجال الصامدون ، اذا ما عذبت نساؤهم امامهم !!

ورفعها احدهم من شعرها ثانية ، وقذف بها الى الزاويــة المقــابلة لي ، وسمعت ارتطام اللحم بالحجر والظلمة ..

وعندما اعادوني ، لم يرجعوني الى زفراتي الاصلية المفردة ، بــل حشرت مع اخرين في زنزانة اكبر . وما ان اعتادت عيوني ظلمة المكــان حتى عرفت وجهين احاطا بي ، عبد القادر وفيصل .. وكــان هنــاك شبح ثالث قد اتكأ براسه على الحائط ويبدو انه كان نائما ، انه عاكف .

انهم بارعون ، هؤلاء الذين درسوا فلسفة التعذيب على اساطين اعداء البشرية .. في الشمال ، في البلاد الباردة ، حيث حنطت القلوب فــي الثلوج الابدية . لن اكون لوحدي ، سيعيش رجال اخرون تعذيبي طيلة هذه الليلة ، لقد دخلت مسرحية آلامنا فصلا جديدا ، فلم لا يكون الاخرون

قرب عيني ، لصق انفاسي ، يحاورونني ، يفتضحونني عند ذاتي .

ولكن يبدو ان المعركة كانت محتدمة من قبل قدومي .. راح عبد القادر يمس جبين الشاعر قائلا بلهجة لم ادرك انها ساخرة مرضية الا متأخرا :

ــ حسنا يا صاح ، لا تبتئس هكذا ، لا تجعلهم يشعرون انك مريض حقا .. انهم يتربصون لنا، يتابعون شقاءنا ، يحصون علينا كل آهة جديدة .. هذا اوان التحدي الاكبر . اما كنت تحسن ظنا بالانسانية ؟ نحن اطفال ! نحن ابرياء بسطاء ..! نريد الحرية لشعبنا ، فهل لهذه الدعوة يشقوننا ، يعذبوننا ، يشحذون انيابهم على عظامنا .

ويتمتم الشاعر من وهدته :

ــ شعبنا عظيم .. لن يتركهم يشوهون حريتنا . نحن اداناتهم الكبرى ..

ورفع رأسه واتجه الينا :

ــ آه .. لم اكن اعلم انهم انو بك يامجيد انت الاخر ..

ولكنه تابع ما كان يريد أن يقوله دون ان يعبأ بي كثيرا :

ــ أتعلمون يااصحابي ؟ لقد ادركت اخيرا انه بقدر ماتكون مبادىءالانسان بسيطة حقيقية بقدر ما تقوم عقبات العالم كلها دونها .. ان يتحرر شعب ، أن يتوحد شعب ، ان يقيم العدالة بين افراده .. ما ابسط هذه الافكار ..

ويصيح عبد القادر مقاطعا :

ــ ولكن لماذا تحققت هذه الاهداف البسيطة دون تلك العقبات في مصر وسوريا ..

ويجيب فيصل من صدره الضخم :

ــ لقد كانت لهم عقباتهم هناك كذلك ..

ويتابع عبد القادر صرخته :

ــ ولكن لماذا هنا .. هنا بالذات في العراق .. تقوم كل الشرور في وجهنا ؟...

وقمت من مكاني وقد اكتشفت لنفسي تتمة حقيقتي لهذه الليلة :

ــ هذا لان العراق كان دائما بالنسبة للامة العربية عقدة الحياة او الموت .. فيه حرينها الكبرى وعقبتها الكبرى .. هنا التصفية الكاملة لكلا الطرفين معا .. محك لامكانية الانبعاث لدى الامة ، وفضاء نهائي على الشرور المزمنة المحيقة بالامه .. كان على عرب الاسلام الاولين ان يخلصوا العراق من الفرس لكي تقوم دولتهم فعلا ، وحين سقطت بغداد بايدي الشعوبيين من حكام بني العباس انهارت وحدة الامة ، وحين غمر التتر وجه بغداد العربي انتهت حضارة اخرى للعرب بكاملها ... وهذه هي التجربة الثانية .. العراق يقوم ثانية بدوره .. فما هي قوى الانبعاث ، ما حقيقتها لدى جيل الوحدة والحرية .. هذا هو المحك الذي يجابهها اليوم في انتكاسات العراق .. في بحرانه وعذابه وتارجحه المضني الشاق !.. ان الامة تتحدى بنا مصيرها .

وببشر غامر رشيق اندفعت الكلمات من فم عاكف وحركاته البريئة الطفولية :

ــ الم اقل لكم . الى اقل اننا بسطاء .. ولذلك تشرق علينا الحقيقة مباشرة . مجيد يتكلم بروحنا جميعا . .

ولكني قلت وانا اجلس القرفصاء على الارض العاريه :

ــ بقي امر ايها الرفاق .. لقد اتوا بسلمى هذه الليلة ..

وارتمى كل واحد في مكانه . وساد السكون فجاة . وعادت الى القبو وحشته الاولى ، منذ ان كان تجويفا مدلهما في اعماق التراب الكثيف .

*

قبض عاكف على قضبان النافذة . مشدودا كوتر اخرس . وظل فيصل مستندا بظهره الكبير الى الحائط . كان يضغط شيئا ما في عروقه يكاد ينفجر به وبالعالم حوله . وكان عبد القادر قابضا على راسه بكلتا يديه ، يحاول ان يشل دماغه عن التفكير . واما مجيد فقد بقي هادئا ، لا يستطيع الجلوس ، ولكن استمر شاخصا الى نقطة ما في الفضاء المظلم حولهم ، يحاول ان يتابع الصدى ان يتسلق نبراته المتقطعة بحركة معاكسة لتردداه ، وان يتحد بينبوع مصدره .

كان ذاك صراخا مريعا ، يتعالى من شق في هذه الارض ، ليس بعيدا عن مكمن الرجال . وكانذلك يتصاعد من لحم سلمى ، فلقد اصبح لكل عرق فيها صرخة خاصة ذات نبرة بالم جديد .

وسمعت فيصل يردد ثانية :

ــ سملى تصمد .. سلمى تصمد ، لو وقفوا عند هذا .. الحد . لو اكتفوا بتعذيب جسدها .. ونحن نصمد كذلك ..

سلمى تصمد لو.!

سلمى تصمد لو.!

ونحن نصمد معها كذلك .. لو !

واندفع عبد القادر اليه فجاة مقربا وجهه من لهاثه وراح يهزه من منكبيه :

ــ فيصل .. نحن نصمد ، نحن الذين نصمد وحدنا .. واما هي .

ــ التتمة على الصفحة ١٠٨ ــ

الحقد والفولاذ

من رسائل جميلة (*)

الليل ، والغربان ، في بيتي
ياأفعوان الحقد ، ياصمتي
تخنقني اصابع ، أطبقت
وامتصني الذهول ، من بردي
وفارت الديدان ، محمومة
حولي ، ونز الفتن في لحدي
وعالم ، يشحذ فولاذه
ما هزه حس ، من الوجد
ياأفعوان الحقد ، **ياصمتي**
تأكلني مقتا ، على مقت
لعابك المر ، تجرعته
مغمسا، بالدمع والسهد
جميلة ، خرساء زنزانة
ومعصم ، في بارد القيد
تغلغل المسمار ، في كفها
واختلجت ، في سكرة الموت
ياأفعوان الحقد ، ياصمتي

*

الليل ، والغربان ، في دربي
ورقصة الاشباح ، والرعب
والف ذكرى ، أجهشت ، والتوى
حس ، رهيف النصل ، في قلبي
تغلغل المسمار ، يا بغضي
يا لهباً أصفر ، في أرضي
أيقظ فحيح الجمر ، يا آكلا
من عصبي ، القوت ، ومن نبضي
ياأفعوان الحقد ، ياصمتي
ياغارقا ، في لجك الزيتي
وانسج خيوط السم ، مقصودة
زرقا ، وخيط كفن الحب
وكن الها ، في كهوف اللظى

كن مارد الاهواء ؟ كن ربي
تغلغل المسمار ، في قلبي
ولوثتني ريشة الموت
ياأفعوان الحقد ، ياصمتي

*

الليل ، والغربان ، في سجني
وصحوة الفناء ، في جفني
يا عنكبوت الحقد ، عشعش هنا
في هوة السرداب ، في الفتن
تضحكني الجدران ، مقرورة
صخرية ، سوداء ، كاليأس
تقبع ، في أنين أبوابها
لم تغتسل ، في مولد الشمس
تضحكني الجدران ، كم رحلة
لي أوغلت ، مع الذرى السمر
في معصمي القيد ، وفي جبهتي
مايرفع الشموخ ، من كبر
أنا ارتحال ، أبدي الهوى
من فرحة ، يمضي ، ومن لون
لم أحترق ، في حمأة الضغن
ولن يعيش الحقد ، في حزني
تغلغل المسمار ، في قلبي
ففجروا صبحا ، بشريانه ،
وانسل خيط ، من دم الشعب
جميلة ، في خرس صلبانهم
ضحية الانسان ، والحب
وباركتها رحمة الموت
يا عنكبوت الحقد ، ياصمتي

*

لينفخوا ، في جيف ، مجدهم
وليخرجوه ، رمما ، من قبور
ليشحذوا ، صقع فولاذهم

لا رعشة ، لا خلجة من شعور
أختي ، ببغداد ، يجرونها
جامدة العينين ، مذبوحه
أختي ، على الاشجار ، عريانة
وفي رصيف الغدر ، مطروحه
رعاع بغداد ، ودهماؤها
في بركة الدماء ، مجنونه
وينصب الجلاد ، أعواده
ويغمد السفاح ، سكينه
أختي ، تشد الجرح ، مهزومه
قد خلفت « يافا » وشطآنها
وغادرت حقلا ، من البرتقال
تدفن ، في الظلام ، أجفانها
مذ شيعت ، في « صفد » كرمه
وهومت ، تبحث عن خيمه
والسل ، يمتص صدور الرجال

*

تأوه الفولاذ ؟ يا جوعه
يا عريه ، يا فقره ، من غرور !!
أختي ، على « الاوراس » بين الصخور
تزرع قلب الموت ، نارا ونور
أختى يدان انهدنا ؟ فانفرط
يا قيد ، واقلع ياجناح النسور
يد على الجرح ، وأخرى على
زنادها ؟ أختي حطام يثور
في معصمي القيد ، وفي جبهتي
ما يضفر النصر ، من الورد
واخوتي ، صرخاتهم حركت
ما في ضمير الشعب ، من وقد
ليشحذوا الفولاذ ؟ لن يطفئوا
توهج الحياة ، في صوتي
جزائرية ، وفي قبضتي
تمرد البغث ، على الموت

حمص — **عبد الباسط الصوفي**

---

* **رسائل من جميلة مجموعة قصائد من ديوان يعد للنشر بعنوان «ابيات ريفية».**



معنى الأدب عند سلامة موسى

بقلم غالي شكري



حين صدر كتاب « الادب الانجليزي الحديث » لسلامه موسى عام ١٩٢٣ ، كان تاريخنا الادبي قد اذن بصفحة جديدة في تراثنا النقدي المعاصر .

ولو وعينا الخطوط الرئيسية التي انتظمت الحركة النقدية في الادب العربي عند بداية الربع الثاني لهذا القرن .. لاكتشفنا انهما خطان يتيمان غلبا على وجدان ادبائنا في محاولاتهم المتعثرة ، لايجاد ميزان تقويمي سليم .

اما الخط الاول ، فهو المدرسة السلفية ، التي ارتاحت الى احكام التقاليد والدين ؛ فيما يأتيه البشر – ومنهم الادباء – من اعمال.واستمد اقطاب هذا الاتجاه موازينهم من بلاغة القرآن والاحاديث والكتب القديمة، واستلهموا بناءها الفني في تطبيق اسسه على ما ينشره الادباء المحدثون على الناس . ولم يعتبر بناء هذه المدرسة في ارسائهم قواعد الفنون ، الا بجودة السبك والاسلوب المطهم ، من حيث القالب والاطار ..وبتعاليم الدين وامثال السلف ، من حيث المضمون والمحتوى .

ولم يكن رواد هذا المذهب ، الا تعبيرا صادقا عن طبيعة المجتمع الاقطاعي الذي عايشوه . وما نظرتهم الخلفية الى اشكال الادب القديم، الا احساس مخلص ، بما اجتمع بين مناخ الثقافة السالفة ، ومناخهم الحديث ، من اوجه التشابه وقرابة النظام الاجتماعي .

والمدرسة الثانية ، لا تختلف عن الاولى ، بمعنى انها ارتاحت الى استيراد القديم . وما بينهما من خلاف ، ان الاولى ارتمت بين اذرع العرب، بينما الثانية ارتمت بين احضان ثقافة الغرب .

فالخط الرئيسي الثاني في خريطة نقدنا الحديث ، هو ما استورده ادباؤنا من قواعد الادب الاوربي واصوله النقدية ... لا في اخر مراحل تطوره ، بل في بداية هذا التطور . وكانت المناهج العقلية – اوالمنطقية– هي السائدة على ذلك الطور المتخلف من النقد الاوروبي – بصفة عامة – والادب الانجليزي بصفة خاصة . وربما راينا هذه المناهج « مسخا » بعد ان نقلت الينا ، على ايدي ادباء رأوا فيها مرآة جاهزة لما يعتلج في صدورهم وما يمور في مجتمعهم ، ونسوا انها عبرت – اخلص تعبير – عن مجتمعات اختلفت ظروفها عن ظروفنا ، وسبقت اطوار نموها الحضاري ، خطوات تاريخنا .

ولكنهم في فورة حماسهم ، وكرد فعل لاتجاهات المدرسة الاولى – راحوا ينشدون الاحكام الحاسمة على الانتاج الادبي ... دون اعتبار لعاطفة ذاتية ، وانما « العقل »هو الناقد الحقيقي ، او « الحكم » الموضوعي ، ولا دخل للناقد – في رايهم – باية ظروف او عوامل احاطت الاديب اثناء انتاجه هذا العمل الفني ، و « النص » وحده ، هو الفنان والظروف والحكم جميعا . ولا دخل للناقد – في رأيهم ايضا – بعواطفه الذاتية ، ولكي يصبح موضوعيا امينا يجب ان يتجرد عن ذاته واهوائه .

★

وسارت المدرستان زمنا ، في خطين متوازيين ، غير انهما تقاربا حينا ، واختلفا احيانا . وتولد عن هذا التقارب والاختلاف مدرسة وسطية جديدة ، اتخذت لنفسها خطا ثالثا يجمع بين النقيضين . (١)

وما ان بدات العلوم الحديثة تزحف الينا ، حتى تعددت المدارس والاتجاهات . وتنازل بعض من رواد المذاهب القديمة عن موازينهم ، وآثروا مسايرة التقدم . فكان منهم من تعلق باهداب علم النفس وراح يفسر العمل الفني بروح فرويد وغيره من علماء السيكولوجيا .ومنهم من استنار بعلم الاجتماع في الكشف عن الحقيقة الاجتماعية للنص الادبي . ومنهم من اكتفى بتسجيل انطباعاته الشخصية وحدها ، لانها – في رأيه – القياس الوحيد الصادق . ومنهم من اتبع منهجا تاريخيا في النظر الى انتاج الاديب .

وهكذا اضطرب المحيط الادبي في مصر ، بموجات نقدية ، مضت في خطوط امامية مستقيمة ، لا تقبل التقاء مع خطوط اخرى .

ولم يكن عيب هذه المدارس جميعا ، الا انها لم تكتشف همزات الوصل الموضوعية بين مناهجها . واحساسها بهذه الانفصالية هو صورة لما كان عليه مجتمعنا وتفكيرنا . لان حقيقة الامر ان هناك ترابطا وثيقا بين الاتجاهات الادبية المختلفة ، ما دامت تعبر عن مجتمع واحد .

غير ان هذا الترابط ، ما كان يفهم ، حسب نظرة ميكانيكية للامور ، اي اننا لا نقصد بما نسميه الصلة الوثيقة بين المدارس المتباينة ، انه يمكن الجمع بينها في طبق واحد . وانما استهدف القول : بان رؤية هذه الصلة الموضوعية ، كانت في حاجة الى منهج علمي متكامل .

وعندما صدر كتاب سلامه موسى عن الادب الانجليزي الحديث ، لمحنا السمات الاولى لهذا المنهج . لم يكن تخطيطا نظريا ، وانما كان تطبيقا على لون من الاداب الاوربية ، يمكن القول بانها عانت « التطور » الذي رسمه سلامه وفق منهجه الجديد .

ولم يكن غريبا ، ان يقابل هذا الكتاب – بما ينطوي عليه من منهج يغاير المناهج السائدة – بالتجاهل المطلق من جانب النقاد ، وبالتفافل

(١) راجع في هذا الموضوع « الأسس الفنية للنقد الادبي » للدكتور عبد الحميد يونس .

من قبل الادباء .

ذلك ، ان المناخ الاقتصادي والاجتماعي في ذلك الحين ، لم يكن يسمح بشعار غريب يؤكد بان التجديد في الادب لا يعني شيئا سوى التجديد في الحياة .(١)

فقد كانت الحياة العربية ترزح آنذاك تحت عبء الاستعمار الاجنبي ، والاستبداد الداخلي . والقوى الروحية لمثل هذا المجتمع ، لا بد ان تنبع من صميم الازمة المادية التي يعانيها . ومن ثم كانت القيم الفكرية السائدة ، هي ظلال الاوضاع الاجتماعية المسيطرة .

واذا جاء ناقد يقول : الحق ان التجديد في الادب يشبه التجديد في الفلسفة . فقد كانت الفلسفة القديمة تترفع عن درس الحياة الدنيا ، وترصد نفسها لدرس كنه الاشياء ، والفرق بين ما نعرفه عن الشيء ، وماهية هذا الشيء . وكانت تبحث الغيبيات ، اي ما قبل الوجود وبعده وهي في ذلك كله تبتعد عن الناس ومعايشهم . ولكن الفلسفة الجديدة تدعو الى الكف عن البحث في كنه الاشياء ، وتقنع باستخدامها لمصلحة الانسان » (٢)

اذا جاء ناقد يقول هذا الكلام ، فاننا ندرك اية ثورة قد اعلنها على « اقدس » القمم الفكرية . لان مجرد الاهتمام « المادي » بوجودنا الانساني ، يثير علامات استفهام كثيرة ، حول النظام الاجتماعي الذي يمزق كيان البشر ، ولا يؤمن مستقبلهم ، ويدعهم نهبا للحيرة والشك والقلق . بعد ان كان هؤلاء « البشر » في هدوء المخدرات التي يتعاطونها مع الفن الذي« يسمو » بهم الى فضاء الخرافة ، ويعلو بـ « ارواحهم » الى سماء الاوهام .

جاء سلامه موسى ، اذن ليقول « ان الاديب التقليدي يعنى مثلا ، باسلوب الجاحظ يحتذيه ، ولا يعني باسلوب الفلاح المصري في العيش فينقده ويطلب اصلاحه . وهو يكتب عن العرب وتاريخهم ومجدهم . ولا يكتب عن نكباتنا الحاضرة ، وما نقاسيه من مظالم اقتصادية او سياسية او اجتماعية ، ولذلك فان ادبه سلفي ، وهو ادب الكتب الذي يجعله يعيش وهو في عزلة عن الوسط الذي يحيط به كانه برج عاجي . وهو هنا يشبه ادباء القرون الوسطى في اوربا »

واحس دعاة الادب في مصر ، بان الكتاب ليس بحثا في الادب الانجليزي ، وانما هو بالتحديد « منهج » يمكن تطبيقه على ادبنا المحلي . وتتحدد خطورته بانه :

اولا : يتطلب من الاديب وعيا خاصا بظروف مجتمعه وتاريخه ، اي انه سيضطر الى مضاعفة الجهد في الدراسة والاستيعاب . وهو ما كان في حاجة الى مثل هذا « التعقيد » حين كان يحتذي في بساطة ، اسلوب الجاحظ والخنساء والزمخشري .

اما الوجه الثاني لخطورة هذا المنهج ، فهو « التغيير » الذي يمكن ان يحدث في جماهير القراء ، ومن ثم في « المجتمع » .. وحينئذ ينتهي « قلق » الادباء ليبدأ قلق « السلطات »

وعندما احس ادباؤنا ايضا ــ وهذا هو المهم ــ بما يتضمنه المنهج من « خطر شخصي » على كيانهم الاجتماعي ، راوا « من الحسن » ان يتجاهلوه على التو ، ويهونوا من شأنه ، ويعملوا على اخفاء اثره .

وبالفعل ، نجحت خطتهم الى حد بعيد ، بصفة مؤقتة . فان ناقدا واحدا او باحثا او اديبا ، لم يشر الى الكتاب بحرف واحد .

(١) الادب الانجليزي الحديث ص ٣

(٢) المصدر السابقة ص ٤

ومضى من التاريخ ، عشرون عاما ، تبدلت خلالها كثير من الاوضاع الجذرية للمجتمعات العربية . ولم يكن سلامه موسى اثناءها ، باكيا او راقدا . وانما كان « مؤثرا » اساسيا في كل تطور اجتماعي او ثقافي .

ومنهجه الذي اعتقد ادباؤنا انهم شيعوا جنازته ، كان الثقاب الذي اشعل الفتيل في كل مكان . لان هذا المنهج لم يفارق صاحبه لحظة ، بل رافقه في جولاته العديدة .. بين اروقة الاداب الاوربية حينا ، وفي زحمة آدابنا العربية احيانا .

وكان في هذه الجولات جميعها ، يطابق بين فلسفته والواقع المحلي .. اي بين منهجه وانتاجنا العربي . ومن ثم تبلورت معالم المنهج الرائع الذي حمل مشعل جيلنا ، في كتابه العظيم « الادب للشعب » . هذا الكتاب الذي صدر مع ميلاد مجتمعنا الجديد ١٩٥٤ ، وكأنه « انشودة النصر » التي جاءت بها اعظم قصة كفاح .

وفي « الادب للشعب » لا تجد جديدا ، عما قرأته في « الادب الانجليزي الحديث » من حيث الخطوط الاساسية . ولكنا نكتشف الاضافات الحية الخلاقة ، التي اضافها التطبيق المحلي على منهج سلامه، فزاده غنى وثراء .

وقبل ان يحدد لنا سلامه موسى في « الادب للشعب » منهجا علميا متكاملا .. لم نكن نستطيع ان نفسر تاريخنا الادبي ، تفسيرا موضوعيا سليما .

فالدكتور طه حسين ، يبرر لنا الصور المتكدرة في الشعر الجاهلي ، بتكرار صور البيئة المحلية فقط (١) . ويعلل بعد الادب العباسي عن الالتصاق بالحياة الطبيعية ، بالميل المفرط الى « ليالي الطرب والانس» التي لا تتوفر الا للخاصة (٢)

والعقاد يحلل بلاغة الادب العربي في صدر الاسلام ، لكونه تاثر بلغة القرآن ، وبعض بساطة اسلوب الادب الحديث ، لانه « انساق في تيار عصر السرعة » (٣)

اما سلامه موسى ، فقد لاحظ علاقة حية بين المرحلة التاريخية التي يعيشها الفنان ، وبين ما ينتجه من فن . ولذا تساءل : ما هو الادب العربي القديم ؟ واجاب (ص ٦) : « هو ادب كان يؤلفه الكتاب والشعراء لاجل الخلفاء والامراء والفقهاء . لان جميع هؤلاء كانوا « الدولة » . ولم يكن للشعب وجود في اذهان الكتاب . وكان ادب الخلفاء والامراء نوادر وقصصا واشعارا تسلي وتذهب بالسأم ، اي وسام البطالة .. بطالة المترفين . وكان ادب الخلفاء احيانا تواريخ تؤيد دولتهم ، وتثبت حقوقهم في تبوء الحكم ، وكان ادب الفقهاء شروحا وتعقيبات على الدين والمذاهب . ولما ظهرت الدولة الفاطمية التجارية في مصر، وظهرت الدول المستقلة في المغرب والاندلس ، وكثرت السياحات ، ظهر ادب يكاد يكون شعبيا في قصص الرحلات . بل صار شعبيا خالصا في كتاب الف ليلة وليلة مثلا . ولكن الشعوب كانت لا تزال في التراب . فلم يرتفع هذا الادب عن التراب »

وتوضح لنا هذه الكلمات حقيقة هامة . فالاداب والفنون تتصل ــ بشكل معين ــ بالنظام الاجتماعي القائم . ولكن اذا تساءلنا : ما هي طبيعة هذا الاتصال ؟ ما هي العلاقة بين الفن والمجتمع ؟ لن نجد اجابة

(١)راجع « في الادب الجاهلي » للدكتور طه حسين .

(٢) راجع « حديث الاربعاء » للدكتور طه حسين .

(٣) العقاد : مجلة الشهر عدد ١٥

تفصيلية في « الادب للشعب » لان مؤلفه لم يناقش الامور يوما ، الا على مستوى فكري ، اي انه يرسم التخطيطات العامة ، ويدع التفاصيل الدقيقة للمتخصصين ، ممن يتوفرون على هذا النوع من الدراسات .

غير ان سلامة ، اجاب على اسئلتنا في حدود ذلك الاطار . اي انه اوضح لنا العلاقة بين الفنان ومجتمعه ، حين استطرد في حديثه عن الاديب العربي القديم ، الذي « كان ينشد الحكمة خلفه وليس امامه .. وكان يكتب للخاصة ، بل اخص الخاصة » ، فقد قال (ص ٢٧) « واخص الخاصة هذه كانت تلتفت الى الماضي . لان حقوقها التاريخية كانت تستند الى هذا الماضي ، والى احترام عاداته ولغته . فجذبت اليها الادباء الذين يؤيدون سلطانها »

الحقوق التاريخية ، اذن ، هي الخيط الذي يشد الفنان الى الالتصاق الحميم بالمجتمع .

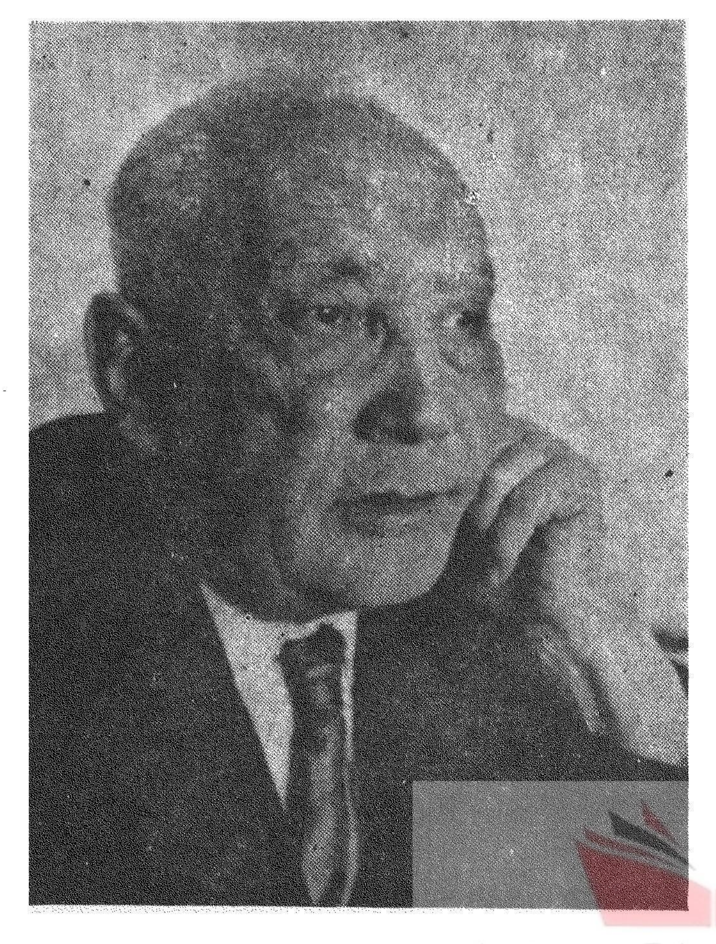
ونحن حين نصمم خريطة مجتمع ما ، نتخيله هرما كاملا ، قاعدته هي النظام الاقتصادي والاجتماعي وظروفه البيئية والتاريخية . وقمته هي المثل الفكرية ، والقيم الروحية ، المنبثقة من صميم الكيان المادي لهذا المجتمع .. اي هذا الهرم .

وليس هذا البناء تكوينا جامدا ، لان التفاعل الدائم بين القاعدة المادية، والقمة الروحية ، يؤثر - بطريقة حية متطورة - في مضمون ذلك المجتمع، وبالتالي في شكله البنائي ، اي ان كافة المثاليات النابعة من قاعدة البنيان الاجتماعي ، تتحول الى « قوة مادية » تؤثر في القاعدة من جديد ، ويتولد عن تفاعلها الدائب المستمر ، خلخلة عميقة في الجذور المادية للمجتمع ، ومن ثم يتبدل التخطيط الاقتصادي والمحتوى التاريخي ، وينسج المضمون الجديد لنفسه شكلا جديدا ، ويفرز المجتمع الوليد قيما فكرية تغاير المثل القديمة . وتعود هذه الفكريات وقاعدتها يتفاعلان من جديد .. وهكذا ، يصبح التطور هو السمة الوحيدة لحركة التاريخ .

والناقد العلمي ، يرصد الدورات التاريخية ، مستكشفا بوعي ، الدور الحي الخلاق الذي اسهم به الفن في حركة التاريخ هذه ، وما اضافه الى التراث الإنساني السابق ، من لبنات غالية .

وكتاب « الادب للشعب » لا يرسم - كما قلت - الخريطة الدقيقة لهذا المنهج - ولكنه يكتفي بالخطوط الرئيسية دون الايغال في الدقائق الصغيرة .

وسلامه موسى - في المستوى الفكري الذي يناقش به الادب - يشك في ان كلمة « الشعب » ذكرت في اي كتاب من كتب الادب العربي القديم بمعناها العصري « ذلك لان كتب الادب العربي هي كتب الملوك والامراء .. وهذه الاجزاء العشرون او اكثر من الاغاني ، هي قصص السادة ملوكا وامراء ، ومن كان يرتفع الى مستواهم من رجال الدين والحرب والسياسة . ولست هنا انسى قيس ولبنى وامثالهما . ولكنهذه القصص لا تبلغ جزءا من مائة من صفحات الادب القديم . ونستطيع ان نقول ، لهذا السبب ، ان الادب القديم كان ملوكيا يحافظ على التقاليد ويؤيد مذهب الدولة ويكره الثورة بل لا يعرفها . ولذلك يحدثنا مؤلف الاغاني عن القصور والخمور والمغنيات والموائد المطهمة ، والفروسية الحربية ، اما الشعب فلا وجود له عنده . بل ماذا اقول ؟ ان في الاغاني شخصية واحدة ، شخصية عظيم من عظماء العرب ، يدعى علي بن احمد، حاول ان يحرر العبيد ويرفعهم الى مقام البشر . ولكن مؤلف الاغاني الذي كان يجهل الاهداف الانسانية والروح الديمقراطية ، كان يصفه



سلامه موسى

بكلمات الخبيث والفاسق واللعين ، اعتبر هذا ايها القارىء . رجل عربي يدعى علي بن احمد هتف به الشرف ، فحمى قلبه وارتفع روحه وصلى وركع للانسانية ، فوجد الانسان يباع بالدرهم والدينار ،ويوضع في السوق ، ويفحص عن اسنانه ، وتدس الايدي بين افخاذه ، ويجر لسانه ، ثم يضربه البائع بالعصا ، فينطلق وهو عريان يعدو للامتحان . ثم يقدر ثمنه فيباع ويسلم سلعة للمشتري. رأى علي بن احمد هذا الهوان فقال : هذا لن يكون ! ثم جمع العبيد في البصرة ، وثار على الخليفة العباسي يريد تغيير هذا المجتمع . ولكن الخليفة هزمه بجيوشه التركية الاجنبية . ومثل هذا العظيم ، هذا الانسان الكمالي ، هذا الرائد للحرية ، لم يجد من اديب «الاغاني» سوى انه خبيث وفاسق وكافر ولعين » (١)

وليس تعبير « الادب الملوكي » تعبيرا بلاغيا ، وانما هو يحمل في طياته - كما يقول المؤلف - معنى هاما جديرا بالتامل .

■ فادب الملوك يحتاج الى ان تكتب عن التاريخ القديم ، لانك بهذا الموضوع تفر من الواقع الحاضر ، وتسلي وتسامر .

■ وادب الملوك ، هو ان تلغي دعاة الافكار الجديدة لانهم يقلقون الشعب في استقراره ، وهو استقرار الفقر والجهل والجوع .

■ وادب الملوك ، هو ان تلغي الثورة ، وتدعو الى التقاليد،لان التقاليد لا تتفق مع الثورات .

■ التاريخ القديم ، والتقاليد ، والعقائد ، تؤيد النظام الملوكي ،فايما

(١) ص ٤٢ - الادب للشعب -

كاتب يخرج عليها انما يخرج على العرش . وهو لذلك يجب ان يطارد فمن دعا الى التيسير في اللغة للوصول الى العامة ، يعد عدوا . ومن دعا الى تطور ، يعد عدوا . وكل هذا معقول عند الملوك ، ومن التف حولهم (ص ٤٥)

وسلامه موسى ، يرى في الادب ولاء للانسان وليس ولاء للتقاليد (ص ٣٨) ومن هنا كانت ثورته على ادبائنا المحدثين الذين ياخذون باساليب القدماء .

والحق ان الاديب لا يحيا على هامش المجتمع ، وانما هو ينمو ويتنفس ويعيش في قلب المجتمع ، ومن ثم : اصبح تأثيره مباشرا في تقدم هذا المجتمع او انتكاسه .

والفنان الصادق ، هو الذي تتيح له ظروفه الموضوعية ، بصيرة علمية، يضع بواسطتها يده على نواميس تطور الحياة والكون والانسان . وبعد ان يعي حقيقة الصراعات المتباينة داخل اسوار مجتمعه ، يتخذ لنفسه موقفا محددا حاسما وسط هذا الصراع . فهو ، ما ان يقف الى جانب الاطوار المستقبله في تاريخ البشر ، ويلتزم حينئذ بمسئولية القلم الذي يمسكه ، ويسهم في اشرف معركة انسانية ، مهما اصابه من ضرر ، واما ان يتخذ موقفا هروبيا ، بان يزعم الحياد والحرية ، او يحدد لنفسه موقفا رجعيا ، للمحافظة على « حقوقه التاريخية » .

وهو في الحالة الاولى ، لا يتمسك باساليب القدامى وطرق تفكيرهم، لان تلك الاساليب كانت تخدم مجتمعا لا يتشابه مع مجتمعنا . وفي الحالة الثانية ،يحيط فنه بضبابية معتمة ، لا تنير طريقا ، بل تدعنا نتعثر بلا امل . وفي الحالة الاخيرة ، يتمسك بمحاكاة القديم في القالب والمحتوى ، لان التشبه بالمجتمعات المتخلفة ــ في اساليب حياتها وتفكيرها ــ هو « تجميد » للانظمة الرجعية القائمة في المجتمعات . ثم اننا « يجب ان نذكر انه ما من ابتكار في الادب ، الا ويعود الى خلاف القدماء ، واولئك الذين يكبرون من شأن القدماءينسون انه كان لهؤلاء القدماء قدماء اخرون انكروهم وخالفوهم وشقوا اساليب جديدة في التعبير والتفكير » (١)

اي ان اسلافنا من بناة الفكر العربي القديم ، حققوا خطوات تقدمية في مراحلهم التاريخية . والوقوف عند اعتابهم وحسب ، هو الجمود والخلفية . لان الماضي ، مهما كان مجيدا ، لا يحمل بشائر التفاؤل والحياة، وانما هو يخدر حواسنا عن الاعتراف بالواقع المر الذي نعانيه .

والاعتراف بهذا الواقع ، يجرنا غالبا الى التفكير في تغييره . بل هذه هي مهمة الادب الانساني . (٢) .

واذا كان سلامه موسى يؤكد اننا نهرع الى المثاليات القديمة : « عندما تخمد الحياه او تهمد في الشعب ، فهي تثير ذكرياته في اشتياق ، كما لو كان يشتاق الى الموت . لان في الماضي كثيرا من سمات الموت. بلهو موت . وهذا الماضي يشيع في نفوس ابنائه عقائد في حين ان المستقبل يطالب بالمنطق والعقل والتزام الحقائق » (ص ٨) .

اذا كان هذا صحيحا ، فانه يصبح صحيحا لدرجة اكبر في تطبيقه على الفكر الرومانسي . لان السبب الرئيسي الاولفي تشبث ادبائنا بتقاليد الادب القديم ، هو « حقوقهم التاريخية » التي اشار اليها المؤلف . فليست فنونهم وآدابهم الا دفاعا فكريا ، او تعبيرا روحيا عن هذه الحقوق التي يمكن تسميتها (بالمصلحة الطبقية) . ذلك ان الادب القديم ، هو الفن الاقطاعي ، الذي صور المجتمعات العربية في ظل الاقطاع . ولا يمكن لاديب صادق ان يتخذ من هذا الفن نموذجا له ، الا اذا راى ذيوعه « تحصينا » لكيانه الاجتماعي .

فاللوم ، اذن ، لا نوجهه الى ادبائنا القدامى ، الذين اخلصوا في التعبير عن مجتمعاتهم ، وان كانت قلتهم النادرة هي التي اخلصت بشكل ايجابي فعال ــ وانما اللوم الحقيقي يوجه الى ادبائنا المعاصرين ، الذين يعودون بنا الى الخلف . رغم ان الادباء القدماء انفسهم لم ينظروا الى الوراء .

ومن يتأمل ابن سينا ، وأبا العلاء ، وابن رشد ، وابن حزم ، وغيرهم من مفكري وادباء العرب ، يجد ان ابصارهم قد جابت افاقا بعيدة المدى، ابعد كثيرا من افاق مفكرينا وادبائنا المعاصرين ، حتى ان سلامه يقول (ص ٣٢) : « انني أحس اني اقرب الى المتنبي مني الى شوقي . لانني اجد في الاول صورة الكفاح بين العرب والرومان في عشرات من قصائده الرائعة . اي ان له قيمة تاريخية عندي ابصر بها حركة التاريخ . اما بعد هذا ، فهو وشوقي سواء في نظم الاكاذيب التي كان اولهما يمدحبها سيف الدولة ، والثاني الخديو عباس » .

هل معنى ذلك ، انه يمكن الاستغناء عن تراثنا القديم ؟

وللاجابة على هذا السؤال ، يجب ان نحدد المعنى العلمي لكلمة الثقافة . « اذ لااعتقد ان احدا يقول بأنها « حصيلة معارفنا العصرية » لان هذه المعارف ليست وليدة اليوم . وانما هي نتاج القرون والاجيال . وثقافتنا المعاصرة هي طور جديد فحسب ، من اطوار نمو تاريخنا الثقافي .

ومن نقطة الانطلاق هذه ، نحس « بالضرورة الحتمية » لدراسة التراث القديم .

* فان معالم هذا التراث في اذهاننا مشوشة بفضل المناهج غير العلمية ، التي سيطرت على مؤرخيه . ومن ثم ، فدراسة تراثنا بمنهج علمي ، هي عملية « غربلة » تتيح لنا نتيجتها صورة حقيقية لهذا التراث.

* ثم اننا نفيد من دراسة تاريخنا الثقافي ، ان نضع ايدينا على قوانين تطور هذا التاريخ ، ونواميس العلاقة بين ثقافتنا القديمة ، والمجتمعات التي عبرت عنها . واذا امسكنا بمفاتيح تطورنا ، لاريب اننا نستطيع التقدم الى امام بوعي . بعد ان كنا نسير بطريقة عفوية وعيوننا بعيدة عن منظار علمي .

وهكذا يبدو لنا واضحا ، اهمية « الدراسة » الواعية المستنيرة لادبنا القديم . واقول كلمة « الدراسة » للمرة المائة . لانها تعني شيئا اخر تماما غير « المحاكاة » و « التقليد » وما يفعله سائر ادبائنا « المحافظين » ولذا وصف سلامه الثقافة القديمة (ص ١٦) بانها « تراث بشري عظيم لايهمله الا مغفل . ولكن يجب ان نميز بين قديم وقديم . ذلك ان هناك قدماء ، قد يفصل بيننا وبينهم الف سنة او ثلاثة الاف سنة . ولكنهم قدماء معاصرون . اي يشتغلون بهمومنا البشرية او الاجتماعية العصرية »

وهؤلاء يختلفون ــ قطعا ــ عن الذين يغفلون التطور البشري ، وينهجون سبلا قديمة ، تغمض بصائر الناس عن حياتهم وواقعهم . وحين يدعونا مؤلف « الادب للشعب » الا نحاكي الادب العربي القديم ، فلان هناك ذهنا اجتماعيا وذهنا انفراديا ، وانه تغلب على المجتمع العربي في السياسة والادب تلك النزعة الانفرادية ، دون النزعة الاجتماعية (ص ٨٢) ونحن الان نقيم صرح مجتمع جديد لايقوم على « الفردية »

---

(١) سلامه موسى « الادب للشعب » (ص ٨) .

(٢) الاديب يجب ان يطربنا ، ولكنه يجب ان يغيرنا ، سلامه موسى (ص ٢٣)

لان التكوين الجذري لمجتمعنا قد تغير من النظام الاقطاعي الى مرحلة اكثر تقدما . ولا بد للفن - اذا اراد ان يحتفظ بدوره القيادي في حياة الناس - من ان يصور هذه المرحلة التقدمية في خط سيرها الامامي . اي نحو المثل والقيم الفكرية ، التي تبعد بنا عن النوازع الفردية التي تنبعث من صميم البنيان الاقتصادي والاجتماعي ، للنظام الاقطاعي القديم .

وفي نقاط التحول دائما ، تصبح النزعتان واضحتين - كما يقول سلامه . (ص ٣٨) - في السياسة والادب على حد سواء « فتشرشل زعيم اليمينيين في المحافظين يمثل النزعة الانفرادية في السياسة الانجليزية . في حين ان بيفان ، زعيم اليساريين في حزب العمال ، يمثل الى حد ما ، النزعة الاجتماعية ، ولذا كان تشرشل - الاديب - قيثارا يتغنى بامجاد « الامبراطورية » القديمة ، كما كان الشاعر «رديارد كبلنج» مزمارا في اعناق الضباط الانجليز وهم يتوغلون في الهند وجنوب افريقيا » .

وهكذا لانستطيع « الفصل الحاسم » بين الفن والمجتمع . وهكذا ايضا لانستطيع ان نقف « محايدين » ازاء « الماضي حين ينشب اظافره في حاضرنا » (ص ٩٠)

وربما برزت الان جبهتان متحدتان في اهدافها الرجعية :

* محاولة بعث الافكار القديمة الضارة بمجتمعنا الجديد في اثواب « التجديد » و « الاحياء » .

* الاصرار من جانب معاصرينا على النظرة القديمة للادب .

ففي الجبهة الاولى نظلم بلا شك ابا نواس - مثلا - حين نزن ادبه بالموازين العصرية . ولكن مادامت اشعاره تطبع وتقرأ في عصرنا . وقد يقرأها شبابنا وفتياتنا ، فان من حقنا ان نزنه بالموازين العصرية . ثم يقول سلامه موسى (ص ٦٨) : « اننا يجب ان ندرس الاداب العربية القديمة . ولكن ، لا لنقتدي بها في اهدافها واساليبها ، وانما لنعرف منها تاريخنا الثقافي » .

اما في الجبهة الثانية ، فان دورها يصبح اشد خطرا من الاولى ، لان روادها احياء بيننا يرزقون. وهم لا يكتبون ادبهم لسكان الكواكب الاخرى. بل هم يطعموننا فكرياتهم ، ويغذوننا مثالياتهم ، بطريق مباشر ، دون لف او التواء .

وآداب العالم كلها ، تشهد بان الذين اتخذوا من النظرة القديمة للادب، منهجا للحياة ، ما كانوا يطبقونها على الفن فحسب ، وانما على شئون مجتمعهم ايضا . اي اننا لا نستطيع ان نفصل بين الفنان والانسان في الاديب الواحد .

فمكسيم جوركي ، مثلا ، لم يكن في مقدوره ان يكتب روائعه - حسب نظرة ما - ويمضي في معترك الحياة ، حسب نظرة اخرى. هناك «التحام» في حياة الاديب بين « الفكرة » والعمل ومادة « الالتحام » بين الفكرة والعمل هي « المنهج » .

وهل يمكن الفصل بين نظرة الشاعر الانجليزي المعاصر « ت.س. اليوت » للحياة ومنهجه في الفن ؟ ايمكن ان تقوم بنفس الامر معزميلين « د.هـ. لورنس » و « الدوس هكسلي » لقد احسوا بالحضارة العلمية على نحو غير علمي . فقد (رأوا) فيها خطرا على الانسان ، ومن ثم لم (يفعلوا) سوى الهروب من هذه الحضارة ! لم يتكلفوا عناء البحث الجاد في حقيقة « الازمة » التي يعيشونها.

ولم يفهموا بالتالي ان (النظام الاقتصادي والاجتماعي) هو المسئول الاول في هذه القضية وليست الحضارة والصناعة والعلم ، الا متهمين ابرياء .

فاذا جاءت اشعار اليوت واعمال لورنس وهكسلي تصور هذا«الهروب» ... أفلا نؤمن بان منهجنا واحد ، اذا (نظرنا) الى الادب ، او (عملنا) في المجتمع ؟

وهل يمكن - كما يتساءل سلامه (ص ١٨) - ان نكتشف تفسيرا للدواوين (١) « الفاروقية» التي توجت ذلك الطاغية بصفات الالوهية حينا وبانه « فيلسوف (٢) حينا اخر الا بوحدة المنهج في نظرتهما للفن والحياة .

الحق انه اصبح في مقدورنا « بما ثقفنا من المعارف السيكلوجية ، نعرف انه حين يصدر الاديب كتابا للشعب فانما يصور نفسه » (ص ١٠) ولكن الثقافة السيكلوجية وحدها لا تحتم علينا الربط بين الفنان وحياته الفردية والاجتماعية .

ويخيل الي ان (الخطأ) في التطبيق عند سلامه موسى ، بصدد هذه النقطة ، جاء نتيجة حتمية لتاثره - لفترة ما - بفرويد.

اذ نجده (ص ١٧٠ - ١٧١) يبرر الاتجاه الايديولوجي للكاتب بما حفرته الاحداث الطفولية الاولى في وجدانه . وحقا ، هو لا ينكر الظروف الموضوعية التي اسهمت في خلق هذه الاحداث . ولكن هذا التفسير يعتوره القصور ، اذا عدنا الى قواعد منهجنا العلمي ، وعرفنا طبيعة العلاقة بين الفنان والمجتمع . فاذا بها علاقة حية تتناسب طرديا مع تطور الفنان اجتماعيا وثقافيا في موازاة التطور التاريخي لمجتمعه . فهو اذا كان ينتمي الى الطبقة الاقطاعية مثلا - وانتوى مرافقة طبقة اخرى في كفاحها . لا يجب ان نعود الى الجذور السيكلوجية الاولى في حياته ، لان التمرد الطفولي والشذوذ عن الجو العام في لاسرة ، او تلقيه العنت والاذلال في سن مبكرة ، لا يخلق بالضرورة مفكرا يساريا ، لانه - في امكانه - ان يخلق مجرما عبقريا . واذن فلا مجال للنظرة الفرويدية ، هنا.

اما تبرير النظرة العلمية لهذا الموقف اليساري ، لكاتب من ابناء الطبقات الكبيرة فان الفهم العميق للمنهج العلمي ذاته ، هو الذي آثره

(١) **على الجارم** (ص ١٠٠): حينما انتهز فضيحة هروب الجمل الى فاروق ليغيثه من الذبح فقال :

عابدين كعبة مصر وركنها حرم : للخائفين اذا خطب بهم نزلا
تهدى اليها وفود الارض ضارعة : ترجو بها الامن او تزجى بها املا
امر وعاه بنو الانسان وحدهم : فمن بربك قل لي اخبر الجملا ؟

(٢) **العقاد** (ص ١٠١) : ووجد عباس العقاد الذي يقول فيه :

« انني لم اسعد من قبل بفرصة كهذه الفرصة الواسعة لاستجلاء طلعة المليك عن كثب والاصغاء الى جلالته على انفراد في جو لا مثيل له بين اجواء اللقاء والحديث .. لانه جو الملك والديمقراطية ممثلين في شخصه الكريم اجمل تمثيل ، مجتمعين في سماعه وكلماته وارشاداته احسن اجتماع .

لقد سمعت في هذا الحديث الواحد كلام فيلسوف، وكلام وطني غيور. كلام محدث ظريف . وطاف بخاطري ذكر الايمان وذكر الوطن.. »

ثم ينتقل الى مدح فاروق فيقول :

وما اتخذت غير فاروقها عمادا يحاط وركنا يؤم
ولا عرفت مثله في العلا صديقا يشاركها في القسم
فدته البلاد وفود البلاد بغالي التراث وغالي القيم
ملك يلوذ به عرشه وكم ملك بالعروش اعتصم

ذلك الاديب ، حين رصد بوعي حركة التاريخ ، ورأى من الخير ان يقف الى جانب الطبقة المستقبلية . اما « رؤية الخير » هذه فلا تأتي بهذا جزافا ، وانما هي تعبير حاد عن (مدى اقتناع الاديب بالمنهج العلمي).

ولو تخيلنا ، اديبا من ابناء الطبقة الارستقراطية . قد اتصفت حياته في الصغر بشتى الوان العذاب ، ولم يلتق طيلة حياته بنظرة علمية تتحدث عن التضامن الكامن في اعماق المجتمع الطبقي ، وان التطورالحتمي للتاريخ يؤكد هذا التناقض كأمر طبيعي للوصول الى شكل جديد للمجتمع - لو انه لم يلتق بمثل هذه النظرية .... اما كان يتجه في حدود مصلحته الطبقية ، وغاية الامر انه يكون ثائرا - في سلبية مطلقة - على الحواجز النفسية التي اعاقت طفولته يوما ؟

بل - ونذهب الى ابعد مدى ممكن في القضية - لو ان هذا الاديب الارستقراطي ، التقى فعلا بهذه النظرية ، ولم يقتنع بها - تبعا لمستواه الثقافي واستعداده الذهني - او انه - وما زلنا نذهب الى بعيد - راى فيها خطرا يحدق بمستقبله الاجتماعي ... الا يقف الى جانب طبقته ضد المصلحة التاريخية للطبقات الاخرى ... اي ضد التطور ، وبجانب الجمود ؟ الا يحدث ان تتحول « منغصات » طفولته الى (طاقة هدم) يعوض بها آلام الصبا ، بان يحقق انتصارات اخرى .. ويرى في كيانه الاقتصادي حصنا يقيه الهزيمة ؟

الا يمكن حدوث هذا كله ؟

لا يمكن ، اذن ، ان تكون « الكروب » النفسية الاولى في نفس الاديب ، هي التي تحدد موقفه الاجتماعي . وانما هو « الاقتناع الكامل» بتطور التاريخ والمجتمع الانساني ، هو الذي « يزحزح » فنانا من طبقته العالية ، الى الكفاح من اجل تطور تاريخي جديد . ولما كان هذا«الاقتناع» نادرا ، فانه يندر ان نجد اديبا « يضحي » بالاقطاعيات والعزب ، من اجل مستقبل البشر .

ونفس « النظرة النفسية » الخاطئة ، تنطبق على ادباء الطبقات الشعبية ، اذ ليس من الضروري ان يقف الاديب - الذي ينتمي الى طبقة متواضعة - الى جانب طبقته . لان ظروفا موضوعية جعلته ينساق في تيار « الرجعية » . واذا به - دون وعي - يساند طبقة اخرى ضد طبقته . ومن البديهي انه ليس مجرد التعبير عن الطبقة الشعبية ، يجعل من الاديب شعبيا ، وانما « طريقة التعبير » او « المنهج » الذي نظر به الفنان الى هذه الطبقة . وربما يتخصص احد الادباء في تصوير الطبقة الاقطاعية . ولكن منهجه في التصوير ، ونظرته في التعبير ، لا تدع منه اديبا « اقطاعيا » وانما تحوله الى فنان « انساني » يتخذ موقفه الى جانب مستقبل الانسان .

والادباء العرب « المحافظون » لا يعنيهم مستقبل الانسان العربي ، وانما يعنيهم مستقبلهم « الطبقي » .

وحين قال المؤلف (ص ١٢٦) ان الانفرادية السادية هي التي عمل بها هتلر في سجونه مع كل من خالفه بالتعذيب . والانفرادية السادية ايضا هي التي تبعث هذا الروح العدواني وتبصق على وجه الزنجي كانه ليس انسانا » كان هذا التعبير امتدادا للمنهج الفرويدي الخاطىء ، لان افران هتلر التي استضاف داخلها البشر ، كانت تعبيرا للقيم النازية ، التي كانت بدورها تعبيرا عن النظام الاجتماعي في الامبراطورية الالمانية. اما احتقار الاستعمار الامريكي والاوربي للزنوج ، فليس قائما على « اللون الاسود » وانما هي طبيعة الاستعمار الذي يعتبر قمة النظام الرأسمالي في الاستثمار والاحتكار ، والسياط على ظهر الافريقي في جنوب القارة السوداء او القارة لجديدة ، هي نفس السياط التي تتلقاها ظهور « العمال» البيض في امريكا وبريطانيا . والفرق بينهما درجي فحسب .

★

ولا شك ان المنهج - اي منهج - لا يتكامل الا بممارسة التطبيق الدائب المستمر . وما « الذيول النفسية » التي لحقت منهج سلامه موسى ، الا تعبير عن مرحلة الانتقال التي يعانيها منهجنا في الحياة والمجتمع . والقيمة الثورية في منهج « الادب للشعب » تكمن في الخطوط الرئيسية كما سبق ان ذكرت . وهي كونها اشارات البدء للمضي في طريق شاق طويل مليء بالاشواك .

والخط الرئيسي الثاني في هذا المنهج المضيء ، هو تفسيره للحركة الرومانسية ، التي لم تكن مجرد « رد فعل » للحركة الكلامية ، لان«ردود الافعال » السيكولوجية لا تخلق مرحلة جديدة من مراحل التطورالاجتماعي او الثقافي .

والحركة الرومانسية لم تقتصر على الاداب والفنون . وانما كانت المجتمعات نفسها (تغلي) بحركة رومانسية ، بمعنى انها كانت تنتقل من مظاهر الحكم الاقطاعي ، الى النظام الرأسمالي الناشيء . «فالحرية الفردية » ، و « الطموح » و « الاحلام » وغيرها من شعارات المجتمع الجديد ، وهي بعينها مكونات الفن الرومانسي .

والرومانسية لذلك - كالكلاسية - ليست مذهبا معينا يمكن اتباعه في القرن العشرين مثلا ، وانما هي « نظرة » للمجتمع والاشياء من حولنا في مرحلة معينة من تاريخنا ، وهي نظرة « ثورية » في حينها ، بمعنى انها كانت صادقة في تصويرها لذلك المجتمع الجديد . وليس علميا ، اذن ، ان يتبجح فنان ما ، اذا رأينا انتاجه غارقا في الاحلام

والورود الزرقاء ، بان يحتمي خلف اسوار الرومانسية ، لانه في هذه الحال ليس « رومانسيا » تماما – وانما هو (كلاسي) اذا شئنا الدقة في التعبير ، بمعنى انه ينشد العودة الى الوراء ، فهو (رجعي) لم يتطور ، وبالتالي ، لم يطورنا نحن معه .

ولذا قال سلامه موسى (ص ١٤٥) « نحن نجد في هذه المائة من السنين التي تقع بين منتصف القرن الثامن والتاسع عشر احداثا يحدث كل منها في ميدان يوهمنا البعد عن الاخر . ولكن عند التامل يتضح لنا انه مرتبط به • ففي الميدان السياسي نجد طرد الملوك والطغاة وتحطيم العروش وايجاد النظم الجمهورية والبرلمانات الشعبية ، بل نجد الاحزاب المصرية والحركات الشعبية . كما نجد انهيار النظم الاقطاعية في اوروبا . ثم في الميدان الادبي نجد انه بزوال الاقطاعية والملوك والامراء ، وبزوال العقل المريض الذي يلتزم التقاليد ، وايغابظهور طبقة جديدة هي الطبقة المتوسطة القارئة ، بزوال هؤلاء نجد النزعة الرومانسية في الادب » .

اي ان الفنان يخضع لشكل « ماض » من التعبير الفني ، اذا تمنى – بقصد او بغير قصد – بقاء الشكل الاجتماعي لهذا الماضي . ولذااسميناها (امنية رجعية) لانها تعتمد اساسا على « التكوين الجذري » للفنان . وفي صميم هذا التكوين تدخل اعتبارات مصالحه الطبقية الخاصة .

ففي نقطة التحول التي اجتازها الادب المصري الحديث ، يسجل المؤلف ملاحظتين (٧٤) : اولاهما : انه قد طبع ونشر لابي نواس مايزيد على سبعة كتب ، استطيع ان اسميها كلها مؤلفات اقطاعية . فقد كان ابو نواس يعيش في مجتمع اقطاعي ، ياخذ بميزانه الاخلاقي وينشد فيه، والذين احيوا ذكرى هذه المؤلفات ، نسوا – او لم ينسوا – انهم يحيون تلك القيم . والملاحظة الثانية لسلامه هي : تلك القصص الجديدة التي يكتبها الادباء الشبان في حرارة الحب للشعب ، اذ انهم أثروا التفاهم معه بلغته ، وحينئذ استهدفوا آماله ، وغايات مستقبله . والتناقض بين الظاهرتين في غير حاجة الى الدهشة اذا كنا (٧٥) نعيش في عصر القلق والتردد بين حياتين واسلوبين . ذلك اننا ننتقل من القيم الاقطاعية الريفية في نظام العائلة ، والاخلاق العامة وفلسفة الحياة واسلوب العيش ، الى القيم المدنية الصناعية في كل هذه الاشياء . ومع اننا نهفو الى ماضينا الاقطاعي ونحب ان نستبقي عاداتنا العاطفية ، والذهنية القديمة ، فاننا نرنو الى مستقبلنا الصناعي وننشد اهدافه ، وننزل مضطرين على قوانين العلم وحقائقه ، والعلم هو لغة الصناعة • ذلك اننا متفقون باننا لن نحقق الرخاء لبلادنا والاستقلال لوطننا والفهم للحياة الا بالعلم » (١)

واذا كان ادبنا المصري الحديث ، لما يزل مهتما – اشد الاهتمام – بالطبقة المتوسطة ، فلان هذا تطور طبيعي يساير تاريخنا . وان كانت العناية بطبقة ما ، ليست مجردة من نظرة الكاتب لها . اي ان المهم هو منهج الكاتب في تناول الطبقة الاجتماعية نفسها . ولو تاملنا ظروفنا لوعينا الحوائل التي تقف بين الطبقة العاملة مثلا وبين التعبير عن غدها . فاقتصار الثقافة على الطبقة الثرية ، كان عاملا حاسما في تأخر التعبير الكفاحي للطبقة العاملة . ولكنها بدأت – بعد دخول مجتمعنا في مرحلة تقدمية من تاريخه – تعوض مافاتها ، وتستعد لجولتها القادمة .

(١) « اعتقد ان اعظم ماسوف يدل على التغيير في مجتمعنا ان تتغير اغانيه وموسيقاه وادبه » س.م. (١٢١)

ونهضة الادب لاتعني شيئا اخر سوى نهضة الحياة ، اي نهوض الانسان والمجتمع . ينهض بالثورة . وينهض بالعلم . وينهض بالصناعة، وينهض بالثقافة ، وينهض بالحرية » (ص ١٠) .

*

كيف يصبح ادبنا انسانيا ، وينشد هذه الاهداف ؟ يعالج الادب للشعب هذه النقطة ، بتعريف الادب الانساني اولا . ولقد عشنا زمنا نخلط بين « العالمية » و « الانسانية » في الادب . والحق ان كلمتي « الادب العالمي » لا تعنيان شيئا محددا يمكن مناقشته على مستوى علمي . اما ان يكون الادب انسانيا ، فهي قضية جديرة بالتأمل والدراسة .

ولاول وهلة ، يمكن القول ، بان الفنون الانسانية ، هي – قطعا – التي توجه عنايتها وجهودها الى « الانسان » وحده . وحين قال سلامهموسى (ص ١٩١) « الولاء للبشر هو مذهب الاديب » لم يكن قد اتى بحل حاسم للمشكلة ، اذلامفرمن مواجهة سؤال هام : من هو الانسان ؟ ولا بد من الاجابة على هذا السؤال ، قبل ان نتصدى للحديث عنالادبالانساني.

ومن قبيل التكرار – المهم – ان نقول ، بان نظرة الانسان « للانسان » تتغير دوما في محاذاة التقدم الذهني والتكنيكي للبشر . اي ان الاديب في المجتمع الاقطاعي كان يبصر « الانسان » على نحو يغاير نظرة الفنان « البرجوازي » . والمفكر الاشتراكي يتناول القضية حسب « مفهوم » يتباين معهما تمام التباين .

ولكنا حينما نسال – في النصف الثاني من القرن العشرين – عن ماهية الانسان وعلاقته بالاديب ، فنحن لانحيط الفنان باسوار علم الجغرافيا ، وانما نحيطه في اصرار – او هذا مايجب – باسوار العلم فقط !! أي انه لايعنينا الوجود المكاني للكاتب ، بل يعنينا في المقام الاول « وجوده الانساني » : اين هو من نظرة « العلم » للانسان ؟ هل هو قريب تماما منهذهالنظرة ، ام ان ظروفه الجغرافية والتاريخية حالت دون ذلك ؟

ان الفرق الوحيد بين الفنان والفرد العادي ، ان الفرد العادي ، قد يحس بازمة ، دون ان يملك واسطة التعبير عن هذه الازمة . اما الفنان فهو اللسان الرائع الذي القيت على عاتقه هذه المهمة .

يقول سلامه (ص١٧) « ليس الادب الانساني ، ان نؤلف القصص ونكتب القصائد كي نبعث في الاثرياء العطف على الفقراء والتصدق عليهم ، وانما هو ان ننظر بالعين الفنية للمشكلات الانسانية والاجتماعية. ولكن من موقف الشعب نفسه ، اي من الموقف الانساني ، وليس من موقف الاثرياء . فلا نطلب التصدق . وانما نكافح للعدل والمساواة »

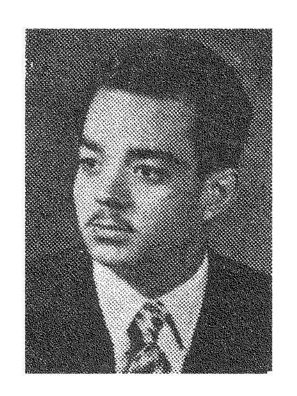
« والصدقة » كانت فهما (انسانيا) لطبيعة العلاقة بين الافراد في ظل المجتمعات الاقطاعية .

وقد صلحت « انسانية الصدقة » هذه في التعبير عن تلك المجتمعات. اما نحن الذين عايشنا تطورا جذريا في مجتمعنا ، فان هذه «الانسانية» تصبح غير ذات موضوع ، لو بقينا في تطبيقها . اذ نبقى حينذاك في اسر المفاهيم الاقطاعية ، وقيودها الاجتماعية .

« والمنحة » التي كان « يهبها » الاقطاعي لعبيده الارقاء ، يجب ان تسمو الىمستوى «الحق» الذي يجب ان «يكافح» هؤلاء العبيد لاسترداده .

وهكذا – حتى الكلمات – تتغير حين يتبدل المفهوم القديم للانسانية . ويصبح الادب الانساني (ص ١٥) « هو ان نحس احساس الشعب ، ونكافح كفاحه ونتكلم بلغته ، ونصرخ صراخه ، ولا نلقى عليه كلمات

– التتمة على الصفحة ٨٥ –



الجرحُ الخالِد

« في ذكرى معركة بور سعيد الخالدة »

لم يكن الا خيالا عابرا مر ببابي
لم يكن شيئا سوى قصف شبابي
وحكايات قلوب عشقت
رشفت من منبع الحب لتحيا
ولحون عزفتها في حنايا قريتي ايد نحيله
لتزيد الليل والاهات انغاما جميله
ومواويل قديمه
عن دموع الحلوة الولهى نعيمه
وحبيب نافر الصدر دعوناه حسن
لم يكن ... ثم اتيت
موكبا يصدح بالاحلام والحب ببيتي
القا اجج في نفسي زيتي
عندها هدمت اسوار خيالي
ثم اغرقت ببحر هادر الموج حيالي
لم يكن يخطر يا حب ببالي
دفنت وجنتك الحرى شفاهي في سؤال
يا ترى في اي شيء كانت العين تحدق
ليلنا ساج .. وعينانا باعماق الاماني الطوال
يا ترى ماذا ؟ تصرين .. وكفكفت دموعا
لم تكن الا لهيبا دافقا يحرق قلبي
لم تكن الا شتاء عاصفا يجتاح حبي
ومضيت .. الموكب الصداح يخبو .. يتلاشى
وجناز يحمل القلبين في الصمت يسير
يا ترى ماذا ؟ واطرقت وناديت ابي !!
وانا ثاو باعماق الهوى .. اني غبي !!
وتهاويت على جرح قديم في جبيني
يحمل الثورة والاصرار والعزم على مر سنيني
ثم قبلت وقبلت .. كفي

ادركت عيني وقلبي ما بعينك
جرحي الغائر قد اذكى حنينك
فتذكرت اباك
كان قلبا ..
كان حبا ..
كان كالصمت اله
كان جبارا عتيا
كان سرا في تجاويف الحياه
ثم مات ..
تاركا في جنبك المحموم اصداء الرعود
وبقايا لوعود
وابتسامات على الثغر توارت لن تعود
وحكايات الردى في بور سعيد
فدعيني
فانا أعشق في الظلمة اصداء شجوني
اتروى في حنيني
يبعث الجرح بعينيَّ الى الدنيا الالق
وانا خلف هضاب الظلمة الدكناء ..
أمضي ... واشق
فانا باق لاشهد
واوافيكم بانباء اقاصيص البطولة
كيف اشعلنا على الافاق في الليل اللهب
ومضينا السيل والاعصار – كنا – والغضب
لنرد الكيد عن دنيا هوانا واما نينا ..
واشراق اغانينا بامجاد العرب

القاهرة — **عبد العزيز النعماني**

المثقفون والمجتمع العربي

بقلم علي بدور



شغلت قضية المثقفين والمجتمع الجديد ، اذهان المثقفين انفسهم منذ اقدم العصور . فمنذ حضارة اليونان والرومان والعرب ، وحتى عصر النهضة في اوروبا ، والعصر الحديث ، لاتزال قضية الثقافة تتوالى فصولا . فمن اين جاءت هذه الطفرة الانسانية التي لم يقدر لها ان تنتهي الى سكينة وقرار ؟ لعلها نزوع الانسان الدائم عن واقع يخاله مريضا ، والعودة اليه باسلحة الانقاذ ، وكانت هذه الاسلحة متنوعة : مرة كانت سيفا ومرة قلما ... مرة قنبلة ومرة ضمادا . ولكن الثقافة عموما ، كانت تخلق للمجتمعات اساتذة ونقادا يوجهون سفن المجتمع فلا تطمرها جبال الجليد العائمة في البحار الواسعة ، واحيانا كان هؤلاء الاساتذة والنقاد يتخلون عن دور القيادة والتوجيه ليتخذوا دور من يؤرخ الكارثة .وقد مر على البشرية عهد كان الكتاب يبرون اقلامهم بسيوف الطغاة ، ثم جاء عهد ازدهر فيه الفكر واضحت محافظ الكتب قرابا لهذه السيوف النزقة لاتشهر الا بامرها – واضحت الاقلام مخلصة لواقعها ومستقبلها وستبقى كذلك مادامت تغمس بدم القلب النقي . والانسان وهو في اوج قلقه الفكري واصطراعه لبناء الحضارة ، لايزال على ثقة بان الفكر وحده ، سوف ينقذه من وهدة الهمجية التي تردى فيها . والعالم الذي كان عبارة عن قبائل اضحى دولا .. والدول التي كانت في ايام من يقول : ((انا الدولة)) ، اضحت اليوم تاخذ طريق الاتجاهات الفكرية الجماعية التي تمثل تطور الحضارة الانسانية والمجتمع البشري . لقد كان العالم مثل علبة دبابيس متناثرة ، ولكن الاتجاهات التي تمثل دور قطع المغناطيس ، قد جذبت اليها ماتناثر من دول وشعوب وامم . وكان ان شهدنا بعد الحرب العالمية الثانية – ولاول مرة في التاريخ البشري – تكتلات مذهبية . فمن كتلة غربية الى كتلة شرقية ، الى كتل اخرى تنادي بالحياد عن هاتين الكتلتين المتصارعتين . والعالم بعد ان كان مجهولا اضحى معلوما ، الى درجة يستطاع فيها ارسال التحيات العطرة ملفوفة في جيب صاروخ بين موسكو وواشنطن فلا تخطىء التحية طريقها رغم بعد المسافة . فاين نحن من هذا كله .. اين الثقافة العربية والمثقفون العرب بناة المجتمع العربي الجديد ، واين مجتمعنا الجديد على التخصيص ؟

ليست الثقافة شيئا منفصلا عن الحياة . انها اداة فهم الحياة الحقة . وبدونها يستوى الجماد والانسان . وقد شغلت الثقافة الامم ، قديما وحديثا . اتكون موجهة ؟ ام تكون حرة ؟ ام بين بين ؟ لعلها وهي موجهة اشبه ماتكون بالطعام المحفوظ الذي طال عليه الامد . اما ان تكون حرة بلا ضابط ولا رقيب ، فهي بذلك تستوي والجهل . بل لعل في الجاهل من الاخلاص لوطنه اذا اثير ولقومه اذا استنجد ماليس في المثقف الذي اتقن عدة لغات ، كما لو انه اقتنى مجموعة من اربطة العنق ، ليس عنده الرصيد الحي من الحماسة التي تولدها الثقافة الواعية ، في نفس الانسان المثقف ، لقضايا وطنه وشعبه والانسانية جمعاء . اما ان تكون بين بين ، فهنا الوقفة للتأمل والاستبصار .

ان مجتمعنا العربي ، حافل بالنماذج الثلاثة ، فيه من تعلموا وتثقفوا ، ولكنهم فرديون انانيون لايسألون عن شيء خارج ذواتهم – قد يعجب بهم الاجنبي الغريب – ولكن سرعان ما يملهم ، ان ثقافتهم كانت السبيل الوحيد لعزلهم عن مجموع الشعب وعن تاريخه وامله في الحياة . فجيلنا او الجيل الذي سبقنا ، تثقف في مدارس وتربى في بيئات مختلفة . درس في برامج انكليزية وفرنسية وعربية ومتظاهرة بالعروبة . فاذا التقى اربعة ممن درسوا في هذه البرامج ، حصدوا مابذرت فيهم الثقافة المختلفة من شتيت الاراء والعلوم والنظريات . وقد مر على هذه البلاد عهد كانت الناشئة فيه تعلم تاريخا غير تاريخها ، ولغة ليست لغتها وتعرف عن عالم بعيد اكثر مما تعرف عن العالم الذي تعيش فيه ، وتقف على ارضه الصلبة بكلتا القدمين . كان البطل نابليون وليس خالدا . وكان الشاعر لامارتين وليس المتنبي او المعري . وكان الزعيم كرومويل او دانتون وليس احد العمرين . اننا لاننادي بالانغلاق على الذات ، ولكننا ننادي بثقافة متحررة واعية ، تبدأ بالوطن اول ماتبدأ ثم تنتهي بالعالم اذا ارادت ان لاتقف عن الحركة والتقدم . اننا نريد ان يكون للثقافة ماللحنان الام الذي يرضعه الطفل مع حليبها ، وماذا ينفع الطفل اذا فقد الام وحنانها ، وجود عشر مرضعات تحمل كل واحدة منهن زجاجة من الحليب المعقم ؟ فقد مر حين على هذا البلد ، كانت الثقافة فيه موجهة لصالح فئة تريد ان يكون الشعب معصوب العينين بشريط احمر – كما ارادت فئة اخرى ان تعصبه بشريط ازرق ذي نجوم .. واذا كان الحديث عن الاموات يعد اغتيابا فاننا لسنا مغتابين اذا قلنا ان سياسة العصائب على مختلف الوانها قد فشلت . فلا المفرطون في التطرف الثقافي او الثقافة المعقمة ، ولا المفرطون في الاتجاه المحدود والطريق المسدود ، يمكنهم ان يكونوا ذات يوم قادرين ، على اتاحة الفرص امام الشعب ليستفيد من ثقافتهم وتجربتهم في الحياة . ان الذين سوف يفيدون الوطن هم الذين يؤمنون بشخصية امتهم وفكرهم القومي ووحدة وطنهم ونضال الاحرار ، لتحرير الاجزاء المستعبدة وخلق المجتمع العربي الجديد الذي يطمحون اليه ، لترفرف عليه راية الرفاهية والعدالة والسلام .

((المثقفون والمشكلات الفكرية))

ان ادق مايمكن ان يوصف به تطور المجتمع العربي الحديث ، هو انه مجتمع يتطور وفق نمو وتكامل مضمون القومية العربية . اذ ان القومية العربية ليست سلاحا لرد الغزاة وطرد الاستعمار فحسب ، بقدر ماهي ايضا ، مبدأ للبناء وتحقيق العدالة والرفاهية لابناء الامة العربية

من المحيط الى الخليج . واذا كان علينا ان نبسط راي القومية العربية في مشكلات مجتمعنا ـ من حيث وجوده السياسي والاجتماعي والقومي وتكوين الوسيلة الفعالة لتحرير العرب من الاستعمار وتوحيدهم وبناء عالمهم العتيد ، فان الاساس الذي يمكن ان تجري عليه مثل هذه الدراسة التحليلية يجب ان يكون مسبوقا بلمحة خاطفة عن دور المثقفين في بناء هذا العالم الجديد .

يتساءل المثقفون دائما عن مشكلاتنا الاجتماعية والفكرية التي تمنع بناء المجتمع العربي الجديد . وهم اذا اختلفوا في تحديدها ، فانهم قد اختلفوا في اقتراح طرق معالجتها . ولا يعنينا هنا في قليل او كثير ان نعدد مقترحاتهم ـ بعد ان نعدد المشكلات التي ارادوا معالجتها ، مادام لاغنى عن المساهمة في تعداد تلك المشكلات ووضع الحلول لها . رغم اننا لن نطيل فيها ، اذ يكفي ان نعدد امراض مجتمعنا ، وان نبين المشكلات التي يطرحها تطور فكرنا السياسي ، والقومي ، والفلسفي ، غير ناسين الاداة التي يمكن ان تتبلور بحسبها هذه العناصر ، وتؤثر في بناءالمجتمع الجديد ، حسب ماتقتضيه ردة فعل الوجدان القومي للامة العربية ، ذلك الذي بدأت تعمل له ثورة مصر العربية منذ عام ١٩٥٢ ، والجمهورية العربية المتحدة منذ عام ١٩٥٨ ، نواة الدولة العربية والمجتمع العربي الجديد ، في غد افضل .

ان امراض مجتمعنا العربي ثلاثة : مرض القيادة السياسية والفكرية ومرض السيادة القومية . ومرض التطور الاجتماعي . فقد كانت القيادة السياسية للمجتمع العربي ، بعيدة عن الشعور بالانتفاضة الثورية التي بدأت تعيشها الامة العربية ، ذلك انها ممثلة لخلاصة اوجه التطور القيادي الخاطىء في المجتمع ، التي تكونت طيلة اربعة قرون من عهود الظلام الاخيرة . وهي بحكم وجودها الطبقي ودفاعها عن مصالحها ، لاتستطيع ان تتبنى الدفاع عن حرية العرب واستقلالهم وبناء عالم وحدتهم الكبرى . اما القيادة الفكرية فقد كانت بعيدة عن تفهم روح الشعب وتاريخه المجيد وثقافته القومية ، لانها نهلت الكثير من مبادىء الثقافات الاجنبية ، دون ان يكون هناك اساس حي للثقافة القومية ترتكز عليه تلك المعارف العصرية الغربية . وبعد ان تآمر الاستعمار والقيادة السياسية على خنق روح الاصالة في اللغة العربية والتاريخ العربي ـ وهما قوام كل فكر قومي متحرر ـ تيسر للثقافات الغربية ان تنبت الكثيرين من مدعي الثقافة الذين امسكوا بزمام القيادة الفكرية في وقت كانوا فيه ، كالحشائش والطحالب التي تنبت على جوانب المياه الراكدة الاسنة ، فنشأ بين ظهراني الامة العربية ، فريق من المثقفين ، ارادوا الانحراف بالوجدان القومي نحو اليسار ، لعدم ايمانهم بأصالة شعبهم وتاريخه وزحفه البطولي المقدس . كما اراد فريق اخر ان ينحرفوا بالمجتمع نحو اليمين، ولو ادى ذلك الى تمزق فئة ثالثة كانت تمثل ردة فعل الوجدان القومي للامة العربية ، منادية بضرورة محاربة القيادة السياسية المنحرفة ، والقيادة الفكرية الضالة ، والايمان بآمال العرب في التحرر والوحدة . والى جانب مرض القيادة بشقيه السياسي والفكري . كان المجتمع العربي يشكو من الاستعمار بنوعيه المادي والمذهبي ، اللذين اخلا بسيادته القومية . فالاستعمار المادي اذا كان يخل بسيادته المادية فان الغزو المذهبي يقوض اسس جهاده القومي للم شمله المزق وبناء مجتمعه العتيد . اما مرض التطور الاجتماعي ، فتتمثل فيه خلاصة مشكلاتنا الاجتماعية في الاقطاع وسيطرة رأس المال وتسلطه على الحكم ، وتناقض مناحي التطور بعضها مع بعض .. حيث المجتمعات القديمة تعيش بكافة رواسبها ، وحيث المدن المتطورة والريف المتاخر ، كالبقرة وحلابها .حيث الفقر والمرض والجهل الى جانب الاستغلال والاستثمار والتحكم . ولكن قيام الثورة العربية عام ١٩٥٢ ، وتصديها لمعالجة هذه الامراض جميعا قد طرح لاول مرة امام الفئات المثقفة ، والقومية منها بوجه خاص ، فرصا فسيحة لمعالجة ومراجعة كافة ماعلق بها من مفاهيم خاطئة تتصل بتطور فكرنا السياسي ، والقومي ، والفلسفي ، واداة الحكم الكفيلة بالقضاء على امراض مجتمعنا التي يشكو منها ، وفق ماينعكس عن مناحي تطور الفكر السياسي والقومي والفلسفي ، ووفق مضمون حي للقومية العربية يكفل تحقيق مجتمع عربي جديد يطمح اليه الشعب ، والمخلصون من مثقفيه بصورة خاصة .

« مشكلات الفكر السياسي »

تبرز لنا في القطاع السياسي من فكرنا ، ثلاث مشكلات : مشكلة الديمقراطية ، ومشكلة الحزبية ، ومشكلة او قضية الاتحاد القومي . اما الديمقراطية القائمة على مفهومها المدرسي المتمثل في الاحزاب والبرلمان والوزارة المسؤولة ورئيس الجمهورية غير المسؤول ، فقد ثبت فشلها ، بعد ان اثبت واقعنا العربي انه لاسبيل الى الخلاص ، من مرض القيادة السياسية ، الا بالخلاص من الانظمة التي تيسر لهذه القيادة فرص العمل فلولا خلاص مصر الثورة من القيادة السياسية ، لما استطاعت الخلاص من الاستعمار . ولولا الخلاص من الاثنين ، لما امكن المباشرة في تطوير الشعب نحو الاشتراكية . والديمقراطية على صورتها المعروفة في الشرق العربي لم تترسخ في اوروبا الا بعد قرنين من المعاناة السياسية ، حتى اذا استقرت على اسس ومبادىء واضحة ، كان الشعب متمتعا بتنظيم دقيق ، يشمل كافة جمعياته ونقاباته واحزابه السياسية . واضحت نسبة التعليم تقارب المئة . والتامين الاجتماعي قد طبق على اكثر فئات الشعب . والشعب قد وصل في القطاع الصناعي الى المرتبة الممتازة ، وفي القطاع الزراعي قد حلت مشكلة الملكيات الكبيرة ، سواء بتوزيع الاراضي الفائضة على صغار الفلاحين ، او ادخال الالة على نطاق واسع الى الحقول واختصار عدد العمال فيها الى اقصى حد ممكن . واضحت فكرة الوطنية فكرة مقدسة . ولم تعد الخيانة الصريحة ، عبارة عن وجهة نظر ـ يمكن ان ينادي بها الحزب في الشارع او تحت قبة البرلمان ـ كما كان الحال عندنا في يوم من الايام . ولعله من السخرية ان نعمل نحن بمثل هذه القوانين التقدمية جدا وان نسلم تنفيذها والسهر عليها الى ممثلي خميرة الفساد الاجتماعي ، التي ظلت في دنان التطور محبوسة طيلة اربع قرون او تزيد . ان الديمقراطية قد تكون مرادفة للحرية .ولكن الحرية تغدو استعبادا اذا كانت ستحول دون تحقيق العلم للجاهل ، والارض للفلاح الصغير ، والمسكن لمن بات في العراء ، والقصاص العادل للخائن في حق وطنه وامته ، والموت السياسي للفئات التي تدعو الى عقد الصفقات الكبيرة ، تبيع فيها من الاجنبي ، ارض الوطن وشعبه ، ليحارب به ، ومن عليها ، اعداءه او تؤخر تطور الشعب في مجاله القومي فتحرمه من تحقيق وحدته القومية واقامة عالم يسوده الرخاء والعدل والامن .

اما مشكلة الحزبية ، فانها صنو الديمقراطية . والاحزاب في ظل الديمقراطية الصحيحة تغدو سرجة للنور والهدى . ولكنها في ظل الديمقراطية الزيفة ، تغدو اوكارا للرجعية ، والخيانة ، وانصار اليمين واليسار . ولا تستطيع، في مثل هذا الجو الطافح بالخيانة والاجرام ، اية فئة مثقفة مخلصة لامتها وفكرها القومي ان تعمل العمل الصحيح.

فاذا كنا مخلصين حقا لفكرة التحرر من القيادة السياسية ومن الاستعمار لاقامة عالم عربي متحرر ، فاننا لانستطيع ان نحقق امالنا عن طريـــق الحزبية . واليوم ، وفي كل يوم ستبقى الديمقراطية ذات المفهــوم المدرسي ، العدو الاول والاخير ، لكل وحدة او اتحاد بين الدول العربية وحتى ثورة مصر ، لو كانت قد اخذت بمبدأ السماح بتاليف الاحزاب ، لما كانتاليوم تحملعلى اكتافها عبء الدعوة للقومية العربية والوحدة العربية بين المحيط والخليج . ولذلك فمن غير المعقول ان يسمح بالعمل الحزبي في ظل دولة تعمل للوحدة او الاتحاد او التضامن العربي . والى ان يتحرر المجتمع العربي من مرض القيادة ومن الاستعمار ، ويقيم الحكـم الذي يعبر عن ارادة الامة العربية ،يبدوالسماح بالعمل الحزبي وممارسته من قبل انصار الرجعية وانصار الاستعمار المذهبي ، خيانة في حق الامة العربية وتاريخها القومي واهدافها السامية .

والاتحاد القومي ، كفكرة سليمة يجتمع حولها الشعب كله ـ وكنظام تتفرع عنه كافة السلطات في الدولة ، وكروح فاعلة ، تمد بالحياة ايـة بقعة من بقاع الوطن ، وكمبدأ ، لبناء المجتمع الجديد في كافة قطاعات البناء ، وكتجمع ، يضم كافة فئات الشعب من العمال الى ارباب العمل، ومن المالكين الكبار الى المالكين الصغار والذين لايملكون شيئا ، ومن ارباب الحرف والمهن الى اصحاب المعامل والمساهمين في الشركات ، ومـن المثقفين الى موجهي الثقافة ، ومن اصغر مواطن الى رئيس الجمهورية : ان ذلك كله يبدو انه الطريق الطبيعي للسير في طريق العمل الجـدي المثمر ، مادمنا نعطي للمعاني حقها من الالفاظ التي تستوعبها . ان طريق الاتحاد القومي هو الايمان بفكرة . والجهاد في سبيل عقيدة امـة صاعدة ، وبناء مجتمع جديد ، عن طريق التعاون بين كافة فئات الشعب باسلوب ديمقراطي ، لتحقيق الاشتراكية العربية .

« مشكـلات الفكر القومي »

تعترضنا ونحن نبحث في فكرنا القومي مشكلات عديدة . ولكن اهمها في اعتقادي مشكلة التاريخ القومي للامة العربية ، ومشكلة مبررات الوحدة بين البلاد العربية ، وموقف القومية العربية من تواريخ الشعوب المنقرضة التي عاشت في المنطقة . ومشكلة التجزئة وما اخذ يدور حولها لاعتبارها حدودا لقوميات منفصلة تعيش داخلها يشجع على اقامتهـا الاستعمار كما هو الحال في عدن او انصار الشعوبية والتبعية فـي العــراق .

ان تاريخ العرب القومي هو امتداد العرب وتفاعلهم ضمن حدود المكان والزمان . فالمكان بين المحيط والخليج ، والزمان منذ ان بدأ سكان المنطقة يتكلمون اللغة العربية ويعيشون تاريخ الامة العربية . واذا كانت الارض العربية من المحيط الى الخليج ، قد كانت في التاريخ القديم ، فـي بعض اجزاء منها ، مسرحا لحركة تفاعل ادتها شعوب اخرى ليس منهـا الشعب العربي ، وتمثلت في حضارات متنوعة ليس منها الحضـارة العربية ، فان الامة العربية بوجودها الحي قد وضعت على رف التاريـخ القديم ، سير كل هذه الشعوب المنقرضة بتواريخها ولغاتها الميتـة وعاداتها الاجتماعية التي لم يعد احد يتبناها او يعرفها ، بعد ان حلت محلها اللغة العربية والعادات العربية والحياة العربية . ولكن للاستعمار وانصاره غير هذا الرأي في موضوع التاريخ العربي . اذ بعد ان مزق الاستعمار عالمنا العربي الى دويلات اخضعها لامره ، حاول بكل قواه ، ان يبعث من القبور ، حضارات قديمة في المنطقة . فقال هو وانصاره فـي لبنان ان الفينيقيين لايزالون احياء ونادوا بالامة السورية . وقال هـو وانصاره في مصر ، ان المصريين فراعنة . وهكذا فعل بالاشورية والحثية والكلدانية والبرابرة ، معتمدا بذلك ، على تسلطه على الثقافة ، وتوجيهها حسب مشيئته الى جانب اغفال التاريخ العربي وابطاله القوميـين ، فصار هاني بعل الاسطورة بطلا سوريا ، وصار رمسيس وامنحتب مـن الابطال المصريين ، والفاتحين ومؤسسي الامبراطوريات . ولقد انبت هذا التوجيه الاستعماري ، بعض المثقفين الذين اخذوا ينادون بفينيقيةلبنان وفرعونية مصر وبابلية العراق ، وبربرية المغرب العربي كله . واضحت الخطة هي : احياء قوميات منقرضة لتدعم الحدود السياسية التـي اقامها الاستعمار .. الى جانب محاربة القومية العربية الداعية الـى مكافحة الاستعمار واجلائه واعادة العالم العربي الممزق الى الثوب الاصيل.

ومن المثقفين العرب القوميين الذين تعرضوا لمشكلة القوميات المنقرضة في المنطقة وغرض الاستعمار من ورائها ، سيادة رئيس الجمهورية العربية المتحدة جمال عبد الناصر . فقد تناول سيادته مشكلة الفرعونية واشباهها مرتين . مرة عندما كان في اللاذقية خلال شهر اذار « مارس » الماضي عندما تعرض للفرعونية ونعتها بانها دعوة استعمارية كان يروج لهـا الاستعمار البريطاني لعزل مصر عن العالم العربي ، ولكن مصر ضربت الطوق الذي احكمه حولها الاستعمار وعادت الى صف اخواتها العربيات للمساهمة في حمل مشعل القومية العربية . وفي المرة الثانية ، فـي خطابه الذي القاه مساء ٢٢ ـ تموز « يوليو » الماضي ، في ذكرى الاحتفال بعيد الثورة السابع . فقال :

استطعنا نحن ان نرى القومية العربية .. نراها رايا سليما . نـرى

القومية العربية التي حاول الاستعمار البريطاني منذ أن وصل الى بلادنا ان يبعدنا عنها . ويحاول الاستعمار ان يبث في انفسنا من الافكار مايجعلنا نعتقد اننا لسنا عربا ، ولسنا جزءا من الامة العربية . استطعنا رغم هذه المحاولات التي استمرت – ٧٥ – سنة ان نرى الدعوة الفرعونية التي حاول الاستعمار ان يبثها بيننا ، ضمن الدعوات التي حاول ان يبثها ضمن الامة العربية ، انما هي محاولة زائفة ، يحاول الاستعمار بها ان يحطم الامة العربية ليقضي عليها جزءا جزءا ويقضي على العرب والقومية العربية لتحل محلها قوميات اخرى . استطعنا نحن ان نعرف مكاننا وان نعرف تاريخنا وشخصيتنا ونعرف اننا عرب ونعلن عروبتنا ونعلن دستورنا اننا جزء من الامة العربية ونعود الى مكانناالطبيعي الذي كنا فيه . »

وهكذا فقد اعلن المفكر القومي العربي رأيه في القوميات التي حاول الاستعمار ان يبثها بيننا في المنطقة كالفينيقية والاشورية والحثية والكلدانية ، ومن بينها الفرعونية بقصد : تحطيم الامة العربية والقضاء عليها جزءا جزءا والقضاء على العرب والقومية العربية لتحل محلها قوميات اخرى ، على حد تعبير سيادته .

وموضوع الدعوات المنحرفة هذا يقودنا الى موضوع مبررات الوحدة بين البلاد العربية . ان مبررات الوحدة كامنة في التاريخ العربي وحده . وليس في تواريخ هذه الامم والشعوب المنقرضة في المنطقة . فلا يعقل ان نستشهد بمعركة خاضها فاتح من الفاتحين القدامى ، على عوامل الوحدة بين بلدين عربيين مثلا . والرئيس عبد الناصر في كل خطبه لم يستشهد الا بمعركة حطين وعين جالوت ، اللتين تم فيهما طرد الغزو الاوروبي وغزو التتار . انه لم يستشهد وحاشاه ان يفعل بوصول جيوش امنحتب الى اراضي الاقليم الشمالي في ٢٦ ايار « مايو » لاول مرة منذ ٣٤٠٠ سنة محققة بذلك الاتحاد بين مصر والاقليم الشمالي لاول مرة على حد قول محرر الاهرام في العدد الصادر بتاريخ ٢٢ – ٥ – ١٩٥٩ « الصفحة الخامسة » . ولم يستشهد بمعارك رمسيس ضد الحثيين ، لان ذلك معناه الاعتراف بامتداد تواريخ هذه القوميات المنقرضة الى تاريخنا الحديث . اذ كيف يجوز اصلا ان نسمي المعارك القديمة معارك وحدة في وقت كان يؤرخها التاريخ القديم نفسه على انها صراع وغزو ، ولم يكن هناك فكرة القومية العربية الرامية الى التحرر والتوحيد ؟

هذا ماتثيره فكرة التاريخ القومي للامة العربية ، ومشكلة مبررات الوحدة – على ضوء التاريخ – بين البلاد العربية . اما ماتثيره فكرة التجزئة وما يدور حولها من عوامل انشاء وطن قومي ، اسوة بماحدثفي نكبة فلسطين عام ١٩٤٨ ، فالامة العربية من محيطها الى خليجها لاتعترف بالتجزئة التي اقامها الاستعمار ضمن الرقعة العربية . وهي نتيجة لذلك لاتعترف باية نسبة تبلغها فئة من الفئات داخل اية رقعة حدد لها الاستعمار ، حدودها حسب الجهات الاربع . لان الوطن العربي وحدة لاقسمة فيه ، وكل عربي له جزء يخصه كفرد من الوطن العربي الكبير . ولن تنجح محاولات الانكليز في عدن لجعل العناصر المحبوبة من بلاد الكومنولث البريطاني اكثرية ، وكذلك لن تنجح محاولات انصار الشعوبية والانحراف في العراق لقطع كل صلة للعراق العربي بالعروبة . ولان العروبة اذا ارادت ان تحصى عددهم ماداموا قد ارادوا الخروج عن صفها ، فلن تحصيه على اساس نسبتهم الى سكان العراق بوضعه الحالي الذي اقامه الاستعمار ، بل ستحصيهم على اساس نسبتهم الى سكان العالم العربي ، كوحدة متماسكة ، من المحيط الى الخليج . وهكذا تعلن الامة العربية ، رأي القومية العربية في الحركات الانفصالية ، في كل مكان يرتفع فيه للاستعمار واعوانه راس لتهوى عليه قدم . رغم ان القومية العربية في الاساس ، هي فكرة لاتقوم على دعوة عنصرية او عرقية . انها حضارة وثقافة في رأس العرب . والعربي هو من عاش بين حدي المحيط والخليج ، وشارك المواطنين في بناء حياتهم والدفاع عن القيم التي يؤمنون بها ، تلك القيم التي تميز شخصيتهم القومية وفكرهم ومجتمعهم ، ومطامحهم وأمالهم الممتدة عبر المستقبل .

((مشكلات الفكر الفلسفي))

ذهب كثير من مثقفينا الى محاولة النقاش والدراسة لابتكار مذهب عربي يلصقونه بمضمون القومية العربية ، مدعين لذلك ان للغرب فلسفته الخاصة به ، وان للشرق فلسفته الخاصة به ، فلماذا لايكون للعرب فلسفتهم الخاصة بهم ايضا ؟ ولكننا نريد ان نتساءل ، هل جاءتالمذاهب المعاصرة عن طريق وضع فلسفات واضحة المعالم ، ام عن طريق تطور الحضارة الحديثة ؟ وبمعنى اخر ، هل كانت عن طريق الافكار المجردة التي ليس فوقها امثلة مادية كما يرى فلاسفة الغرب وعلى رأسهم هيجل؟ ام عن طريق تطور وسائل الانتاج ومضاعفات هذا التطور ، كما يرى الفلاسفة الشيوعيين وعلى رأسهم ماركس وانجلز ؟ ذلك ان اي تفكير مماثل قبل الاجابة على هذه الاسئلة ، لايجاد فلسفة عربية ، سوف يصطدم بواقع تطورنا السياسي والقومي والاقتصادي . لاننا لانزال كي نتخذ موقفا عروبيا ، كاتجاه فلسفي ، بحاجة الى مستويات مماثلة. الى تفاعل داخلي .. الى ترابط بين جزئيات الفكرة لتؤلف فكرة كبيرة ، دقيقة ماثلة في العيون والاذهان والقلوب ، واضحة المعالم والخدود .

ويكاد ينقسم المنادون بهذه الدعوة الى قسمين : قسم صادق الرأي مخلص النية ، يحاول بدافع ايمانه بالقومية العربية ، والامة العربية ووحدة العالم العربي ، ان يدعو الى هذا التمذهب الجديد ، ليضفي على مفهوم القومية العربية ، كامل مستلزمات الدعوة الجديدة كرسالة تحرر من الاستعمار المادي والمذهبي من اجل الوحدة ، ورفع مستوى الفرد وتطبيق العدالة والمساواة بين المواطنين ، وتوضيح موقف المواطن من الدولة ، والدولة من المواطن ، وقضية الحرية ، والسلطة ، والملكية والنشاط الفردي ، والارث، وهلم جرا . اما الفريق الاخر فانه يناقش الموضوع من زاوية مغايرة ، تظهر بساطة دعوة القومية العربية واظهارها بمظهر العاجز عن اثبات وجوده وسط زحام العالم المتصارع بمذهبه .. وان القضية العربية ليست على درجة من النضج ، ليصح اعتبارها متكاملة القواعد والاسس ، محددة السمات والابعاد . وقد لايكتفي هذا الفريق بذلك بل يظهر مدى التفاوت في التقدم من قطر الى قطر ، ومدى اختلاف الجذور التاريخية لسكان هذه الاقطار واستحالة توحيدها لتسطر رسالة التقدم والحرية والاخاء !

الذي يخيل الي ان العروبة ليست بحاجة الى مذهب اسوة بالكيانات الاخرى . بل هي بحاجة الى ان تتبين موقعها على خريطة العالم ، واتجاهها السياسي والاقتصادي ، وتعاملها مع اي من المعسكرين في المجال الدولي او كليهما . ان العروبة تسعى لان تلم كيانها المادي . هذه حقيقة مهمة يجب الالتفات اليها ، والى ان يتم جمع هذا الكيان في دوله موحدة او اتحادية ينبغي وضع خطة لا مذهب . خطة موقتة تنتهي مهمتها عندما تصل العروبة الى هدفها القصير . فاذا وصلت الى هدفها هذا بالذات لم نستطع ان نتنبأ ولكننا نستطيع ان نقول انها هناك يمكن لها ان تفكر

في الفلسفة وفي اعتناق المذاهب الجديدة ، مادامت تنبع من أرضهـا وثقافتها ومجتمعها ، ليست شرقية او غربية ، ولكن اشبه بالزيتونة التي يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار . ان الوحدة الشاملة ليس مبررها المذهب الفلسفي . والعالم العربي الواحد ليس مبرره المذهب الفلسفي. واستباق الحوادث لن يسهل اختراع هذا المذهب . اذ لايعقل ان يكون عندنا فلسفة عربية ، قبل ان نتحرر من الاستعمار ، ونتوحد ونتطور ، وفق نسق واحد ، عند ذلك قد تنبت الفلسفة العربية وسط هذه البيئة العامرة بكل مقومات الحياة الخالقة ، كما نبتتذات يوم في بغداد ، عندما استوى المجتمع والفكر والتقدم . ان الفلسفة اصعب من كافة فنـون الادب . ونحن لا نزال حتى اليوم بلا ادب عربي يمثل وجه العروبة المضيء ويعبر عن خلجات قلبها الصافي فهل يكون عندنا فلسفة تصل الى درجة تفلسف فيها فكرة القومية العربية ؟ لعل المثقفين المهتمين بفلسفة العروبة ان يوجهوا جهودهم الى تجويد ادبهم من شعر وبحث وقصة ، فكل ظني انهم يساهمون – ان فعلوا – الى حد كبير في تحقيق البيئة الصالحة التي تنمو في رحابها بذور الفلسفة ، وبراعم التفكير الفلسفي العتيد .

كان الفكر العربي الحديث وفي مجاله القومي بالذات يدور فـي حلقة مفرغة ، لا من حيث المساهمة في شرح عوامل واسباب وحـدة العرب ووحدة تاريخهم ، بل من حيث ايجاد الوسيلة التي يمكن ان تحقق وحدة العالم العربي ، وتعالج امراض القيادة والسيادة والتطور ، وتعطي الرأي الحاسم في مفهوم الديمقراطية المدرسي والحزبية المتنازعة ، والاتجاهات المذهبية الرامية الى تفكيك العالم العربي ، وتبين بشكل واضح دور الدول العربية ، الصغيرة منها والكبيرة في معركة التحرر والوحدة وتسهم الى حد كبير في تخطيط طريق الحياد المادي عن الغرب والمذهبي عن الشرق ، وتدقق على موقف العروبة من اسرائيل ، ومن الاستعمار الذي يساندها ، وتضع لاول مرة في تاريخ الفكر العربي ، بذور الفلسفة العربية المنتظرة ، وبراعم التفكير الفلسفي العتيد ، وتتيح للعقل العربي ان يبدع ذاته ، ويعبر عن مكنون هذه الذات الخالقة . ان الاسس العشرة التي سنوردها فيما يلي – رغم انها وضعت عام ١٩٥٧ – لاتزال تعبر عن حقيقة وضعنا الاجتماعي وتعالج امراضنا في القيادة والسيادة والتطور وتحسم الرأي في مشكلات تطورنا السياسي والقومي والفلسفي ، وتضع العروبة في حال الاخذ بها والدعوة لها ، على عتبة المجتمع الواحد والفكر الواحد ، وبذور الفلسفة المنتظرة :

١ – العروبة لايوحدها الا بقاؤها على الحياد بين المعسكرين ، وما شاءت السياسة الدولية ان توزع العالم الى معسكرات . العروبة مع معسكـر العـــروبـــة .

٢ – حياد العروبة ايجابي لا سلبي . بمعنى انها تتعاون مع كل معسكر في الحدود التي لاتجعلها في نظر المعسكر الاخر متحيزة ضده . والعروبة هي التي تقدر هذه الحدود ، وليس احد المعسكرين او كلاهما .

٣ – الثقافة الانسانية خلاصة السعي البشري نحو الحياة الافضـل والاسمى . وعلى العروبة المتطورة والمتحررة ومن واجبها ، ان تتابـع تطور العلم لدى المعسكرين . لانهما في حال تصارعهما الطاحن المريـر المرتقب ، سوف تكون الملجأ الامين للفكر البشري الذي لايطاله الدمار .

٤– الاخلاص لفكرة القومية العربية واهدافها في التحرر والوحدة ، واجب كل دولة عربية تحرص على عدم الارتماء في أحضان احد المعسكرين او احد المذهبين . لان ذلك معناه تاخر جمع عناصر الشخصية العربية المستقلة في نطاق حي متكامل منسجم . وكل بعد عن فكرة الحياد المادي او المذهبي ، من قبل اية دولة عربية يضع نصب اعين الدول العربيـة الاخرى ، واجب اعادة الدولة الشاردة الى جادة العروبة ولو ادى الامر الى استعمال السلاح .

٥ – ثروات الارض العربية ملك للامة العربية تنفق في رفع شـــأن شعوبها ومساعدة بعض الدول العربية التي لاتساعدها اوضاعها ، علـى تحمل تبعات الدولة الحديثة ، ريثما تدنو مرحلة الذوبان في الكيـــان العربي الكبيـــر .

٦ – الديمقراطية الغربية القائمة على تعدد الاحزاب وتوزع المسؤولية بين البرلمان والحكومة واعتبار رئيس الدولة غير مسؤول ، في ظل اوضاعنا الاجتماعية المتأخرة المتنافرة ، تفسد قوى الامة التي ينبغي اعتماد الطرق الكفيلة ، للتعجيل بتطورها . فالسرعة في العمل . والحزم . والاعتماد على رأي الاخصائيين كل في مجاله : اسلوب ينبغي اتباعه ، بتطويـــر انظمة الحكم في بلادنا نحو حكم لايقوم على تعدد الاحزاب ولا يفسح المجال للمساومات على حساب مصلحة الامة ، بل يهدف الى اشاعة العلم والصحة والرفاهية في الريف العربي ، ولدى الطبقة المتوسطة ، والدنيا من سكان المدن ، اسوة بما حدث وبما سيحدث في مصر الثورة مؤخرا .

٧ – الاسراع دون ابطاء لاقامة اتحاد بين الدول العربية المتحررة ،والتي لاترتبط مع اي معسكر من المعسكرين بقيود واتفاقيات او معاهدات ، تؤثر على سير هذه الدول وتطورها في زحمة الصراع العالمي .

٨ – ان مصر اليوم هي الدولة الاكثر نشاطا والاوفر قوة ، القيام بالدور الذي يتوجب عليها ان تقوم به ، كدولة كبرى ، في مجموعة الدول العربية . وهذا مايجب ان تعترف به الدول العربية جميعا بما فيها مصر كما ان اسرائيل والاستعمار الذي يدعمها ، هما السرطان الذي يؤخـر تحقيق الاتحاد بين الدول العربية ، سواء على نطاقه الضيق او الواسع. ولا وحدة شاملة بوجود اسرائيل ، كما انه لازوال لاسرائيل بـــدون الاعتراف بدور مصر الرئيسي في تصفية الوحدة الشاملة بالذات . ولا وحدة بـدون حيـاد .

٩ – تصفية متناقضات الحياة الاجتماعية ، بالاقلال من اخطار الالة على المجتمع العربي ، وتقوية الجيوش المزودة بالعلم والفن : مظهران مـــن مظاهر كل دولة عربية تسعى نحو الاتحاد او الوحدة .. احدهما كسياسة داخلية قائمة على الاخذ بمبدأ العدالة الاجتماعية وتخفيض الفروق بين الطبقات ، باعتماد الضرائب التصاعدية .. وثانيهما كسياسة خارجيـة تقوم على مبدأ وضع السيف في موضع السيف ، والندى في موضع النـــدى .

١٠ – من تاريخ الشعوب الحية ومن روح الحضارة الحديثة القائمـة على كلا المذهبين ، ومن خصائص الامم والشعوب ، وقوميتنا المتعلقـة بالانسانية ، والانسانية التي رائدها السلام الابدي . ومن الحرص علـى تجنب الزج بالعروبة – كشعب وقضية – في اتون الخلافات الدولية ، ومن السعي الذي لايفتر لجمع الاجزاء العربية المتناثرة في دولة كبرى، حوافز ومثل وبيئات صالحة نقتبس منها معين صورة باسمة لغدنا الباسم المرتجى ، ونشيد جميعا على هذه الارض العربية ، صرح عروبتنا وصرح بقائنا وامجادنا الماضية والحاضرة ، من القادسية وحطين وعين جالوت ومعركة التحرير في الجزائر وعمان ، وحتى معركة الصمود في بور سعيد.

((مضمون القومية العربية))

على ضوء ماتقدم ، من بحثنا في امراض العروبة المتمثلة في القيـادة

السياسية والقيادية الفكرية ، والسيادة القومية التي اخل بها الاستعمار بشتى انواعه ، والتطور الاجتماعي المضطرب المتخلف . وبيان عناصر مشكلات فكرنا السياسي ، في الديمقراطية ، والحزبية ، والاتحاد القومي . ومشكلات فكرنا القومي ، في التاريخ القومي للامة العربية ، واسباب الوحدة بين البلاد العربية ، وعدوان انصار الحضارات القديمة — بالتعاون مع الاستعمار — على التاريخ العربي وفكرة الوحدة العربية . وقضية التجزئة ومحاولة الاستعمار وانصار الشعوبية والانحراف اقامة اوطان تقتطع من جسم الامة العربية . ومشكلات فكرنا الفلسفي ، لفلسفة العروبة وايجاد مذهب فلسفي القومية العربية ، واعتماد الاسس العشرة كاداة توصلنا الى اهدافنا في الوحدة والحرية والمجتمع الواحد ، الذي تنبت فيه ازهار الفكر والفلسفة .. والمناداة بتحقيق ماتنطوي عليه ردة فعل الوجدان القومي للامة العربية برفع شأن اللغة العربية والتاريخ العربي ، والسير في ركاب شعار « وحدة اللغة ووحدة التاريخ » ، من ذلك كله يمكن لنا ان نستخلص مضمونا للقومية العربية ، فيه عصارة تطورنا وما ينبغي ان يكون عليه في السياسة والمجتمع والاقتصاد والفكر والبناء القومي ، يتلخص بما يلي :

ان هذه العناصر الاساسية الهادفة الى احياء الوجدان القومي باعلاء شأن اللغة العربية والتاريخ القومي . والمحافظة على الشخصية العربية فلا تتجزأ من جراء عدوان الحضارات والدعايات الانحرافية والمذاهب العادية عليها . وتحقيق سيادة الامة العربية بطرد الاستعمار . ورسم الطريق للقيادة السياسية المعبرة عن روح الامة وحاجاتها واهدافها المثلى . واتاحة الفرص لان تكون القيادة الفكرية موجهة للمجتمع ، حريصة على اشادة بنياننا الفكري من واقع ماضينا وحاضرنا ومستقبلنا كسلسلة لا انفصام لها . وتقليل الفروق بين الطبقات وفق روح العدالة وتكافؤ الفرص . واشاعة المناهج الاشتراكية لخلق مجتمع تقدمي النزعة والاسلوب ومحاربة عدوان التجزئة ومحو الكيانات الهزيلة القائمة .وخط تطور المجتمع العربي نحو الوحدة الشاملة والقيادة الواحدة والتجربة الاجتماعية الكبرى .. ذلك كله مانعبر عنه عندما نقول « القومية العربية» عقيدة كل عربي مخلص من المحيط الى الخليج . وكل محاولة لتعطيل هذا النهج سواء بالانحراف عن معركة الوحدة الى التجزئة . او صبغ مضمون القومية العربية هذا بصبغة تخرجه عن هذا المضمون ، ولونه الصريح ، لما تأباه طبيعة المعركة النضالية التي ينبغي على العرب ان يكرسوا كافة جهودهم ، لتحررهم من الاستعمار ، وخوض معركة الوحدة الشاملة ، ليجد المجتمع العربي الواحد — من المحيط الى الخليج — سبيله في التعبير عن الذات ، واتخاذه الوضع الاجتماعي الذي يفرضه واقعه الداخلي وحده .

« دولة المثقفين والمجتمع العربي الجديد »

كان العرب قبل ثورة مصر العربية عام ١٩٥٢ ، يؤمنون بافكار عديدة تكاد تتفق كلها ومضمون القومية العربية . ولكن الذي كان ينقصهم ، انما هو بدء تنفيذ هذه الافكار في دنيا الحياة والناس . كانوا بحاجة الى من يمزق ستار الديمقراطية الكاذب ويكشف عن معدن الحزبية الرخيصة . وكانوا بحاجة الى من يشنها حربا صريحة على الاستعمار واعوانه داخل البلاد وخارجها ، ليؤكد سيادة القومية العربية والامة العربية . وكانوا بحاجة الى من يوقف القيادة السياسية عن الاستمرار في الفساد ، ويوجه القيادة الفكرية في الطريق المؤدية الى بعث تاريخنا العربي الاصيل وتثقيف الجيل بثقافة عربية خالصة . ويمنع انحراف الوجدان القومي نحو اليمين او اليسار . وكانوا بحاجة الى من يخوض معركة الوحدة ويعلنها حربا صريحة على التجزئة والكيانات المبعثرة ويدخل معركة الامة الواحدة والقيادة الواحدة والمجتمع الواحد .. فكانت ثورة مصر العربية عام ١٩٥٢ ، ثورة اضحت بعد سنوات قليلة من عمرها ، مجندة في خدمة القومية العربية ، ومضمونها في السياسة والمجتمع والحكم ، وبعث روح التطور في حياة المجتمع العربي الجديد . وكان هذا التلاقي بين مصر وسوريا ، دليلا على ان العروبة اصالة ، والقومية العربية رسالة ، والوحدة هي مخاض الحرية الحقة والبناء الصحيح في عالم جديد تشرق شمسه على العرب من المحيط الى الخليج . كما كان من هذا التلاقي بين الاقليمين ، جمهورية عربية متحدة ، هي اشبه باللؤلؤة المفردة في عنق العروبة الخالي من اللالىء منذ خمسة قرون او اكثر . جمهورية عربية متحدة ليست رجعية لانها تؤمن بالتطور ، وتؤمن ببعث القوى الدفينة في المجتمع وتفسح لها سبيل التطور نحو الاشتراكية والديمقراطية والتعاونية ، وترسم خط سير المجتمع الجديد ، في طريقه القومي الصحيح فلا ينحرف نحو اليمين حيث الاحلاف والرجعية والانخراط في حماة الاستعمار . ولا ينحرف ايضا نحو اليسار ، نحو تعطيل وجدانه القومي الاصيل وتأخيره عن خوض معركة الوحدة الشاملة شعارها في ذلك « حياد مادي عن الغرب ، ومذهبي عن الشرق » دون ان تغلق نافذة الاخذ والعطاء مع العالم كله ، لمد الحياة العربية والفكر العربي بما يصدر عن حس سليم وطواعية حرة مبدعة .

حمص — **علي بدور**



قصيدة الى الفجر

شيء كفؤوس الحطّاب
كسقوط الدوحة في الغـاب
كالـــزلزال
او مثل نـواح الاطفـال
من عشر يربض في قلبي
ينمو ، يمتدّ باعصابي
ويذرّيني
فوق الطين
في قبر اغرق أحبابي ...

*

آه ... شعبي
ماتت فيه طيوف الدرب
مات الصبح
ماعاد يغنّيه الجرح
ما عاد يقبله القمح
ما عادت تغريه الافراح
والاريـاح ..
صمت البيـدر
في الحقل زنود تتحجر
جفّ الدمـع
لا زهر يورق ، لازرع

لا امطــــار
الثار ينجّي ، والثّار
مازال شظايا امنيّه
كالحرّيه ،
كصبي ميت وصبيه
تغفو في جزر الكهان ،
تبكي ، تتهاوى : « اوطاني »
وتضم الى الصدر الخابي
بعض ترابِ
وبقايا وردات حمرِ
لـون الفجر ،
لـون الدم.
مازلنا اغرابا ياامّي
في ارض تنبت كهانا
في ديجـور
يا ثورة يا وجه النور
ياكفا تبعث موتانا
مدّي في الاعراق الجذرا
صبّي الجمرا
في الزند الغافل والساعد

خلّي العملاق المتواني ، خلّي المارد
يخلق ، يجبل ، طين الارض
عيني: آدم
ومصير المخذول العالم
بسياط الحبّ او البغض ،
قولي يكفر ، يتأله ،
يمتد ، يحطّم ، يستعمر
مات الافيون ــ القدَر
مات المذموم ــ التسبيح
فليهدر في القمم النهر
وتسر كيف نشاء الريح
والابراجُ
لتكن مانهوى الابراج
لتصر حطبــا
او سهلا او منثور هبا
لايولد فيه ألكهّان
ويموت الناس بلا كفـن
وبلا وطــن
في قلب العتمة ، في الصمت
كرماد الجيفة ، كالموت .

قطر — حسن النجمي





مازالت اناملي التي امسك بها القلم مغموسة بدمه الطري دمه الذي سال عند الاصيل ، على الارض الطيبة التي كان يحتضنها ، ويتشبث بها كأنه يريد الا تفلت ابدا من بين ذراعيـــــه :

كانت يدي تسد جرحه المفتوح ، وتجمع حواشيه الممزقة وتحاول ، ببله ويأس ، ان تصد عنه الموت ، ولكن حياتــه كانت تتسرب من بين اناملي المرتعشة حارة بطيئة ، فأحس بها ، وهي تسيل ، لتختلط الى الابد بتراب امنا الجزائر .

.... وكانت عيناه السوداوان الحالمتان توزعان بسمتهما الاسيانة علي وعلى رشاشه المنطرح عند قدميه كالكلب الوفي ، وظلت هذه البسمة تروي لي بصمت ، ملاحم بطولته ، الى ان انطفأت الجذوة في عينيه ، وجمد على اناملي دمــه الشهيد .

لقد مات قدور ، صديقنا المشترك ، ياعزيزي ، واحد اركان الثالوث الذي كنا نكونه في جامعة « السوربون » ، وقدر لنا ، انت وانا ، ان نتقاسم لوعة الفجيعة فيه . انت الذي ارادت لك القيادة ان تضرب في ارض الله ، لتحمل كلمة الجزائر الى كل زاوية من زواياها ، وتفتح عيون كل شعب حر ، على اماثيل كفاحها البطولي ، ومخازي عدوهـا الجبان ، وانا الذي أجثم هنا على بعد خطـوات مـن مثـوى قـدور .

انه يستريح قبالة خندقي ، تحت شجرة زيتون تمردت على الهرم والزمن فلم تنحن لهما الا لتحضن وليدة لهـا فتية ، بدأت تشمخ برأسها قوية متحدية كأنها انما ترمز الى امنا الجزائر التي تواجه الشمس بكل ماقد يمكن لشعب ان يدخر في اعصابه من طاقات الصمود ، وافاعيل الثقـة بالـــذات .

اتخيلك تضغط صدغيك بحنق كعادتك حين يستبد بك الضيق ، محاولا ان تزعق في وجهي :

ــ وكيف مات قدور ؟ وكيف سمحتم له ان يموت ؟

نحن ــ ياصاحبي ــ لم نسمح له ان يموت . بل شـاء هو ان يكون اسطورة من التشوف الابي ، تلهب بالنخوة والفداء كل نفس جزائرية .

كنا نتناول طعام الغداء . وكان هو يؤدي وصلته الساخرة كعادته كلما اجتمع شمل الرفاق .

وكان موضوع سخريته في تلك الظهيرة ، خط موريس المكهرب ، الذي اقامه العدو ليحول دون تسلل رفاقنـــا الى التراب التونسي .

... واستهل قدور وصلته فقال بلهجة مسرحية :«لقد استنجدت باريس بكل مافي رؤوس ثيرانها الكبار مـن سخف وسكر ونزق ، وعصرت كل مافي ادمغة « عبقرياتها» العسكرية من موهبة التفاهه ، فكان لها خط موريس ،

وعندما تحقق الخط العظيم وقفت الشمطاء امامـه تفرك راحتيها بفرحة الاطمئنان : لقد انتهى الامر . لم يعد بامكان الخارجين على القانون ... ان يخرجوا ... ولـم يعد بامكان العصاة ان يفلتوا من قبضة العدالة .

وكاد قوادها العظام يشربون سلفا ، نخب النصر القريب بقبعاتهم المزركشة ، ويتبادلون التهاني لانتهاء « حـرب التهدئة » ... لولا ان استفاقوا صباح اليوم الثاني على مفاجأة صاعقة ، فلقد اخترق مهابة الخط العجيب ، ومزق حرمته الغالية قطيع من ثيران الجزائر ــ لاتضحكـوا ــ الثيران الحقيقية ، فأضاع على فرنسا فرصة النصر التي هيأها لها ثيرانها العسكريون الكبار ، بعد جهد جبـار ، وليال من السهر والجد طوال .. .»

... وتوقف قدور قليلا ، وراح يداعب لحيته السوداء المدببة ببلاهة مصطنعة ريثما تنتهي نوبة الضحك التـي عصفت بالرفاق ، ولكن ساعي الجبهة ، مر به في تلك اللحظة والقى بين يديه رسالة تلطخت اطرافها بالوحل ، حتى بدت كأنها انما تشي لصاحبها بكل مالاقته ، في طريقها اليه ، من عناء الضياع ، وشعث الترحال .

... ومال قدور على الرسالة يفضها متعجلا ، ومـا كادت عيناه تحتضنان سطورها الاولى حتى بدا جبينـه يتغضن ، وملامحه الباسمة تربد ، واطرافه القوية تتراخى .

وتسمر الرفاق وهم يرونه يبكي فجأة ، ولاول مرة منـذ عرفوه ، وعجبوا له ينسحب ، وهو يعصر الرسالة بقبضته ويردد بانفعال وعصبية :

ــ يالهم من انذال !

.. وعرفنا سر الرسالة .

.. كانت من اخيه الاصغر الذي تركه في القرية سندا لامه العجوز ، فاستطاع السند الطري العود ، ان يسد حاجة الشيخة الى الرعاية ، وان يخفف عليها هلع الامومة التي نثرت ثمرة كبدها في بقاع ثلاث من ارض الجزائر ، فكان لها فلذة في اوراس ، واخرى في وهران ، وثالثة على الحدود ... ولكن السند الطري العود ، لم يستطع ، بل لم يتح له على الاصح ، ان يحمي حرمة الشيخوخة من غدر الانذال .

ففي اول العام الجديد راق لجنود المظلات ان يعيدوا فزحفت ثلة منهم ، على قرية « .... » فطوقتها ، واطلقت زبانيتها في جنبات القرية الامنة العزلاء في حملة تمدينية ، وكانت امه ... أمه العجوز ، هدفا من اهداف هذه الحملة .

اقتحم عليها غرفتها عند الفجر ، خمسة منهم ، وهي تصلي ، فظلت راكعة تدعو للجزائر بالنصر ، وتستنزل على اعدائها اللعنة حتى اذا انهت صلاتها ، تلفتت اليهم بازدراء وسالتهم ماذا يريدون ، فأشار قائدهم الى ثلاث صور معلقة في الجدار ، لشبان ثلاثة يرتدون لباس الميدان :

ــ من هؤلاء ؟

ــ انهم ابنائي .

ــ واين هم الان ؟

ــ يحاربونكم في كل مكان من ارض الجزائر .

ــ نعم انهم يحاربوننا .. ولكن اين هم الان بالضبط ؟

ــ واحد في أوراس ، واخر على الحدود ، وثالث في وهران .

ــ وتفخرين بهم أيضا يا شمطاء ؟

ــ وددت لو انهم عشرة ، بل مئة ، بل الف ، لاقدمهم جميعا فداء الجزائر .

... ولم تتحمل اعصاب الوحوش هذا التحدي ، فجروها الى الخارج ، الى شجرة التوت العتيقة في فسحة الدار ، وعلقوها من شعرها في احد الاغصان ، وظلوا يعذبونها ، وهي تقابل تعذيبهم ببسمة التحدي اياها ، حتى اذا فتحت شمس الصباح عينها الواسعة ، فتحتها على الوجه الجليل باردا مهشما ، وعلى الشعر الابيض الوقور مجبولا بالدم .

ولم تكن امه وحدها حصيلة الحملة في ذلك النهار ، فلقد ترك المدنون وراءهم عند انسحابهم اكثر من ثلاثين جثة لطفل وامرأة ، اما اخوه الفتى ، فقد نجا ، لانه كان قد انطلق قبيل ساعات ، الى الغابة القريبة ، حاملا الى بعض الفدائيين ما جمعته لهم القرية الفقيرة من زاد ومال .

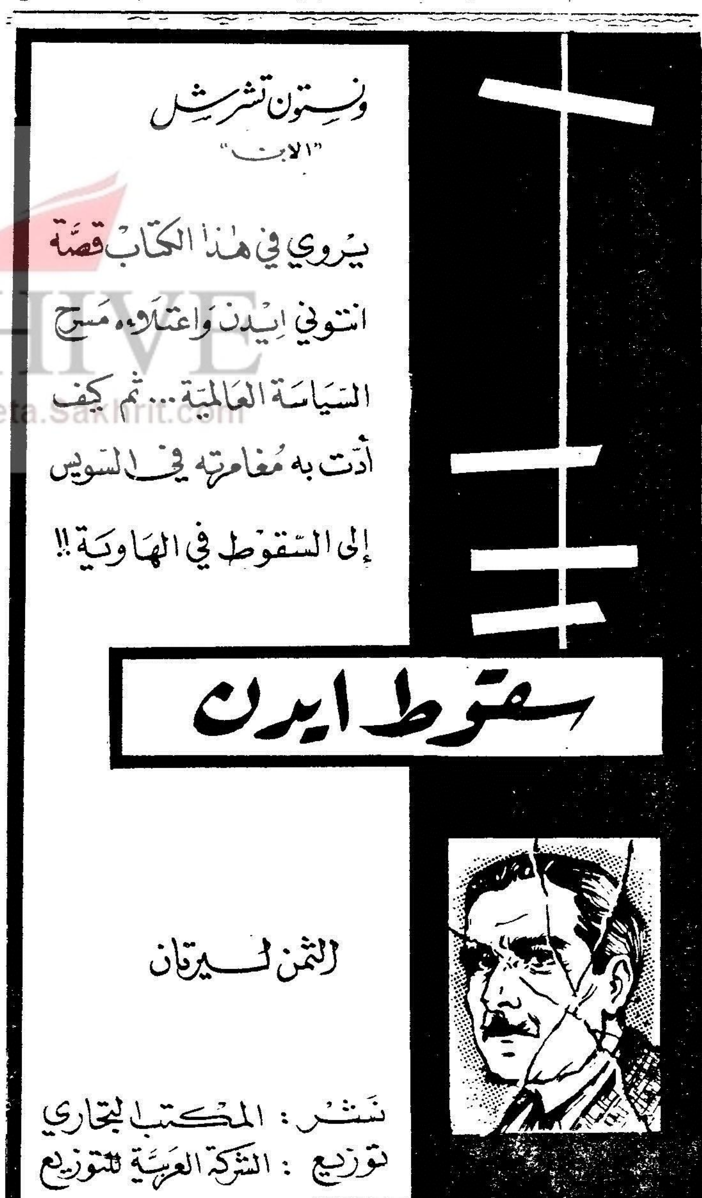
... وقلبت الرسالة الحزينة حياة قدور .

افتقدته مجالس المرح التي كان الرفاق يختلسونها كلما هادنتهم المخاطر ، ونهدوا الى بعض الراحة استعدادا لاعراس الفداء ، واشتاقت الحلقات الى تعليقاته الساخرة على تحركات العدو ، وخبطاته الفاشلة ، ولم تعد البسمة الى ملامحه ، بل طردها عن هذه الملامح ظل متجهم صارم يفيض بالوان الصمت والاسى والضراوة .

وكثيرا ماكنت افاجئه ، حين يخلو لنفسه ، فأجده منكبا على ورقة ، وفي يده قلم رصاصي لاينفك يجريه عليها بلفظتين فقط « فرقة المظلات » ، يكتبها عشرات المرات حتى اذا لم يعد في الورقة متسع للفظتين المقيتتين ، مزقها بعصبية وداسها بقدمه ، واستدار نحوي يسألني :

ــ اما من اوامر بهجوم ما ياسعدون ؟

... وجاءتنا الاوامر ذات مساء ، وهي تقضي بشن غارة خاطفة على قافلة عسكرية كانت تمر على بعد عشرين ميلا من مراكزنا ، وهي في طريقها لنجدة احدى فرق العدو المحاصرة عند اطراف الجبال القريبة ، وكان علينا ان نتعجل الضربة ، قبل ان تصل القافلة الى « كولون بيشار » التي تعتبر مركزا من مراكز العدو التموينية الحصينة ، فجمعت الرفاق وامرتهم ان يكونوا على استعداد لمهمة عاجلة وفيما كانوا يتفرقون لاعداد « لوازم » المهمة ، دنا قدور مني



وهز كتفي بشيء من الاستبشار والفرحة :

ـ قل لي بربك هل سنهاجم احدى مستعمراتهم ؟

ـ ليس في الاوامر شيء من ذلك ، ولكن هناك نجدة عدوة ، علينا ان ندمرها ، او على الاقل ان نعيقها عن الوصول الى هدفها .

ـ ولن يسمح لنا بمواجهة المدنيين منهم في الدسكرة القريبة ؟

ـ الاوامر هي الاوامر .

... ولمعت عينا قدور ، فخيل الي ان رجما من لشهب يتساقط منهما ، ثم طأطأ رأسه وسار الى خيمته وئيدا تحت ضوء القمر الشاحب الذي كان يطلع علينا انذاك من وراء غابة الزيتون بوجهه الصافي الاسيان ، وصمته الازلي الحالم .

... وعند الرابعة صباحا ، كان صمت العدم الذي يعقب العاصفة العاتية قد خيم على وادي « جعفرة » وكانت قافلة العدو ركاما خامدا يتناثر في جنبات الوادي ، وكنت اتفقد الرفاق استعدادا للانسحاب الى مراكزنا ، فهالني الا أرى « قدور » بينهم ، رغم انه كان طوال اللقاء الدامي كنيزك عجيب ، ينقض على اهدافه فيحرقها ويدمرها ويرتد بسرعة دون أن يحترق هو او يتدمر .

... وراودني في بادىء الامر احتمال بان رفيقنا قد لاقى نهايته ، ولكن الجولة التفتيشية الدقيقة التي قام بها الرفاق في حقل المعركة الضيق ، بددت كل ظل لهذا الاحتمال الاسود .

اذا اين اختفى قدور ؟ اتراه وقع في الاسر ؟ ولكن ... في اسر من ؟ وقد كان هجومنا مفاجئا للحامية القافلة بحيث استطعنا ان نبيدها ابادة كاملة دون ان نخسر احدا من رجالنا :

...وعدنا الى مراكزنا والوساس تنهش رأسي وتركل اضلاعي بقسوة ، فسيرت الدوريات في كل اتجاه لترقب وتستقصي ، وقبعت انا على تلة صغيرة اجول السفوح الساكنة بمنظاري العسكري ، الى ان كان الاصيل ، فهممت بالنهوض وقد عصبت قلبي وعيني غمامة سوداء من اليأس ولكنني ماكدت احرك قدمي ، حتى لاح لي شبح قدور وهو يتوقل السفح باتجاه خنادقنا .

ولم يلق التحية علي ، عندما حاذاني ، بل بادرني معتذرا :

ـ اسف . لقد كان من حقك علي وحق الانضباط ان استأذنك ولكنني لم افعل لانني كنت واثقا انك لن تسمح .

ـ لن اسمح بماذا ؟

وابتسم بمرارة :

ـ ان اقوم بزيارة خاطفة لكولون بيشار :

ـ ايها المجنون ... كيف تجرؤ على ذلك ؟

وهز كتفه بلا مبالاة ، ووضع يده على خنجره :

ـ لابد لي في الامر ياسعدون . لقد ظمىء هذا الى دم الانذال فأحببت ان ارويه .

ـ وهل اشبعت ظمأة ايها المجنون ؟

ـ اجل . لقد نهل من دم خمسة . خمسة من حراس المستعمرة ، اقتحمت عليهم خندقهم وهم نيام ...

ـ وبعد ذلك ؟

ـ وبعد ذلك . شعرت انه ما زال يشكو الظمأ ، فتسللت الى بيت في اطراف المستعمرة لاشبعه ريا ، ولكنني لم اعثر في المنزل الخلوى الا على عجوز فانية ..

وسألته بتعنيف :

ـ وهل انتقمت منها لامك ؟

ـ صدقني ، لقد حاولت ، ولكنها توسلت الي الا افعل . قالت لي : بأي ذنب تقتلني ؟ فقلت لها : .. وبأي ذنب قتلوا امي ؟ فبدا الاستسلام في نظراتها ، وجثت عندقدمي تنتظر قدرها بقنوط ، ولكن خنجري جمد في قبضتي ، عندما انزلقت عيناي على شعرها الابيض ، فأنهضتها ، ولم اتمالك نفسي ، فدفنت رأسي في صدرها ، ورحت انحب وأسألها بضراوة :



ـ قولي كيف تجرأ الانذال ان يقتلوها ؟ كيف ؟
فرفعت عينيها المبللتين بالدموع ، واومأت بهما الى صورة في الجـدار :
ـ ليحفظك الله انت وهـو ؟
ـ ومـن هـو ؟
ـ بـول ... وجيـدي .
ـ وايـن هـو الان ؟
ـ في خندق من هذه الخنادق القذرة التي يتوهمـون انهم يحمون بها كولون بيشار . لقد اختطفه الجزارون مني ليعلموه السفك والحقد والجريمة .
... وسرت في بدني رعشة عجيبة ، فانسحبت من بيت العجوز ، وانا ارنو الى خنجري بطرف عيني .
من يدري ... من يدري ياسعدون .. فقد يكون بول وحيدها ، احد الخمسة الذين نهل من دمهم هذا الخنجر ؟

... ولم تطفىء مغامرة « كولون بيشار » النار في قلب قدور . فقد ظل يتحرق الى لقاء ادسم ... واللقاء الادسم ـ حسب تعبيره ـ هو اللقاء مع فرقة المظلات بالذات .
وكان الامس موعد هذا اللقاء الذي لم نفاجأ به ، لاننـا في الواقع ، كنا نترقبه ، فلقد كنا نعلم ان قيادة العـدو الحمقاء ، سترسل لنا حملة تطهيرية ، كما تعودت ان تسمي حملاتها ، لتثأر لعنجهيتها الجريحة ، وهيبتها العسكريـة التي انتهكناها ، منذ ايام ، في وادي « جعفرة » . وقـد علمتنا التجارب ان قيادة العدو ، لابد ان تلجأ الى فرقـة المظلات ، حين تحتاج الى ان تعبر عن عميق تأثرها لهزيمة نكراء حلت بها ، لان هذه الفرقة وحدها هي التي تستطيع ان تلعب دورها الوحشي بنجاح يؤهلها لان تكون اداة العدو البطاشة ، ووسيلته الارهابية الاولى .
... وعند الفجر كانت طلائعهم تتسلق السفح نحـو خنادقنا ، وكانت بنادقنا ترقبهم من بين الصخور وهـم يزحفون ، فيبهرها الصيد الاحمق الذي يسعى ببلاهـة الى جعبة الصياد .
... وكان قدور اكثرنا سعادة بوفرة الصيد ، لذلـك كان يتعجل لحظة الصفر ، ويحاول ان يثب من خندقه ولكنني كنت اثنيه بان اشده من ذراعه ، واهمس فـي اذنه بحزم ان يهدأ ، فبراعة الخطة تقضي ان نوهم الطلائع الزاحفة ان طريقها خواء ، وان هدفها الذي تسعى اليه بعيد
وبالفعل اغرى الصمت المفتعل جنود المظلات واستدرجهم حتى اذا حاذوا خنادقنا المخبوءة اندلق عليهم اللهب مـن كل مكان ، من خطوطنا الثابتة والمتينة ، وبدأت حلقـة نيراننا تضيق حولهم وتشد عليهم الخناق ، فتوقع فـي صفوفهم البلبلة والاضطراب ، وتكرههم على التماس سبل الخلاص ولا خـلاص .
في هذه اللحظات المتوترة الرهيبة افتقدت « قدور » فاذا به قد وثب من الخندق ، وانطلق كالصاعقة المجنونة يتعقب جنود المظلات : يعاجل القريب منهم اليه بضربة خنجر او حربة ، اما من كان بعيدا عن متناول زنده ، فرصاصه كفيل بان يطاله فيرديه .
... وخشيت على قدور ان يصرعه رصاصنا ، وأثرت ضنا به ، ان نتيح لفلول المهاجمين حظ الانسحاب ، فأمرت بالكف عن الاطلاق الكثيف والاكتفاء بالقذف الهادف ، وصحت بـه مـن خندقـي :
ـ عد الى خندقك ياقدور . اني امرك ان تعود .
... وتلكأ قليلا في اطاعة الامر ، رغم ماعهد فيه مـن مناقبية الانضباط ، وراح ينكفىء نحونا ببطء ، وهو يلاحق برصاصه الحاقد ، الاشباح المروعة التي كانت تعدو منهزمة باتجاه الافق البعيد الحاني على كولون بيشار .
وعند ماصار على مئات الامتار من خنادقنا بدا لي انـه ليس على مايرام وانه يسير مترنحا ، فقفزت من حفرتي وعدوت نحوه ولكنني ماكدت اصبح على خطوات منه حتى انهار وسقط الى الارض يحتضنها بكلتا ذراعيه .
ومددت يدي الى صدره اسد جرحه بهلع ، فرنا الـي بعينيه السوداوين وراح يوزع بسمته الراضية الاسيانة بيني وبين رشاشه الحبيب المنطرح عند قدميه كالكلـب الوفي ، وظلت هذه البسمة تروي لي بصمت ، ملاحـم بطولته الى ان انطفأت الجذوة في عينيه ، وجمد على اناملي دمه الشهيد :

ما اتفهني يازياد : هل قلت لك ان قدور قد مات ؟
وكيف يموت من تنكس مئات البنادق رؤوسها امـام حفرته لتقسم له بصمت وخشوع انها ستثأر لدمه وانهـا لن تنسى ابدا ذكراه ؟
ان قدور لم يمت ياصاحبي . لقد غرسناه في ظل شجرة زيتون ، غرسناه على سفح اخضر من سفوح الجزائر . غرسناه في التربة الوفية التي تعودت ان تنبت الحب والبقل والامل والفداء ، ونحن واثقون ان هذه الارض الطيبة الخيرة ستنبته عما قريب ، حرية تدحر الطغاة ، وفجرا يمـزق اوصال الليل ، وسجف الظلام .

احمد سويد بيـروت



بعث جديد !

انا ، والرفاق ، ووالدي الشيخ المريض
ونساء حارتنا العجائز ، والصغار
نصغي ، ونصغي ، والمذيع
يصيح : « صوت من جمال »
وترف اعيننا على المذياع تلتهم الكلام
في لهفة الافراخ جاءتها الاومة بالطعام
ويهل صوتك ياجمال !
فجرا ندي الضوء ، ريان الظلال
افقا من الاطياب ، مسحور العبير
واحات ظل في الهجير :
« يا اخوتي .... يا كادحين .. »
« يا زاحفين الى النهار ... »
« اليوم فجركم المبين .. »
« اليوم ينتصر النهار .. »
ونظل نرتشف الحروف المسكره
حتى نغيب .

★

واغور في جوف السنين
وأدور في دوامة الذكرى ، ادور مع السنين !
فيلوح لي يوم حزين
يوم كأني الان المحه يجر رفاته
عبر الدروب .
عبر البيوتات الحزينة .. والقبور
في ضيعتي ، عبر القرى السوداء في ريفي الكئيب
وتلوح اشباح الرجال المتعبين
الزاحفين مع المساء ، الى البيوت
اللاهثين كأن واحدهم يموت
ويلوح لي بيت يكفنه الظلام
وانا صغير .
وانا وأمي والصغار يلفنا
بيت يكفنه الظلام ،
وتدور في الحارات انباء القتال :
« ضربت دمشق من جديد
زحفت جيوش الغادرين الى الجبال
ضربوا البلاد ، وأحرقوا حتى الحقول
بيروت .. غورو .. .ميسلون
سقط الشهيد » .
ويغص بالدمع الرجال المخبرون
واجيل طرفي بينهم ، طرفي الصغير
هذي العجائز كلها تبكي ، وأمي والصغار
والعائدون من الحقول
صفر الوجوه ..
والليل يزحف عبر قريتنا كعملاق رهيب
والرعب ، قطاع الطريق الوغد ، يقتحم الدروب
ويمد شدقيه ليبتلع الدروب
وتموت ضيعتنا ، تموت مع الظلام
وهناك في البيت المكفن بالظلام
أمي تلفلفني وتصرخ في جنون
« لا يا صغيري : مستحيل
لن يقتلوك
« أولئك التتر الغزاة
لن يقتلوك
لن يدخلوا بيتي الامين
ثوارنا الابطال لن ...
لا بد ان .. لا بد ان ..

★

ويعود صوتك ياجمال !
كالضوء كالشلال يدفق ، كالجبال
كهدير نبع في الصحاري الظامئات
كالرعد ، كالبركان ، كالقدر العنيد
كالصور ينفخ في قبور الراقدين ..
وتهب ضيعتنا ، وتسمر الوجوه الشاحبه
والعائدون من الحقول يزغردون
وأنا وأمي والرفاق ووالدي الشيخ المريض
ونساء حارتنا العجائز ، والصغار
واللاهثون الميتون
يستيقظون ويرقصون
في يوم بعثهم الجديد .

دمشق

محمد عمران



الظواهر المختلفة التي يعج بها عالمنا هذا والتي تتمثل فيها دينامية الحياة في اشكال متعددة وطاقات مختلفة تستمر في حالات تطور لا ينتهي ، تفرضه طبيعة تكوين المادة من جهة وميتافزيائية الحياة من جهة ثانية . ويشمل هذا التطور كل مادة وكل كائن حي في كوكبنا الصغير هذا. غير ان الفرق بين تمثل التطور في المادة وبين تمثله في الكائن الحي فرق كبير كبر التباين الواضح الكائن بين الظاهرتين . فالمادة تتطور تطورا لا « قيمية » فيه ان في الاعتبار النسبي وان في الاعتبار المطلق اذ ان قوام التطور في المادة هو هذا التغير الحتمي الذي يحصل في ثنايا الكتروناتها او بروتوناتها ، واما في جهر فردها (١) Atome

واما في ذراتها molecule بكل التغيرات الفيزيائية والكيميائية المعروفة في عالم الاتحاث العلمية . فتحول الاجسام العضوية التي فقدت خلاياها ، استمرارها الحيوي الى اجسام كربونية مثلا لا يفقد المادة الجديدة التي انتهى اليها هذا التحول « قيمتها » من حيث الطاقة الكامنة فيها اطلاقا ، لان هذه الطاقة ، في حدودها الكلية ، تبقى صالحة للزيادة كما تبقى صالحة ايضا للنقصان . فقيمتها بالنسبة للنظام التغيري غير الرتيب للارض لا تتغير في جميع مجالات تفاعل الطاقات . وهذا ما يدعونا لاقصاء كلمة « التطور » عندما يكون البحث مقصورا على المادة وحدها والاستعاضة عنها بلفظة التغير .

اما بالنسبة للكائن الحي فان الامر يختلف كل الاختلاف لان الكائن الحي يحمل « قيميته » في ذاته ، اي في المجموعات المنوعة التي تتمثل فيها استمرارية الحياة . والكائن الحي لا بد له من ان يتناغم مع التغير المادي الذي يحدث في بيئته اما بصورة رتيبة متعاقبة واما بصورة دفعات فجائية تكون غالبا على نطاق واسع وبتحول جذري.

وعدم تناغم الكائن الحي مع التغير الذي يصيب بيئته يعرض واحدة او اكثر من واحدة من مجموعاته (الانواع) الى الفناء والذوبان في مجالات الطاقة المادية . ولما كانت البيئات الفيزيائية في حالة تغير دائمي نسبيا كان لا بد للكائن الحي من تغير دائم نسبي ايضا . فقد يرحل سرب من الغزلان من بادية تكيف السرب حسب طبيعتها نتيجة تعاقب اجيال عديدة الى بادية اخرى لاسباب طبيعية معينة. وقد تكون هذه البادية الثانية مختلفة في لون ترتبها ، مثلا عن البادية الاولى التي تأثر لون السرب بلون تربتها . فاذا بقي لون السرب متغايرا مع لون البادية سهل ذلك للحيوانات المفترسة المختلفة التي تعيش ايضا في البادية ذاتها اكتشاف غزلان السرب عن بعد وسهل بالتالي قنصها وافتراسها غزالا بعد غزال . هنا تنبعث الحاجة الى التطور فتنشط العوامل الطبيعية في عملها وتكون النتيجة ان يشذ غزال في لونه فيكون به أقرب الى لون تربة البادية . وينتقل اللون الجديد الى الاجيال القادمة بالانتقاء وبصورة تدريجية بينما تستمر غزلان السرب التي لا تستجيب لهذا التطور في الانقراض تدريجيا ايضا الى ان يعم اللون الجديد السرب القديم

غير ان الامر لا يقف عند هذا الحد . فالبيئة الفيزيكية في تغير مستمر ان بسبب انتقال فصائل من الحيوان من بيئة الى اخرى كما كان في المثل الماضي وان بسبب تغيرات مختلفة تصيب البيئة ذاتها . لذلك تبقى الحاجة الى التطور حاجة مستمرة ويبقى التطور ذاته تطورا مستمرا ايضا .

اما عن الانسان ، وهو ارقى انواع الكائنات الحية ، فان الامر يبلغ الذروة في الاختلاف لان الانسان ، هذا الانسان الذي انتقل دماغه من مرحلة كونه ضابطا لحركات الاعصاب في استقبالها لانواع المؤثرات الخارجية وفي انفعالها بها ثم في تاريخه الطويل الذي يصعب تحديد مداه بادوار ومراحل معقدة متشابكة ميزت حياته بمعالم جديدة كثيرة

«١» الجوهر الفرد

اصبحت جزءا من وجوده واستمراره .

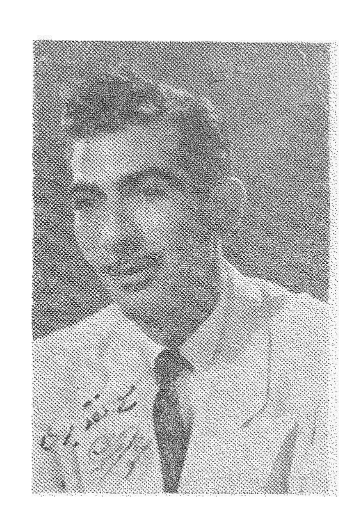
وعرف هذا الانسان بعض معاني ذاته وادرك بصورة عفوية حينا وتحليلية حينا اخر ارتباط التطور بحياته واهمية هذا الارتباط ، وانتبه في الوقت ذاته الى قدرة هذا العقل الجبار الذي اصبح يملكه فصار - كفرد - يرى هذ التطور بطيئا في تكيفه ، ثقيلا في صعوده ، منكمشا في انطلاقه .. حتى اذا استبطأ المرحلة القادمة في استمراره التكاملي ورأى في الوسط الذي يعيش فيه اوضاعا خاصة ادرك انها في جملة العوامل التي تريه المرحلة القادمة بعيدة، وجد نفسه في حاجة الى اصطناع موقف ما ، موقف يدنيه من المرحلة الجديدة ويخفف عنده من التوتر الذي تولد نتيجة لادراكه ووعيه للمرحلة هذه ، ونتيجة لشعوره بعراقيل معينة تقف في طريق وصوله اليها . ومن طبيعة هذا الموقف الدينامية المستمرة الفاعلة التي لا تهدأ طالما تبدو وراء كل مرحلة مرحلة اخرى جديدة اكثر تكاملا واوسع افقا . وفي هذا الموقف الذي يتخذه الانسان في بعض وعيه لذاته وفي ادراكه لتطوره وفي بعض استيعابه للاهداف الكلية التي تسير به الحياة اليها وعيا ودراكا واستيعابا يتمثلها في مجموعها شمولا لا قيود له ولا تخدم في هذا الموقف تكمن هيولي النفسية الثورية وبالتالي الثورة ذاتها .

واذا خطونا من هذا المنطلق خطوا سريعا لننقض بعده انقضاضا فكريا واعيا على مفهوم الثورة انتهينا الى نتيجة هي ان الثورة دفق حياتي تياري الحركة يحس به ، ويدرك مداه ويستجيب له الفرد الانساني ، غايته اقتلاع المسافات التي تفصل بين مرحلة واخرى من مراحل النوع الانساني الصاعدة .

ولا شك ان الثورة - وهي استعجال المراحل المتعاقبة كما استنتجنا - تحقق من المكاسب المختلفة ما يعجز السير الرتيب عن تحقيقه . وبقدر ما يستوعب المجموع - المجتمع او الامة - قيم هذه المكاسب التي حققتها الثورة بقدر ما تتضح معاني الثورة في ذهنه معاني مثمرة فيها البذل والعطاء .

وانقلاب هذه المكاسب وتحول هذه المعاني في نفسية الفرد او المجتمع الى مثل ذات حركة يتصورها الانسان في فرديته ومجتمعيته ، واضحة ويدركها شاملة ويتمثلها تمثلا عفويا فيه كل ذوب الاستيعاب العقلاني ، ثم يحياها كلا لا يتجزأ - هذا الانقلاب وهذا التحول هما الخطان الرئيسيان اللذان يعرفان سيكلوجية الثورة .

دمشق — **اورخان ميسر**



الى جميلة القضية!

١ ـ هدية الميلاد

يا قضيه !
أتبناها بأعصابي ، بخلجي ، بحياتي،
ما الذي اهديك والميلاد آت ؟
لم يفتح بعد زهر البيلسان
ليس في كفيَّ تبر او جمان
لم يخلف لي مجوس الارض مرا أو لبان ،
لم أجد غير حروف عربيه
مثل عينيك لها كبر الزمان
وخلود الابديه
فاذا جاءتك في أعماق سجنك
فاحضنيها كهديه
انها أصداء موجات سخيه
من مجادات الصحاري العربيه
ان فيها من شذا التربة نفحات زكيه
ياقضيه
شرف الحرف بأن يهدي اليك !

٢٢ ـ النجمة والمولود والمغارة

مثلما استهدوا بنجمه
ليلاقوا الماجد المولود في ليل المغاره
ها أنا المح ـ تقتات المراره
صبر ايامي فوق الافق نجمه
يا قضيه
هذه النجمة لآلاء العروبه
والمغاره
سجنك الراقد في ليل الرطوبه
غير أن الماجد المولود في حضن المغاره
هو انت ،
يامسيحي يامناره
ياارتعاش الحلم في احداق امه
يا ضياء البعث يا نور الطهاره
يا قضيه

٣ ـ غيمة في الافق

ربما جاءتك انباء تقول
ان بغدادا نضت عنها الهوان
وربـاع الارض عادت عربيه
وجرى صفو الزمان
عبر ماء النهر وانهد الدجان
ومضى الليل بجنكيز الجبان
ربما جاءتك انباء تقول
ان بغدادا نقيه
ولدت في قلب تموز ابيه
نجمة وضاءة الانوار زهاء الفصول
ليس في أنحائها سجن وجلاد وغول
والدم المطلول قد جف على سود المشانق
ومضى ليل المخافه
فالبنادق
لم تعد تخنق صبح الكرخ أو قلب الرصافه
ربما جاءتك انباء تقول :
رجعت أحلى ليالي شهر زاد
وانا اشفق أن تأتيك أنباء تقول
ان اعواد المشانق

نصبت ثانية في قلب بغـداد الصبيه
وبـأن الليـل عـاد
ليل جنكيز ونوري ليل جزءاري العباد
ليـل مصاصـي العيـون
يا قضيه !
كذّب الله الظنـون !

٤ ـ ليـت لـي

يبعث الناقوس دقـات شجيـه
عبر صمت الليل ، ها عام تولـى
نحن خوّضناه ، عشناه بأعصاب قويـه ،
وعرفنا فيه أفراحا وأتراحـا وأيـاما عصيـه
هـوذا عـام تولـى
نحـن توجنـاه بالوحدة ، شرفناه ، أرقصناه كبرا
ثم أرخنـاه في أعماقنا ، في كـل خاطر
يا قضيـه !
ليت لـي طفـلا فأدعو ابن بللا
او فتاة فأسميهـا جزائـر

٥ ـ النـار المقدسـة

طبتِ نفسا امس واليوم اطمئني ،
لـم تزل بعـد السرايـا
تتحـدى المـوت والليـل وأبنـاء البغايـا
والعجـوز البهلـوان ،
لـم يـزل فـي القمم الشمـاء مـن أوراس
ثـوار يخوضـون المنايـا ،
لم يزل بعد لهيب الثورة العرباء مشبوب الاوار
لـم تـزل بعـد الضحايـا
تتـوالى وفـم الكبـر يغنـي
للسـرى ، للزنـد يجتث الدجـان
ويغنّي المعمعـان
ويـرش العنفـوان
فـي عيـون الارض ايمانـا ويحدو للنهار
يا قضيـه
كل حرف ها هنا غمسته في مجد لحنٍ
مـن لحون الكبر فـي اوراس
يشدوها الاباة الصيد ، افديك ، اطمئني

٦ ـ فيمـا بعـد

ربمـا غنيت لحنـا للسـلام
بعـد عـام ،
بعـد عامـين ثلاثـه ،
الـف عـام ،
غيـر انـي لـن اغني الان مادام السلام
حائـلا يمنع عن فجـري انبعاثـه .

٧ ـ حكايـات تطـول

يا قضيـه
غصص تملأ صدري يتمطى في جفوني
وحكايـات كعينيك حـزينه
تتنزّى في ضلوعي ، وتغذيها شجوني
ابدا أكتم آهـي ، ويذيب الحقد آهـي
واداري شجنا عرّش في قلبي
واقعـي في شفاهـي ،
هـوذا قلبي يصلي
ليلة الميلاد يعنو في صلاتـه
علّه يلقـاك فـي اعماق سجنك
علـه يسكب ملتاعا حكاياه الحزينـه
علـه يسكب في معبدك القدسي مشغوفا لحونه
ليت ، هل تنفع يوما ليت ، ما اقسى التمني !
يا قضيـة !
ان قلبي مثل عينيـك حزيـن .

دمشق — **خليل الخوري**

من جمعية الادباء العرب

★ ———— ★



خبز الفداء ...

قصة بقلم سميرة عزام

ود حين ناوله ابراهيم غليونه محشوا بالتبغ لينفس به عن ألمه لو يدعه يتصرف كطفل فيبكي .. انه يشعر بالدموع تنبجس وتغرق عينيه فيدير راسه ويمسحهما خفية بطرف كمه ، ويروح يداري اله الخجول بان يمد راسه من فوق المتاريس ، ثم يلتفت لرفاقه فيجد في سكونهم تفجعا يدفع الدمع الى عينيه ثانية ويرى كل شيء في هذا الليل الصامت الذي يطل عليه هلال غائم بعيد ألما يجسد انسحاقه .. وكان كل ما في الكون يدري بان له حكاية وان اكثر ما يشتهيه في هذه اللحظة ان يمارس ترف الحزن بتلقائية ، فهو الساعة اضعف من ان يصطنع اي جبروت واكثر ما يريده هو ان ينفض اخوانه من حوله قليلا ليعود انسانا يخلع قناع الصلابة ويبكي ، يبكي بلا خجل .. ورفع كمه يمسح عينيه واحس بخيوط القميص الصوفي تخدش جفنيه .. وتذكره بتعويذتها التي يلبسها والتي سترد عنه - كما قالت - كل رصاصة غدارة .

اجل انه يتذكر تلك الليلة ...

ليلة كهذه هلالها صغير وبردها يقرص الاجساد وكان مكلفا بحراسة مستشفى صغير اقامه الحرس القومي في بيت من بيوت المدينة مؤلف من أربع غرف حجرية وحديقة صغيرة ، وكانت اسرة المستشفى الثمانية مشغولة بثمانية جرحى حملهم اخوانهم بعد معركة انصبت النار فيها من مستعمرة نهاريا اليهودية على القرى العربية في قضاء عكا .. واحضروهم ليسعفوا بالمستشفى ثم اختارته لجنة الانضباط ليقوم بحراسة المستشفى الواقع في طرف من اطراف المدينة تفرقت فيه الدور وتباعدت. اجل باردة كانت الليلة ولم تحمه كوفيته ولا معطفه السميك من وخزات البرد اللاذع ، فكان ما يفتأ يتمشى ليمنع الدم من ان يتخثر في شرايينه ثم يعود اذا ما تعب ليتكىء الى جدار المستشفى قريبا من الباب .ويرقب من بعيد دور المدينة التي تنام نوما تهدده أية غارة مفاجئة .. ولا يدري كم كانت الساعة بالضبط فقد خبت الانوار الا تلك التي تتوج اعمدة الطرق العامة ، وسكت الليل الا من أصوات ابن آوى .. التي تبلغه من بعيد ..

اجل لا يدري كم كانت الساعة بالضبط حين شعر بها الى جانبه في ثياب التمريض البيضاء تساله اذا كان يريد فنجانا من الشاي ، انه لم يفكر في الشاي ولا في اي شيء اخر .. ولكنه احس بانه يريد اي جسم حار يشد اليه أصابعه المقرورة . فقبل شاكرا . ولما عادت تحمله اليه جرعه في اربع رشفات حتى لا يدعها تنتظر طويلا ولما رده اليها فارغا غمغم بكلمة شكر ، ولكنه فكر بعد ان انسحبت بأنه كان من المناسب ان يلاطفها بسؤال ... وادار راسه يبحث عن ظلها خلف النافذة ولكنها لم تلح .. وفكر في أن يشكرها في الصباح .. ولكن من عساها تكون .. ان هناك ممرضتين وهو لم ير منها الا بياض ثوبها فكيف يتعرف عليها ؟ ولكنه في الليلة الثانية عزم ان يكون اكثر طراوة لو حملت له الشاي .. وانتظر طويلا ولكنها لم تحضر .. وقال في نفسه انها مشغولة عن شايه بمن هم احوج الى عطفها .. فلماذا لا يطرق الباب ويطلب الشاي بنفسه ؟ واستحيا ان يفعل .. فقد ترى في ذلك لونا من التحرش وليس ثمة شيء يؤذي احساسه مثل ان يكون متطفلا على وجه ما .. ها قد خبت الانوار ونامت المدينة وحملته واخوانه مسؤولية السهر . وفي مثل هذا الوقت بالامس شرب شايها .. وفرك اصابعه التي أثلجتها ماسورة البندقية واشتهى شيئا حارا يبعث فيها الحرارة .. ورفع يده الى فمه لينفخ فيها واذ بشبحها الابيض يجبهه وبصوتها يقول .. « لقد احضرت لك شايك دون سؤال .. لن ترفضه بالطبع .. »

ورفع عينيه وحدق في وجهها .. ومد يده المقرورة ليحمل الفنجان .. ورأى من اللياقة ان يقول لها شيئا قبل ان يشرب ..

« الا تجدين المهمة شاقة عليك ؟ »

وفي حدة لم يتوقعها ردت عليه :

« هل تجدني اضعف من الواجب ؟ »

« انا .. لا لا ابدا .. »

ولم يدر ما يقول فرفع الفنجان الى شفتيه ، وجرعه بسرعة سلقت حلقه .. واعاده اليها دون شكر . ولما ابتعدت قليلا .. ناداها .. لماذا لا يسالها عن اسمها .. ماذا في الامر ..

« يا آنسة » ..

وقفت ..

وتقدم منها : « آسف .. هل يمكن لي أن اعرف اسمك ؟ » وضحكت قبل ان تقول ..

« لم لا .. نحن هنا اخوة .. اسمي سعاد » ورد عليها : « وانا رامز . ورفاقي يسمونني العريف ، الا نتصافح » ؟ واعطته يدها ضاحكة ثم انسلت بخفة كما جاءت ..

سعاد .. عجيب وهذه سعاد أيضا .. يبدو ان له حظا مع الاسم .. فقبل ايام قدمت اللجان النسائية في البلد هدية الى الحرس القومي

من القمصان الصوفية والبطانيات .. قامت بحياكتها فتيات المدينة وكان في كل جيب بطاقة تحمل اسم الفتاة التي حاكتها وعبارة تشجيعية قصيرة . انه ما يزال يحتفظ بالبطاقة .. ومد اصابعه وتحسسها واخرجها ثم اشعل عود ثقاب اضاءت معه الحروف « سعاد وهبي » وتحت الاسم كانت هذه العبارة (ارجو ان تكون من نصيب بطل)

واكلت النار العود واختفت الكلمات فأعاد البطاقة الى جيبه ... اتكون هي .. لو كانت هي بنفسها افلا تكون صدفة حلوة ؟ والتفت الى الباب .. ولكنه كان مغلقا ..

وفي الليلة الثالثة تعمد ان يبدأ نوبة الحراسة باكرا ليجد مجالا لدخول المستشفى والسؤال عن الجرحى ... كان الباب مفتوحا فدخل ... ورآها تحمل صينية عشاء لاحد الجنود فحياها .. وسالها اذا كان بوسعه ان يزورهم .. فقالت .. « لم لا . اريدك ان ترى حسان .. ليقص عليك قصة المعركة.لقد سمعتها منه عشرين مرة ، ولن يؤذيني ان أسمعها للمرة الحادية والعشرين » وتبعها ..

وامام سرير حسان المضمد الرأس وقف كما وقفت هي وضحكا وهما يستمعان الى الجريح يقول .. « ان الاخت سعاد ممرضة صارمة تريد لي ان اتمدد كالجثة وتحرم علي التدخين باخفائها سجائري .. » واتيح لرامز ان يلحظ وهي تضحك ان لها اسنانا شديدة البياض وان لعينيها بريقا يعكس ارادة لا ترد ... وشجعه الجو على أن يسأل حسان ..

« ولكن الا توافقني على انها طيبة » ..

« طيبة ؟ انها اطيبهن جميعا .. أكثر طيبة من امي العجوز .. ما تفتأ تدور بيننا تسقي هذا وتطعم ذاك وتلبي اجراسا تقرع في كل الغرف ، فاذا وجدت لحظة للراحة جلست قريبا من الباب وشغلت نفسها بالحياكة .. »

« حياكة ؟ »

وتذكر القميص ومد يده فحل ازرار معطفه السميك وسترته وكشف عن قميصه الذي يرتديه واقترب خطوة منها وقال ..

« اتعرفين هذا القميص ؟»

« اوه .. أكان من حظك ؟ »

« الا استحقه ؟ »

« بلى »

« انني احتفظ بالبطاقة .. لاتذكر دائما مسؤولية البطولة » ... واستدعاها جرس ملحاح فتركته وحسان الذي ساله عن سيجارة اقسم الا يدخنها الا اذا سمحت له ..

*

ومضى اسبوعان وتماثل الجرحى للشفاء فغادروا المستشفى الا واحدا نقل الى مستشفى إخر .. وانتهت مهمته في الخفارة وعاد الى عمله في تدريب طوابير الفتيان على حمل السلاح . وكان يستقبل طابورا ويودع غيره حتى اذا هبط الظلام حمل بندقيته ومضى الى الخفارة الليلة فلا يعودالا وقد تلونت السماء باضواء فجرية ليرتمي على سريره الحديدي في الغرفة الوحيدة التي تشكل بيته .. وعندها يجد وقتا ليفكر فيها ..

لقد انقضى اسبوع لم يرها خلاله فاين عساها تكون .. لماذا يحس بانه مدفوع الى الاهتمام بها ، مدفوع الى محبة القميص الذي حاكته ؟.. ولقد اكتشف بالامس شيئا ، فحين قام يلبس في الصباح حمل القميص في يده وراح يتامله .. لقد عاش اياما بين يديها وهي تبنيه غرزة على غرزة دون ان تدري لمن يكون .. لعلها رسمت في ذهنها صورة للرجل الذي سيرتديه وهي بالتاكيد قد اختارته ان يكون طويلا عريض الكتفين.. رجلا تعلق فيه أمل البطولة .. والتفت الى نفسه في المرآة المعلقة على الحائط .. وتحسس ذراعيه المفتولتين وضحك على سخفه وهو يتامل نفسه .. ولكن أي ضير ان يكون سخيفا فيرفع مثلا القميص ويشمه طويلا ويقبله ايضا ؟ ..

ورآها في الطريق .. لم تكن في ثياب المرضات .. فاعترض طريقها قائلا ..

« كدت لا اعرفك فما كنت يوما الا بيضاء .. »

واعطته يدها يصافحها وقالت ..

« لقد غادر مرضانا المستشفى .. انني لا اجد ما افعله اليوم .. وانت ماذا تفعل ؟

« طوابير تدريب في النهار ، خفارة في الليل ، ولا شاى .. »

ورنت ضحكتها الفضية .. وضبطته يتطلع اليها فاحمرت .. وهمت بان تمضي وبسرعة قبل ان يضعف امام خجله سألها شيئا ..

« ارجو الا تظنينني وقحا .. هل أستطيع ان اراك في مكان ما .. ؟ »

« بلدتنا اصغر من ان تسع لنا .. »

« ولكننا اخوان سلاح .. انني ادرب طوابير من الجنسين على استعمال السلاح .. تعالى الى نادي الميناء سنتحدث قليلا بعد ان افرغ من التدريب ..

واتفق على حضورها في الثالثة ثم انهمك في تدريب طابور ناعم كيف يقف وقفة لا ترتعش تحت بندقية ثقيلة .. ولمحها تدلف .. فتجاهلها حتى انتهى وصرف تلميذاته واتجه يحييها ويقدم لها كرسيا ويسحب لنفسه آخر ..

ـ الا تتعب ؟..

ـ واينا لايتعب ؟ .. ولكنني بعد ان عرفت ما يدور في مستعمرات اليهود من تاهب وتعبئة قوى تمنيت لو كان يومنا ستين ساعة .. ان امامنا عمليات رهيبة ..

ـ اخائف انت ؟ ..

ـ متحسب .. لسنا في موقف هين .. يخيل الي ان اليهود زرعوا مواسمهم اسلحة .. وملاءوا بطون مستعمراتهم بها .. لقد اكتشفنا اشياء كثيرة ..

ـ هل ذهبت بنفسك ؟ ..

ـ كثيرا قبل ان يتوتر الموقف .. اما الان فلا استطيع ، انني على لائحتهم السوداء ..

ورآها تتامله ثم انفرجت شفتاها وتألقت في عينيها تلك النظرة الحازمة ..

ـ اتدري لقد بت اصدق انك بطل ؟ ..

ـ بطل .. لا اظن .. ولكن بطاقتك توحي الي بان اكون .

ـ اما تزال محتفظا بها ..

ـ هي ذي ...

واعطاها لها ، ولما مد يده ليسترجعها ضغط على يدها قليلا ثم ارخاها ، وتركها تداري خجلها متطلعا الى البحر الازرق امامه .

كان الوقت ربيعا .. وربيع فلسطين بحر ازرق تتهادى عليه اشرعة المراكب البيضاء نهارا وترصعه فوانيس قوارب الصيد ليلا وبساتين برتقال يكثف عبقها الهواء .. وفي ربيعه ذاك عرف شيئين .. الحب

والحرب .. وكان الاول يعطي معنى للثاني . فالحرب ليست عدوا يقتل لشهوة انما هي حق حياة للارض التي يحب ، والفتاة التي يحب ، ان فلسطين ليست بحرا ومراكب صيادين ، وليست برتقالا يتعلق كالذهب ، وليست زيتونا يملأ الخوابي .. انها عينا سعاد السوداوان ايضا .. وفي عيني سعاد راى خير فلسطين كله .. راى ظل بيت سعيد له . وزوجة تنجب له ابطالا صغارا .. وتجعل من حبها معنى لوجوده ..

ومع كل اطلالة يوم .. كان يستقبل خيالها .. جنبا الى جنب مع انباء المعارك في صحف الصباح .. معركة القسطل ، هجوم قومه من مثلث الرعب على قرى اليهود .. غاراته واخوانه على مصفحات اليهود المتسللة على طريق حيفا ـ عكا ـ نهاريا ـ ، بطولة قومه في سلمه ، في كل مكان ..

ثم كانت كارثة حيفا ..

لن ينسى ذلك المساء ..

كان مشغولا بصف التدريب .. حين التفت الى البحر فاذا بعشرات المراكب محملة بالناس .. وتجمهر اهل مدينته على السور وفي منطقة الميناء يستطلعون .. كانوا على علم بالمعارك التي تدور في حيفا وكانوا يدرون ان سلطات الانتداب قد مكنت لليهود من المراكز المحصنة سرا في حين ادعت انها لن تتخلى عن المدينة الا بعد انتهاء فترة الانتداب بشهور ، ولكنها فجاة اعلنت عن اضطرارها لاخلاء المدينة ..

وانصب الهول من الكرمل على العرب الذين يعيشون في السفوح ومهدت السلطة لحالة ذعر بحرب اشاعات فتحت معها الميناء واطلقت سفنها تحمل كل راغب في رحيل ، فتكدسوا فيها والنار تلفظ هولها عليهم من الجبل ..

ولفظتهم السفن على ساحل عكا .. كتل بشرية .. يئن بعضها من الجروح ، وبعضها من الجوع ، وبعضها من الفزع ..

وامتلات بيوت مدينته ، مساجدها ، اديرتها ، ساحاتها بهم .

وتحملت مدينته الصغيرة عبء تدبير طعام ومأوى لهذه الالاف ..

وفي تلك الليلة راى سعاد مع عشرات المتطوعات يستقبلن الجرحى في الميناء ويوزعنهم على المستشفيات والبيوت .. وبدأت حرب الاشاعات تلعب في الاعصاب ..

استيقظ في صباح اليوم التالي على قرع شديد على باب غرفته وفتح الباب وذهل اذ رآها .. كانت تبكي ..

قالت له ان اخاها قد دبر شاحنة حشد فيها كل ما يحمل ثم وضع فيها زوجته واطفاله ونفسه ليرحلوا الى لبنان .. وان عشرين اسرة من حيها قد فعلت فعله ..

وقد فرض عليها ان تصحبهم فرفضت وقاومت فضربها فلم تجد امامها الا الفرار ..

انها آخر من يسافر ..

وأذهلته المفاجأة .. لم يدر ما يقول لها وظل صامتا ، ولما قرعت صدره بقبضتها سأل « هل فعت هذا بسببي ؟ » وانفجرت في وجهه .. « لا ليس بسببك .. صحيح انني احبك .. ولكنك لست كل شيء »

قالتها وانصرفت .. وفتح الباب وخرج الى المدينة ليجد عشرات السيارات كبيرة وصغيرة محملة وفارغة وقد اطلقت دواليبها للريح .. وخلته مذهولا .. لا يدري هل يبكي ، هل يصيح ؟ هل يقذف هذه السيارات بحجارته ؟ ..

وفي اسبوع فرغت المدينة الا من شاكي السلاح .. ومن بضع ممرضات توزعن على المستشفيات الصغيرة . ومن النازحين اليها من حيفا او القرى .. ولم يعد يجد وقتا للقاءاته بسعاد .. فاعداؤه في الشمال وفي الجنوب يتربصون الفرص ليطبقوا على المدينة .. كان في النهار يتسلل الى القرى يجمع البنادق والذخيرة ، اما لياليه فللحراسه مع خمسة غيره يقبعون وراء المتاريس المقامة على ظهر مصنع للسجائر ... تعطل فيه العمل .. كان لا بد للمدينة من الصمود حتى تبدأ معركة اخرى على مستوى جيوش بعد انتهاء فترة الانتداب ..

هذه هي مهمته التي رسمتها اللجنة القومية للمدينة .. وحين كان يجد وقتا يسترخي كان يجد وقتا ليفكر بسعاد وليتساءل كيف تراها تعيش وتحت اية ظروف ، وصعق مرة حين رآها امامه كانت تلتف بمعطف وقد حملت صرة كبيرة ..

وحار كيف يتلقاها ولكنها هونت عليه الامر حين فتحت الصرة وقالت موجهة حديثها لكل الرفاق « لقد خشيت اللجنة ان تفرغ مؤونتكم فتطوعت لحمل هذه الاشياء . »

وفتحت الصرة على خبز وسجائر وحلوى ، وفتحت عينيها على نظرة له دلقت كل شوق العالم ، فاثارت انفعاله لدرجة ود معها لو يضمها امام رفاقه جميعا ..

ولقد راى من حقه وحده ان يمشي معها قليلا وهي عائدة وان يمسك باطراف اصابعها بيد مرتعشة ثم يرفعها الى فمه دون ان يجد ما يقوله غير ان يتوسل اليها الا تعاود مثل هذا الجنون ، ثم ابتعدت ووقف يرقبها حتى ابتلعها احد المنعطفات ..

وتكررت زيارتها ..

لم تكن تلبث اكثر من دقائق ولكنها كانت كافية لتشحن احاسيسه وانفعالاته بشكل يتعبه ويسعده معا ! ..

الى ان كان اول الاسبوع ..

واشتدت المعركة وجارت النار طيلة ليلتين ونهار كامل وقسم من النهار الثاني ..

كانت سيارات اليهود المصفحة تتجه على الطريق العمومي الى نهاريا . وكان عليهم ان يقطعوا عليها الطريق بالمدافع المبثوثة على الدور القريبة من الطريق ..

ولم تهدأ المعركة الا في الثالثة من عصر اليوم التالي ، فانفضوا عن المتاريس واستلقى بعضهم على الارض ونزل هو يغتسل من حنفية الحديقة تمهيدا لزيارة للمدينة يستفهم فيها عن خطة الحرس القومي في سحب السيارات المصابة الى داخل المدينة .

وكان الصابون يغمر وجهه حين انبعث صوت رصاصة فثانية فسارع يزيل الصابون عن عينيه حين ثقب اذنيه صوتها ..

والتفت الى باب الحديقة فرآها تمرق منه .. وصرتها بيدها ، اما الاخرى فكانت على صدرها .. لم يصدق ان بها شيئا وقد كانت واقفة على قدميها ولكنها ما لبثت ان ارتمت عليه وبدأ الدم يندلق من صدرها فسد جرحها بيده ونادى على رفاقه الذين سارعوا بالقاء ستراتهم لتمتص دمها المسكوب .. وفتحت فمها لتقول شيئا ولكن الحشرجة خنقت كلماتها ثم انتهى كل شيء بشهقة ..

حدث هذا بسرعة لم يصدقها .. دقائق وضعت حدا لكل شيء فكيف كيف لم يجمد الزمن ؟.. كيف تركها تموت ، كيف لم تنتفض تحت قبلاته نداءاته الملتاعة .. كيف لم ترتعش تلك الجفون وهي تشرب كلمات حبه الاولى ..

ماتت .. كيف ورائحة شعرها في انفه ماتزال .. وحرارة يدها تأكل كفه ، وطعم شفتيها الرطبتين على شفتيه .. لم يكن في نظرتها موت ، في عينيها اللتين تتحديان اي شيء .. كان فيهما حب ووعد بالحياة ..

ويفرك عينيه يطرد الكابوس ويشد على الغليون الذي قدمه له ابراهيم فلا تنغرز اظافره في راحته وهو يقرأ في عيون رفاقه ..

أجل ماتت وانتزعناها منك ودفناها على الرابية هناك وزرعنا على قبرها علما وكرسناها بطلة ..

كانت حبك فباتت رمزنا جميعا .. ابراهيم ، ووديع ، وصالح ، واحمد وعبد الله ..

*

خط اصفر نحيل وبضع نجيمات .. ولا شيء الا العتمة واطراف السجائر المتوهجة ، وهم امام المتاريس بلا نوم أو طعام أو شراب ..

وانقضت الليلة هادئة الا من مناوشات في الفجر ثم سكت كل شيء واستسلمت الرؤوس المتعبة الى نوم يفسده الجوع وتوقع الخطر ..

ومع الفجر فرك عبد الله عينيه وسأل وهو يتطلع في الصناديق الخشبية المركونة جانبا « اما من شيء نأكله ؟ » ... ورد وديع « هناك الارغفة » ...

وسكت ..

أرغفة سعاد لماذا لايقولونها وكانت ملوثة بدمها فأي ادام تغمس لخبزهم ؟..

لقد بدأوا يجوعون بشكل لايطاق وباتوا عاجزين حتى عن الوقوف ..

وكان رامز يشعر بان الظروف تتكاتف على امتحانه بشكل مذل وبانه ما من واحد من رفاقه سيجرؤ على ان يقرب الارغفة الا اذا عرضها هو ..

وغطى عينيه بيديه : أهناك تعاسة بعد تعاسة اضطراره الى ان يطعم دمها رفاقه ..

وتطلع الى اخوانه ، كان عبد الله مستلقيا على بطانية ، وكذلك صالح وكان احمد جالسا على كيس من الرمل وهو يضغط بطنه بيديه ..

ان الواحد منهم مستعد لان يأكل جثة كلب ولكن يدا منهم لم تمتد الى الارغفة المعمدة بالدم .. لقد كان عليه ان تأتي البادرة منه .. ماذا يقول لرفاقه .. « خذوا فقد وهبتنا سعاد الخبز والادم .؟ »

وأطرق قليلا ، ثم تحامل على نفسه ووقف .. اذا كان هو يستفظع من الفكرة فأن عليه ان يمضي الى المدينة ليتدبر لهم مايأكلونه ...

وحاول ان يقف ولكنه كان ظاهر الخور .. وأدرك رفاقه ماذا يبغي من وراء ذهابه للمدينة ان اية رصاصة ستصطاده كعصفور صغير ... فالمنطقة الخلاء بين مركزهم والعمران كبيرة ومكشوفة .. ومرور سيارات مصفحة تحمي نفسها باطلاق الرصاص في كل الاتجاهات متوقع في أي لحظة .. وأمسك صالح به من كتفه واضطره الى الجلوس فجلس لتتوثب في رأسه طيوف معركة بين جوعه وجوع رفاقه وبين الارغفة الحمراء التي كانت ماتزال مكومة في الزاوية مصرورة كما حملتها سعاد.

ان التجربة شيء يجرح اعصابه ولكن شراء حياة خمسة أمر يجب ان لايخضع لاحساسه الرهيف .. ولكن الا نغضب سعاد .. ألا تزدري حيوانيتهم وقد تمكنوا من ازدراء خبزهم مغموسا بدمها .. وأغمض عينيه بألم .. وراح يطرد الصورة بعنف .. وماذا لو اطعمهم .. ان افتداء الحياة بالجسد وبالدم شيء في صلب عقيدته الدينية .. فاين اين الخطيئة اين الحيوانية ، اين بلادة الاحساس في أكل خبزات سعاد ؟

وانفرجت الغمامات التي في رأسه .. لماذ لايتبصر في الامر ناحية كان غافلا عنها ، فهو لو أكل فسيستقر دم سعاد عمليا في جسمه ، سيصبح شيئا يلتحم في كيانه .. وسيستمد منه قوة تدفعه الى الانتقام ..

لقد اذكى موت سعاد في اعصابه شهوات للانتقام لايدري كيف ترتوي ومتى وأين .. فهل يختار ان يموت جوعا ككلب ويميت معه خمسة .؟ صحيح ان كثرة تعاملهم مع الموت قد سلبه تلك الصورة المستفظعة ولكنه مهما اعطى الحق في اختيار الميتة التي يشاء فلن يختار ان يموت جوعا .. سعاد نفسهاترفض ذلك ، لبطل !! وارتعش بألم ..

لقد اكتشف انه في الليلة الاخيرة قد فكر في جوعه اكثر مما فكر بسعاد .. لقد عطلت غريزة جوعه كل احاسيسه الاخرى ..

وتطلع الى اخوانه .. سيناديهم وسيلتفون حوله ككاهن في كنيسة شرقية وبكل الجو الشعائري الذي يقدم به الكاهن خبز المسيح سيقول لهم « كلوا .. هذا هو جسدي .. وهذا دمي فاشربوا .. » وسيأكل هو من الاكسير ايضا .. وسيستقر شيء من سعاد في احشائه ، شيء ما يفتأ يتململ ويضج ويذكره بأن عليه ان يعيش لينتقم ..

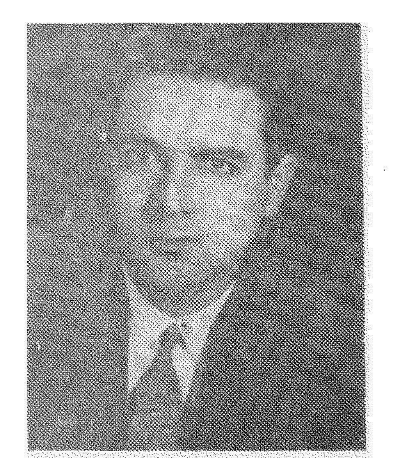
وقام متحاملا على نفسه الى الزاوية وفتح الصرة باصابع ترتجف .. وحمل الارغفة وادناها من شفتيه .. واقترب من رفاقه راكعا وقدمها لهم .. « كلوا .. ان سعاد لاترضى لنا ان نموت جوعا .. »

وغامت الدنيا في عينيه ، ووقع على الارض فاقد الشعور .

سميرة عزام



اغنية من بور سعيد



في بور سعيد ـ حيث تلتقي بلادنا بالعالم عبر القناة ـ تعيش فئة شعبية تعرف بالبمبوطية على بيع المنتجات المحلية ـ في قواربهم الصغيرة ـ الى ركاب السفن أثناء رسوها او عبورها .

ايديهم مازالت تمتد
تتلاقى افواجا فوق المد
لاتهفو لاغاني الظالمه
لاتؤمن بالمكتوب على كل جبين
وتشد الحبل الى كل سفين
فتصيب اللقمه
فالصائد يجتذب الشبكة عريان
لكن ليس يمد الكف

★

باحت اغنية بالسر
والرفقة تغدو للشط الازرق :
(البحر صديق العمر
والطير يحيّي الفجر على المشرق
لكن كيف نلاقي ركب البحر ؟
أعينهم ترمقنا فوق الانواء
وسفائنهم عبر قناة الاجداد
اطفال وجنود ونساء
بترول وعتاد
جاءوا من اقصى الارض
ولدينا اشياء صغيره
كنز للشاري في رحلته
تذكار في عودته
ايد وحبال ، تصعد تتهاوى
انا نعرف لغة القوم
والشرق يلاقى الغرب على كل طريق
قد تغبن في الصفقة حينا
لكنا نحمل بين جوانحنا سر العالم
لا يقهرنا الطوفان)

★

عادوا مضمومي الايدي والباخرة تسير
والاولاد يصيحون بترنيمة حب
تشجي اختا وقفت في باب الدرب ـ
والخطو يطير حنينا يسبق طير المغرب
جفت احزان القلب
منذ سنين ثلاث (١)
لم يطف على وجه البحر قتيل
لم يحمل احدهم الاخر والجرح يسيل
لم يغلق بيت
وقناة الاجداد تفيض سلاما للانسان
والشرق يلاقى الغرب
عادوا افواجا تطرق باب الغد
لاتهفو لاغاني الظالمه
لاتؤمن بالمكتوب على كل جبين
وتشد الحبل الى كل سفين
فتصيب اللقمه

حسن فتح الباب
القاهرة

---

(١) منذ العدوان الثلاثي الغادر على الاقليم الجنوبي من الجمهورية العربية المتحدة في ٢٩ اكتوبر ١٩٥٦



الكلمة والثورة

كلمه
مصباح الحق بيمناها
يجلو الظلمه
ما اشرق صبح لولاها
وزهت نجمه
الثورة بعض عطاياها
تلك الكلمه

★

بالامس تجلت قرآنا
ونبيا حطم اوثانا
ومسيحا ووصايا عشره
وتجلت في الناس مسره
ونذيرا وخطيبا مدره
وكلاما عذبا وبيانا

★

كم من كلمه
صلبت في اقبية العتمه
بقصور سلاطين الظلم
مسخت ذلا ودنانيرا
يا للشمعه
تذوي لتضيء لجلاد
درب الاثم

★

قسما سأغني للحب
لسلام حلو كالخصب
يخضرّ الدفء لمقدمه
وتعم ببلادي نعمته
وقلوب الناس مسرته
ويضيء متاهات الدرب

★

سأصوغ حروفي اغنيه
ولحونا تنبع من قلبي
والوف شموس الحريه
تشرق في صحراء الجدب
بالخصب الاخضر والحب
وتعود الارض ربيعيه

★

سأزيّن للشعب الثوره
ما دام هناك استعمارُ
ينشر في أوطاني جوره
سأغني العودة للقدس
فيثور بحر في الاعصار
وتعود فلسطين حره

★

الكلمة كالسيف البتّار
والكلمة دين
يحمله انسان خالق
فحذار حذار
يا اهل الكلمة الف حذار
فالكلمة سيف ذو حدين

عيترون ـ لبنان

فضل الامين

الموت والكلمة ...

قصة بقلم عايدة مطرجي ادريس

ألن نبيت الليلة في بيتنا يا حبيبي ؟ لقد مللت هذه الحالة، فالامَ نظل هكذا مشردين ، يستقبلنا مضيف ويودعنا اخر ؟ كم اود لو يظلنا هذه الليلة سقف بيتنا الحبيب ! انني اشعر فيه بجو من الالفة والانصهار لا يمكن ان يحققه لي اي مكان اخر . اولست تشعر ، في هذه الفترة ، انك بعيد عني بعدي عنك ؟ حتى غرفتي القديمة في منزل والدي ، اتراني ما زلت احبها كما كنت من قبل ؟

اولم اكن اشعر ، لسنتين خلتا انها كانت اقرب كائن الى نفسي ، فما بالي اليوم اشعر ببرودتها ؟ لقد كانت مرآة ارى فيها نفسي ، وهي ما تزال كما تركتها ، جامدة باهتة . وانني لارى فيها الان تلك المسافات الشاسعة التي قطعتها في هاتين السنتين ، مسافات تفصل بين حياة فرضت علي بجميع اطرها كنت اتلقاها برضى حينا وبثورة حينا اخر ، وحياة اخرى اخترتها انا بنفسي ، اخترت كل تفصيل فيها وكل اطار وانني لاشعر فيها انني ، لاول مرة كنت المسؤولة الوحيدة عن مصيري وان مسؤوليتي لتتضاعف الان تجاه عائلتي تلك الجديدة .

عائلتي الجديدة ، وبيتي الجديد . ان كل ركن من اركانه يشهد لنا بذكريات ، هي على بساطتها ، حلوة جذابة .

لقد قامت ، هي وزوجها بتنسيق اثاثه ، والاهتمام بكل صغيرة فيه . وكثيرا ما كانا يتناقشان في كيفية ترتيبه فكانت غالبا ما تقتنع بآرائه انها تثق به وبذوقه ، وهي لا تكاد تقوم بعمل قبل ان تستشيره . وكان هو يحدثها عن اعماله،عن كل صغيرة فيها، حتى التافهة . وحين كان يشتري لبيتهما قطعة جديدة كانت هي تحرص طوال غيابه على ان تنسقها وترتبها ، فاذا ما حان وقت مجيئه ركضت الى الباب تفتحه وهي تبتسم فيأخذها بين ذراعيه ويقبلها ، فتمسكه من يده وتقوده الى حيث استقرت القطعة الجديدة مشيرة بيدها اليها . وتبقى لحظة ملتصقة به وهي تنظر اليه يتأمل دهشا . لم تبدو جميلة هنا يا حبيبتي . ليتني كنت استطيع ان احضر لك كل ما تتمنينه : بيتا رائعا تتوفر فيه اسباب الراحة والرفاهية . فكانت تقاطعه قائلة : انني لا اتمنى اكثر مما توفره لي . الست تحبني ؟ اذن فهذا الاثاث كله لا قيمة له عندي . قل لي انك تحبني ، فيستحيل كل شيء في نظري جميلا ، ثم اني لا احب ان امتلك كل شيء دفعة واحدة . واعتقد اننا حين نحصل على كل شيء تصبح حياتنا جامدة . فلا بد من ان نألف ما نملكه ويغدو لاعيننا شيئا عاديا : اننا بطريقتنا هذه نبعث في كل وقت حياة جديدة في بيتنا . اليس كذلك يا حبيبي ؟

فيضحك وهو يهز برأسه ويقول لها بلهجة تحار بين اللطف والسخرية « لكم تعجبني احيانا اراؤك . أكملي ... لنرى ! »

ولم تكن تكمل . وكانت تغضب احيانا ، ولكنه ما يلبث ان يسترضيها بكلمة او بقبلة او بوعد . وكم كانت تحب تلك الطاولة التي يجلس اليها زوجها ساعات طويلة وهو يكتب او يقرأ وهي جالسة قبالته تقرأ في كتاب . كثيرا ما كان ينساها وهو في حميا الوحي فتغفو على كرسيها. اما اللحظات اللذيذة فكانت تلك التي كانت تجلس امامه فيملي عليها . وكثيرا ما كانت تقاطعه او تقرصه من يده فينفجر ضاحكا ثم يعاتبها بانها قد قطعت عليه مجرى تفكيره . وكان يشعر بان الساعات التي كان يقضيها معها كانت اكثر انتاجا واقل مشقة . وكانت تعيد عليه ما كتبه فتحطم ما شاء لها سيبويه ان تحطم فيصلح لها الاخطاء وهو يضحك حينا ويتصنع الغضب حينا اخر . ولكنه كان سعيدا بتلك الزوجة الصغيرة ، انها لاتشك في انه يحبها ومع ذلك .. فستظل تشك ، ما دام في قلبها حب عارم له ..

مرت بخاطرها كل هذه الصور وتلك الافكار وهي تسائله من جديد : الن نبيت الليلة في منزلنا يا حبيبي ؟

– بلى . فالى متى سنظل مشردين . لم يسبق لنا منذ ان تزوجنا ان بعدنا عن ركننا . اننا هنا كالغرباء في بلدنا . انا لا اعرف ماذا ينبغي لي ان أعمل . لقد انتشلت من جوي .

– ولكنني .. اخاف ان اعود اليه .

– لماذا ... هل لديك الدليل ؟

– لا . ولكنني اخاف .. اخاف . قلبي يحدثني .

– لا احب ان تنساقي لهوس في نفسك لا يبرره شيء . انت مثقفة ويجب ان تحكمي عقلك في الامور .

– وانت مثقف ايضا . فاعطني الدليل على ان شيئا ما لن يحدث .

وصمت لحظة . واردفت تقول : « سمعت من يقول بان هناك نية لنسف البناية التي نسكنها.ان الثورة ستندلع. وسوف تبدأ من منطقتنا فيهذه الليلة بالذات . هل هذا صحيح ؟

– ليس لي علم بذلك . لعله مجرد كلام . ثم ان منطقتنا هي آمن نقطة. هل تصدقين كل مايقال ؟

– لست بطمئنة ... وكثيرا ما كان حدسي يتحقق . انني اكاد اؤمن به بالرغم من ان عقلي يقاومه . ولكنني كنت غالبا ما اقتنع بحججه ، ونتائجه الواقعة كانت تضاهي حجج العقل . على انني سأتبعك . سنذهب الليلة الى بيتنا . اجل سأذهب وليحدث لنا ما يحدث . ولكن هل سنأخذ الطفلة معنا ؟ ام نتركها عند جدتها ؟

– لا . لن يهدأ بالنا ببعدها عنا . سنصحبها .

ونظر الى الطفلة الصغيرة . فركضت اليه متعثرة. انها في السنة الاولى

من عمرها . ومع ذلك فهي تبدو انها تفهمه . لقد غمرت رأسها في وجهه، فضمها اليه وشدها وكانه يشد معها جميع المستضعفين .

*

ادار المفتاح في الباب فاطل عليهما منزلهما الحبيب . لكأنها المرة الاولى التي يدخلان فيها اليه . كل شيء يبدو فيه جديدا . لقد فقد دفئهما طيلة هذا الاسبوع فبدا موحشا . البناية كلها خالية من السكان لا نور ولا حركة ولا انفاس ترتعش ، بل صمت رهيب حالك . ودخلا اليه . لقد علا الغبار اثاثه . فركضت الى الراديو تزيل عنه الغبار واسرع هو الى مكتبه يقرأ آخر صفحة من قصة بدأها وهو يهم بان يتابع المسير.. وضمت الصغيرة لعبتها وهي تصرخ: ما ... ما ..

واسرعت هي اليها وحملتها بين ذراعيها ثم القتها على كتفي والدها المنهمك . فرفع رأسه واخذ الصغيرة ونظر الى الام وهو يتمتم : اتركاني اريد ان اعمل . لقد فقدت اسبوعا كاملا وانا تائه . اريد ان اكتب .

وعادت هي الى سريرها واراحت الطفلة على السرير الصغير قبالتها . لقد كانت تقدر موقف زوجها وتفهمه . وهي تحبه في تلك اللحظات المحمومة ، اللحظات التي يبدو فيها فنانا خالقا . وكانت اعصابها بحاجة الى الراحة فاستسلمت للنوم .

وكانت الساعة تشير الى الواحدة بعد منتصف الليل حين انبعثت اول طلقة نارية في الفضاء . وفتحت عينيها ومدت يدها تتحسس زر الكهرباء . وما هي الا لحظة حتى انبعثت طلقة اخرى من صوب الشمال ثم اندفعت الطلقات تدوي بلا انقطاع . لقد كانت هي المرة الاولى التي تسمع فيها دويا كهذا . وجمدت في سريرها . وجمدت يدها التي تتحسس النور . واختنق صوتها . تريد زوجها . تريد ان تصرخ مستغيثة انها الان بحاجة اليه . انها خائفة ، خائفة ، خائفة ستموت من الهلع . وارتفع صوته يناديها من الغرفة المجاورة : « لا تخافي يا حبيبتي. انا هنا . لا تزعجي الطفلة . سآتي اليك . »

ـ اما تزال ساهرا؟ لقد انتصف الليل . تعال الي. انني خائفة ..

وهرع الى غرفتهما . فرأى وجهها ممتقعا شاحبا ويداها ترتجفان .

ـ لا بأس يا حبيبتي . ليس في الامر شيء خطير .

ـ هل أنهيت قصتك ؟

ـ لم اكن اكتب قصة . بل مقالا لصحيفة ستتبنى آراءنا الثورية .

ـ وهل ستعود الى ميدان الصحافة بعد ان تركتها منذ فترة طويلة ؟

ـ لن اكون موظفا فيها . سأكتب ما اريد ، ما يمليه علي ضميري فقط. ومتى اريد . انني اشعر بوخز ضميري ، وانا لا اطيق ان ابقى مكتوف الايدي والمئات يتأهبون لبذل ارواحهم كل يوم ، انهم ابطال يؤمنـــون بالعقيدة التي اؤمن بها . اما انا ، انا الذي وقفت شطرا من حياتي ادعو الى تلك الثورة وازرع مع رفاق لي بذورها ، انا اليوم ، اقف متفرجا . اقف اعزل من كل سلاح . في فمي الف كلمة لا استطيع ان اعبر عنها . ويداي ، اجل يداي لم تستهديا الى حمل مسدس . ماذا اعمـل ؟ اي شيء . ولكن علي ان اشارك . ان اشارك مشاركة فعلية . يكفي ان اخرج الان الى الشارع . واتحدث الى شبابنا الذي ما يزال ساهرا ينتظر الموت والنصر .. سأتحدث اليهم .. سأضع نفسي تحت تصرفهم . سأناولهم الماء على الاقل .. وهذا اشد راحة لضميري من ان ابقى هنا. في هذه اللحظة الحاسمة ازن لاول مرة ، قيمة الكلمة التي كنت اكتبها التضحية . الوطنية . اليوم فقط اشعر بنبلها وفظاعتها وقوة طاقتها الايحائية . انها باتت تعني، على صعيدي الشخصي : ان افارق هذا الركن الحبيب وان اترك من احب .

وارتعدت من الهلع . لم تكن تسمع كل ما كان يقوله . كان كل شيء هادئا منذ لحظات ولاشيء يعكر الصمت الرهيب سوى تمتماته الثائرة . ولم تنتبه الا الى الجملة الاخيرة . فهبت مذعورة وهي تصيح : تتركنا ؟ من ؟ أنت ؟ انا وحدي ؟ لا . لن تذهب الا وانا معك . وماذا تريد ان تفعل انك لا تجرؤ على حمل مسدس . فالى اين تريد ان تقصد ؟ لا . ليس هذا هو ميدانك . ليس المهم ان يستشهد المرء في سبيل الوطن ، بل ان يكون مفيدا في ميدانه ، وميدانك هو الكلمة .

ـ كنت اؤمن بها . ولكنني اشعر الان بعجزها . لقد فقدت حرارتها. فقدت قيمتها . انني احتقرها . أمقتها . لقد اهينت ، فقدت في نفسي قدسيتها . لقد تعرت من كل ماكان ملتصقا بها من صفة هي التعبيرالوحيد عن محتواها . ان الخائن يدعي الوطنية ، والنذل الكرامة والشـرف والجاهل الثقافة والعمق. لا. انت لم تسمعي البيان الذي اذيع من الراديو لقد كان اجهل رجل في ربوعنا يقود سفينتنا ويدعو العالم الى سماع نصائحه ، هو المثقف الذي يتوقف عليه مصير الحق والعدالة . هو الذي يسمح للمستعمرين بان يطأوا ويذبحوا اطفال شعبنا البريء يتبجح بانـه ينقذ وطنه . اية قيمة بعد لتلك الكلمة التي كنت ، لساعات اعبدها ، اية قيمة لها ما دامت تجمع في محتواها بين المتناقضات . اجل ، لم اخجل بنفسي يوما كما اخجل بهااليوم . اخجل منها لانني مثقف .. اجـل مثقف ..

ودوى في الحي انفجار رهيب وتلاه اخر ، ثم اخر . ثم انهالت الطلقات ولعل الرصاص كان يصطدم بابواب المخازن الحديدية ثم يرتطم في البعيد محدثا صوتا مريعا وكان الخصمان من الشرق والغرب يتبادلان الرصاص . فاذا سكت احدهما ، عاد الاخر متحديا . وكان منزلهما وسطا بينهمايتلقى فورات الاثنين الجنونية ، وامام البناية ، انفجرت قنبلة رهيبة احست ان البيت يهتز لها .

ـ اقترب مني ، اقترب . الم اقل لك ان البناية سوف تنسف ؟ ليتني لم اسمعك ! سنموت الان ، هكذا ميتة حقيرة . ولن يدري بمصيرنا احد. انا لا اقوى على النهوض .

ـ تمددي على السرير . الصقي جسدك كله عليه. لعل ارتعادك يخف

ـ انا لا اقوى على شيء.

وكانت تهب كلما سمعت دويا . وتحس فجأة بان ساقيها قد ارتفعتـا الى فوق وانطوتا .

ورآها فجأة تنهض . فركض يتبعها . لا.لا.لا تقتربـي من النـافـذة سيظنون ان النار تنطلق من هنا . وستكون غرفتنا مقصدهم .

ـ لن اقترب . ولكنني اريد ان ابقى هنا بالقرب من طفلتي . انها تحت النافذة . واخاف عليها من الرصاص . هل افتح الزجاج ؟

وحين اشتدت حالة الخطر ، كانت تجلس على الارض حانية راسها على السرير الصغير ، باسطة ذراعيها عليه . لعل الرصاصة الطائشة تخترق جسدها قبل ان تهبط على الجسد الصغير .

ـ يبدو ان الحالة قد هدأت . قومي لنرحل . لن نغيب طويلا . ان هي الا ايام ثم نعود الى بيتنا . احضري ما ترينه ضروريا ، ضروريا جدا .

وحاولت ان تنهض . لقد كان جسمها محطما . انها لن تقوى علـى الوقوف .

هي تعبة جدا . انها لم تشعر بمثل تلك الحالة الا بعد ولادتها الاولى وجرت نفسها واقتربت من النافذة . كان الناس يسيرون بالعشرات

مهرولين وقد حمل كل منهم حاجته من اللباس . حتى الاطفال منهم كانوا يمسكون بايديهم شيئا . وخيل اليها انها تشاهدهم على شاشة لشدة ما هم يسرعون . ولكأنهم اشباح ملونة تتعاقب يختلط فيهم الصغير بالكبير. لقد تركوا كل شيء . ان الحياة في صدورهم ، وهم ، اليوم ، يشعرون بانها اعز ما يمكلون .

ـ خذ الصغيرة .. لقد افاقت . غريب كيف هي لم تحس بكل ما جرى مع إن نومها شفاف . خذها . سأتلفن لامي مستفسرة عن الحالة في جيهم وهل يمكننا ان ناتي اليه.

وركضت الى غرفة المكتبة ، واخذت السماعة . وتكلمت ، وكان كل ما قالته: «اني خائفة يا امي ، انني خائفة.» ونظرت الى النافذة مستطلعة. لقد كانت في هذهاللحظة تخشى أن يخترق صوتها الجدار فتصل الى اسماع المراقبين المبثوثين في كل مكان . ورأت عى سطح بيت مجاور عيونا اربعة تحدق بها وكان صاحباها يحملان مسدسين.. وكانت يد خامسة تشير ان اتركي التليفون . وجمدت في مكانها . وتركت الالة تسقط في مكانها . وركضت الى غرفتها فاصطدمت بلعبة طفلتها ووقعت.

وركض زوجها اليها . وكان يداعب شعر الصغيرة وعيناه شاردتان : « ما بك ما بك ؟ ارى ان اعصابك ثائرة . ثائرة اكثر مما ينبغي . لقد كنت اعتقد انك اكثر شجاعة ، فاذا كنت لا تستطيعين ان تضبطي اعصابك ، فماذا يفعل الجهال من جنسك ؟ اريدك قوية ، فنحن بحاجة الى المرأة تشاركنا جهادنا ولا تقل عنا هوسا واندفاعا . »

ـ لم تعد القضية قضية ضبط اعصاب . لقد تجاوزنا هذه المرحلة . انها لحظة حاسمة نمر فيها . لحظة يتأرجح فيها مصيرنا . ان الموت هنا يهددنا ويذلنا . اجل يذلنا . انه يكشف عن حقيقتنا . وانا اخاف الموت .

وبرق في خاطرها بعض ما كانت قد قرأته من تأملات فلسفية حول الموت . لكم تبدو لها هذه الملاحظات سخيفة معراة من اي طابع واقعي. ان هؤلاء جميعا لم يعانوا مشكلة الموت ، هم لم يواجهوه في لحظته الفاصلة ، اللحظة التي ينهار فيها الانسان وكأنه لم يكن . لقد بحثوا فيه من دون ان يعوا واقعه هذا الرهيب . اتراهم حقا كانوا يمجدونه لو تمثلوه بهذه الصورة التي يتجسد فيها امامها : وحشا مفترسا يفتح فمه عن انياب حادة قاتلة وتلمع عيناه ببريق مريع ويغمد اظافره الطويلة القاطعة في الجسد الطري تنبشه خيطا خيطا . لقد احست بهذا الشبح يطبق على رقبتها فصاحت دون ان يرتفع صوتها :: لا . لا اريد ان اموت. لا اريد ان اتركما.»

ونظرت اليه . كان هو ايضا في صميمه خائفا ، خائفا على مصير عائلته تلك الصغيرة ، الا انه كان يحكم عقله اكثر من عاطفته . وانحنى على زوجته يحيطها بذراعيه فهدأت نفسها قليلا وقالت له :

ـ اتراني كنت اخاف هذا الخوف كله لو كنت في ساحة القتال اشارك افراد المقاومة ؟ لا اعتقد ذلك . ربما كنت اكثر شجاعة . فانا اشد خوفا عندما اكون وحيدة مني لو كنت محاطة بفريق من الناس يواجهون نفس المصير الذي سأواجهه . يخيل الي اننا بتضامننا لا بد ان نقهر الموت وانْ ننتصر . وفورة النصر هذه هي التي تدفع المقاومين الى الموت مستعلين عليه متجاهلينه . اولسنا نحن ايضا نعيش لكوننا نتجاهل هذه الحقيقة المرعبة : الموت . والا فكيف نستمر كل يوم في بناء اعمالالغد ونحن مهددونفي كل لحظة،اذ نرى افواجامن اخواننا البشر تضمهم كل يوم حفرات منالتراب يعشعش فيها الدود والنتن حتى تنحل اجسادهم فاذا هم حفنة منها ؟

كانت تتمتم ذلك . ان رواسب من الخوف ما تزال تغلي فيها وتدفعها الى ان تتكلم ، ان تتكلم اي شيء وعن اي شيء ، خشية ان يطفو هذا الخوف فيستولي عليها. وما هي الا لحظة حتى عادت الطلقات تصعقها. فاجفلت وامسكت به محدقة : العيون الاربعة ، العيون الاربعة الحمراء كم اخافها !!

✶

ـ لن نغيب عن البيت طويلا . سنعود حين تهدأ الحالة . هل احضرت كل شيء ؟

ـ لقد هيأت كل ما تحتاجه الصغيرة وبعض اشياء لك . واستحضرت قميص نوم لي : يكفيني ذلك . فنحن لا نستطيع ان نحمل اكثر من هذا .

ـ لا . احضري لك ثوبا على الاقل . من يدري ، ربما طالت غيبتنا بعض الشيء .

وفتحت خزانتها . ماذا ستحضر ؟ فقد لا تعود الى بيتها هذا بعد . ربما نسف وانهار كل شيء فيه. انها تحب ملابسها كلها . لكل قطعة منها حكاية وذكرى . انا قليلة . ولكنها تحس انها تحمل بعضا منوجودهما، هذا الثوب الابيض . كميحبه . لقد كانت ترتدي مثله حين رآها للمرة الاولى ، فقال انه يعكس كل ما تمتاز به من صفاء نفس وبراءة . وهذا ..وذاك . لا انها لا تستطيع ان تحملها كلها . ستأخذ واحدا فقط . وستغلق الخزانة ، وفي نفسها حسرة

وحملت الحقيبة الصغيرة . وحمل هو الطفلة ، وخرجا من غرفتهما واجتازا الصالون ، ووصلا الى عتبة المنزل . ونظرت قبل ان يفتح الباب الى الصالون.ان آثار الزينة ما تزال قائمة: الاوراق المخرمة الملونة ماتزال معلقة من باب الى اخر والبالونات متدلية منها وكذلك اللمبات الكهربائية الصغيرة . وبكت الصغيرة مادة يدها . انها تريد ان تظل هنا . هي لم ترتع بعد بمعالم تلكالزينة . لقد كان عيد ميلادها منذ اسبوع فاحتفلوا به ثم اضطروا في صباح اليوم التالي الى مغادرة منزلهما . وها هما يرحلان عنه ولم تمض عليهما ليلة كاملة فيه .

✶

دفعها الى خارج المنزل . فنظرت الى بيتها الحبيب . واقفل هو الباب ببطء ويده مرتعشة . ونظر اليها فاذا هي تبكي . فاختنق صوته وحين نظرت اليه ابتسمت ابتسامة شاحبة وهي تمسح دموعها كالطفل : المهم ان ننجو . كل مكان سيضمنا سوف نحبه .

ـ اجل يا حبيبتي . ولكننا سنعود اليه . والان انتبهي . يجب ان نحذر ، فالقاومون منتشرون في كل مكان . يجب ان اتثبت اولا من ان احدا لن يرانا . وعلى الاقل سوف اعرف بعض الحراس بنفسي حتى يسمحوا لي بالمرور . خذي الطفلة وانتظريني قليلا .

ـ لا . لن ادعك لحظة ، سنكتشف معا . ثم انه لا يمكن للمقاومين من منطقتنا ان يطلقوا علينا النار وهم يرون بين ايدينا طفلة . الا تعتقد ذلك؟

ـ هذا صحيح . ولكن أنسيت اية فظائع ترتكب الان ؟ ان سكاننا يقتتلون ، وكانوا منذ ايام يعيشون متآلفين متمازجين ، حتى اوقع بينهم محترفو السياسة السفاحون . لقد عرفوا ناحية الضعف من نفوسهم فاستغلوها وابرزوها وحملوها شعارا يدفعون به عنهم . وها هم الان يتقاتلون . فاين هو العدو واين هو الرفيق ونحن كلنا ابناء وطن واحد ؟ اتتصورين ان جيرانا لنا في الحي نفسه قد يستبيحون لانفسهم ان يطلقوا علينا النار . اية فظاعة هذه ! ولكننا نحن لا نقاتل . اننا فقط ندافع عن انفسنا، ندافع عن ارضنا ، عن استقلالنا الحقيقي غير المزيف .

وهذا ما يرد لمقاومتنا نبلها ومجدها . سوف اكرس نفسي لاظهار هذه الحقائق . ولكن ، يا الهي ، اية فائدة من ذلك ؟ لقد شوهوا كل معنى. وقلبوا جميع المفاهيم !

واسرعا الى الطريق . كان في الزاوية المقابلة احد افراد المقاومة الشعبية . فاوما اليه بيده . فهرع اليه . واذن له . على ان يسرع ما استطاع . لان المقاومة في هذه اللحظة تتوقع هجوما . وستقابله بكل امكانياتها . لعلها ستكون المعركة الفاصلة .

وركض الى سيارته الصغيرة وادارها . وركضت وهي تحمل الطفلة وقد انحنت فوقها حتى لم تعد ترى .

واشار اليه المقاوم بان يسرع ، بان يقلع اقلاعا جنونيا .

ستبدأ المعركة . وهنا بالذات ميدانها .

وهم هو بان يقلع . ثم كف . لقد كان جار له يصرخ ويستغيث بان ينتظره قليلا ، يكاد ان يغمى عليه . وهو مريض لكثرة ما عانى تلك الليلة ثم هو غريب عن هذا البلد . فلو عرف الاعداء به لمزقوه . وكان هو يؤمن بنظافة جاره وان لم يكن يعاشره معاشرة كافية . ورجع الى الوراء وفتح له الباب فارتمى على المقعد الخلفي كأنه سكران . وانطلق هو بسيارته . وانطلقت من خلفه اصوات الرصاص .

واصبحت اذناه لا تسمعان سوى الازيز وعيناه لا تريان سوى الايدي الملتهبة التي تنثر الموت وتزرعه في كل بقعة . وخلا الطريق فجاة من كل ما هو حي .

ـ لقد تأخرنا . كيف سنتوجه . ان الطرقات شبه مسدودة . ان الخنادق فاغرة افواهها والمتاريس قائمة عند مفترق كل طريق .

ولم يكن له ان يختار في هذه اللحظة او ان يفكر. كان يقود بسرعة جنونية، فيرى في وجهه متراسا او خندقا فيحيد عنه ثم يحاول تغيير اتجاهه .

وكانت هي تتابع نظرات زوجها المحمومة التي لا تستقر . لقد بلغ الخوف عندها اشده حتى انها لم تعد تشعر به .

واجتازا المنطقة الخطرة لا تدري باية اعجوبة ولكن اصوات الرصاص والقنابل كانت ما تزال تنفجر في اذنيها . وكانت الصغيرة ترتعد وتجفل.

وحين بلغوا بيت والدتها نزل جارهما ومشى كالتائه . ولم يقل لهما اي شيء. وعندما فتح الباب ارتمت بين ذراعي امها وهي تجهش في البكاء. وظلت تبكي . فاشار زوجها بانها بحاجة الى الراحة ، وانها ثائرة الاعصاب .

وتمددت على السرير . ونامت . ولم تصح حتى صباح اليوم التالي .

*

كانت الساعة تشير تماما الى الرابعة صباحا . وكانت اصوات بائعي الصحف تخترق الصمت المخيف . انهم يأتون في هذه الساعة المبكرة ليبيعوا صحف الثورة . وهي اولى الساعات التي سمحت بها السلطة بالتجوال . وكان الناس ينهضون من فراشهم الى شرفات المنازل وهم يتلهفون لمعرفة ما جرى في تلك الليلة ، وهب هو من فراشه وفتح باب الشرفة . وادلى بسلة صغيرة معلقة بحبل ورمى في السلة الصحيفة . ولم ينتظر هو ان يرد له ما تبقى من فلوسه . بل رفع السلة . وامسك بالجريدة وقد هدأت نفسه. وحملها الى زوجته . لقد شعرت بخروجه فباتت ترقبه . ودخل الى الغرفة واخذ الجريدة بين يديه وبدأ يتمتم. ثم القاها بين يديها .

كانت الصفحة الاولى تحمل في افتتاحيتها كلمة لزوجها. وكان عنوانها : « شرف الكلمة »

قرأتها . ونظرت اليه . كم هي تحبه وتحترمه . وقبلها . لقد كان قلبه مفعما بالفرح . ان كابوسا قد ازيح عنه . انه سيشارك ، بل قد شارك منذ اليوم اخوانه الثوار ..

وقالت له : هل عاد اليك ايمانك بالكلمة ؟

ـ اجل . اليوم . انني اؤمن ان الثوار بحاجة ايضا الى توجيهات المثقفين منا والمخلصين . انهم بحاجة الينا . هم يعيشون على اعصابهم، ينقادون بعواطفهم . انهم في قلب المعركة المحتدمة لا يجدون لحظة ليفكروا فيها . هم ثائرون ، ثائرون حتى الموت ، فكأن الموت هو مبتغاهم . اما نحن ، فاننا مانزال خارج المعركة عمليا وان كنا نعيشها . اننا نستمد من واقعهم مادتنا وحماسنا ولكننا لا نلتصق بواقعهم ، بل نبقى منفصلين عنه ، بيننا وبينه مسافة تجعلنا قادرين على ان نسيطر على عواطفنا لنستغل عقلنا في البحث والتجرد والتخطيط . فاذا لم تنفذ خططنا وتوجيهاتنا اليوم ، فلسوف تنفذ بالمستقبل ، لانها لمستقبل زاهر امثل . ولعلها ستكون البذور التي تزرع ثورة اخرى ، اعم واشمل ، تستولي على جميع مرافق حياتنا فتغير مجرى تفكيرنا وواقعنا الحياتي.

ونظر الى زوجته الراضية ، وصوته متهدج من الانفعال . فقالت له :

ـ انني اخاف عليك . انك جاد في كتاباتك جدا . الن تخشى ان يلقوا القبض عليك ؟

ـ يجب ان تتوقعي ذلك بين لحظة واخرى . ولكن لا تجزعي لذلك . الا تعتقدين اني اخون ضميري حين اصمت ، فلا ادافع على الاقل عن شرف الكلمة التي اؤمن بقدسيتها ؟

والتفت الى اليمين ثم حط نظره على فراش صغير مد على الارض . لقد كانت طفلته نائمة . وكانت خصلة من شعرها الفاحم متدلية على جبينها الابيض ، وكانت بسمة محببة تزدهر على شفتيها الصغيرتين.

عائدة مطرجي ادريس

الجنديّ الأخير

صمدوا حتى اخر مدفع
حتى اخر جندي في اخر فرقه
خمسة ايام بلياليها تزكو النار
خمسة ايام والقلعه كالطود
ثم ارتد الموت الزاحف
ثم احتضن القلعة طيف نهار
قبلها الفا وامتد ..
ليعانق في رفق علم القلعه
ولينقل للعالم قصه ..

★

ذات صباح جاء الجند
ارسلهم ملك مجنون خلف البحر
ليعودوا بغنائم من جزر الخيرات
وسبايا شرقيات سمر ..
عدتهم نار وسفين وحديد ينصب
قائدهم تتري لم يقهر في حرب
لم يجرح في سبعين قتال ..
ـ « فلنضرب في القلعه »
يوم يومان ثلاثة أيام
والقلعة يمطرها الموت فلا تنهار
تتلقف بالنار النار
وتردد في بحة مدفعها لن استسلم
ـ « بركان لا ينضب منه الجمر
دكوها ونمر على القبر
دكوها دكوها .. »

★

واتى فجر اليوم الخامس ..
ما زالت تتلاقى السنة النيران
ما زالت ترعد احلام الموت وتبرق
والتتر يحومون ولا يخطون
في هذا الفجر ..
سقطت خلف جدار القلعة اخر فرقه
الا جنديين التقيا محنيين
واتفقا في نظرة عين ..
« لا تضرب من ركن واحد ..
ولتتنقل في أمكنة الجند
ان الرخ يكاد يلم جناحيه
ثم يعود بدون الصيد .. »
في هذا الفجر ..
لم تسكت في القلعه طلقه

★

جنيّان يشدان ..
يقتحمان صراع الموت بالف ذراع
لا كلمة ألا الانفاس
الا وهجا في العين وهمسا في الصدر
اللحظة ميزان الخمس ليال
مات الذعر ..
سقط الاول عند الظهر
لكن القلعة ما زالت تضرب تضرب
ما زالت تنذر بأتون اثر اتون
واتى المغرب ..
« عجبا ان الرخ يلم جناحيه ..
التتر يعودون !!
لكني مجروح في الرئة اليسرى
اني ميت ..
اني اذهب لكن بعد النصر .. »

★

كان الشفق بلون الدم
وسحابات دخان تصعد فوق البقعه
وتحرك اخر ابطال القلعه
بيد تمسك جرح الرئة اليسرى
ويد تركز علما في مسرى النسمه
ثم تميل فتكتب كلمه ..
« للآتين غدا ..
كل يد تقدر تضرب ..
قد تنصركم غمضة عين صبر
يكتبها اخر جندي وهو يموت » ..
ثم انكفأ البطل ومات
القى بيديه على اول جسد لرفيق
عانق فيه الاصحاب جميعا ..
اغمض عينيه على منظر دوحه
تمتد الى كل الدور بظل
وتميل الى دار عند التل
فيها اطفال له
ثم انداح سكون الليل
ثم احتضن القلعة طيف نهار
قبّلها الفا وامتد
ليعانق في رفق علم القلعه
ولينقل للعالم قصة ..

★

القاهرة — **كامل أيوب**



عرض ونقد لرواية «أيام معه»

عاشقة ثائرة !

بقلم فاضل السباعي

اما العاشقة ... فهي « ريم » الفتاة ، الشرقية ، العربية ، من قلب دمشق !

واما الثورة ... فعلى المجتمع ، تقاليده وقيوده ، وعلى الحب نفسه !

واما صانع هذين، العشق والثورة كليهما ، فالاديبة السورية الشابة «كوليت سهيل » في قصتها الاولى المطولة « ايام معه » ، التي قيل فيها : « انها ثورة ... في عالم الادب » !

ان هذه القصة المطولة ، تمثل الابداع الفني للاديبة كوليت التي عرفناها ، قبل اليوم ، تتسلى بنظم الاشعار باللغة الفرنسية ، فاذا هي تطلع على جمهرة القراء فجاة بهذا الكتاب ، فتذهل كتاب القصة ، وتنال اعجابهم الشديد مهما حاول بعضهم ان يكتموه خلف الضلوع ولا يبوحوا به!

على ان الدوي الذي احدثته هذه القصة في عالم الصحافة ، كان ذا حدين متناقضين : ما بين اعجاب معجب ، وبين سخط ساخط ، ولو ان الاعجاب هو الغالب . ولقد فاق هذا الدوي كل حد ، وغلا غلوا عجيبا، حتى لقد نسجوا حول الكاتبة هالة من الهالات ، وخلعوا عليها من الصفات والسمات ما باتت تنكره هي على نفسها قبل سواها .. وما ذاك ، الا لان القلم الذي ابدع « ايام معه » ، انما امسكت به انامل انثى ... ولطالما قصر الادب النسوي عن ادب الرجال في بلادنا الشاو البعيد ، فكان التهليل هو الصدى المنتظر لكل عمل ابداعي تدفعه الى الجمهور سيدة .. . واحبب به من تشجيع تستحقه المراة ، الى ان تحاذي الرجل ، فيكون اذاك بينهما تزاحم واستباق ، ويكون التهليل لها بقدر وحسبان .. ولعل ذلك اليوم ليس بالبعيد .

ولقد اعجبني الفن في هذه القصة التي تخطها انامل لم تكتب القصة قبل اليوم ، مثلما اعجبني ، في بطلتها ريم ، التحرر والتمرد والجراة والاندفاع والجموح .. ثم ضيقها بالرواسب تعلق بالاذهان ، وبالشوائب تكبل التفكير والقول والتصرف !

احست ريم بالرغائب الانسانية تنتفض في صدرها ، فما سكتت عنها ، ولا حاولت وأدها ، ولكنها سعت الى تحقيق مآلها ، فلقيت في دربها الصدمات ، فما زعزعتها الصدمات ، وظلت ماضية قدما : فذاقت الحب، ونعمت به، وشقيت به، واترعت كاسها منه عذوبة وطلاوة، ثم شجنا وانينا، الى ان صارت الى نهايتها ، حيث كيفت على اساسها رغائبها الاولى ، فاستراحت عند ذاك مطامحها وامانيها .. وتلك خاتمة المطاف .

والمؤلفة كوليت سهيل ، في تصويرها المراحل العاطفية والنفسية لعاشقة الثائرة ، لم تقتسر المشاعر اقتسارا .. ان المشاعر الثائرة ، التي تغص بها القصة في كل فصل من فصولها ، بل في كل صفحة من صفحاتها ، انما هي من قبيل ما يعتلج قلب كل فتاة تأسرها عاطفة الحب ، فتصادفها الصعاب الكبيرة ، فاذا هي تثور على القيود ، وتكفر بالمثل الصنمية الجامدة ، وتجمح، الى ان يتبدى لها وجه الحقيقة ، فترتد الى الواقع ، وقد انهكها النضال والثورة والشموس .. وما فعلت كوليت ، ان عبرت عن هذه الاحاسيس بجرأة وصراحة ووضوح ، وهو عين ما يتطلبه « الصدق الروائي » ، فكان ان انطلقت اجنحتها الصغيرة ترود اجواء الفن الصادق الثائر ، فنظرنا اليها في مودة واعجاب، وانها لثورة حقيقة بالاعجاب مهما قيل في جموح هذه الثورة وتطرفها وايغالها .

احبت « ريم » الفتاة الشاعرة ، «زياد» الشاب الوسيقي ، وهو على غير دينها . فلامها المجتمع ، ممثلا في اقارب لها وصديقات ، فما لانت ، وكفرت بالنصح يسدى لها في سبيل اخلاصها للعاطفة المتنفضة في سويداء قلبها .

وكانت تربطها بالفتى « الفريد » آصرة خطبة ، فتحللت منها او كادت لماذا ترتبط بمن لا تحب ولا تميل اليه ، وبمن تراه انانيا محبا لذاته ؟ انها صادقة مع نفسها وقلبها . تحب زياد ، لا الفريد . فترتبط بمن تحب برابطة الحب وحدها .. ثم تترقب ان يحين ذلك اليوم الذي يشدها فيه اليه رباط الزوجية السعيدة .

✶

ابتدأت القصة لترسم لنا شخصية ريم ، فتاة رومنتيكية تحن الى المجهول :

« كانت اقسى ساعات ايامي ساعات الليل .. فادخل غرفتي الموحشة، وارتمي على سريري ، واغمض عيني رغبة في النوم والنسيان ، فيرغب النوم عن عيني ، واهب من فراشي ، واقضي ساعات اذرع بيتي جيئة وذهابا ... ثم تحملني قدماي الى الشرفة ، فانظر الى السماء ، ويأوب خيالي بين النجوم ، وابحث .. وابحث ، علني اجد .. بين النجوم .. انسانا .. علني اجد صديقا . وكم من مرة ابتسمت حزينة للقمر ، وناجيته ، لانه يسهر كل ليلة وحيدا .. مثلي انا ... »

وتجد ريم هذا الصديق .

كان في الاربعين من العمر ، وهي بنت عشرين ، وكان طويلا ممتلىء

الجسد ،وكان موسيقيا لامعا ، قد جاب الامصار ، وعاش في بعض العواصم الاوروبية سنين ، فاكتسب خبرة وتجربة ، وعاشر من النساء الاصناف التي يعاشرها الغريب في بلد تفص بالنساء شوارعه ومنتدياته!

ووقعت ريم في شباكه ، مع فارق السن ، والدين ، والتجربة ، ورهافة الحس .

كان موسيقيا مخلصا لفنه وحده ، لا يرى في الحب الا لذة مادية عابرة لا تستحق الاخلاص ، فالاخلاص لفن .... وهو يريد لها ان تخلص، الاخرى ، لفنها ، لشعرها .

« ـ انت خلقت كيما تكونين فنانة ، لماذا لا تكتبين ؟ هل نضب نبع الهامك ؟ استفيدي من مواهبك ، اكتبي ... استثمري حروفك ... ضحي من اجل فنك ، واجعلي من الفن حياتك لا من الحب ! الحب ! الحب عاطفة سخيفة ، وزائلة ...

« ـ انت لا تحبني !

« ـ لاتفهمي كلامي خطأ ، ارجوك ! انا احبك حبا عميقا ، عميقا جدا ، ولكن هذا الحب الذي تتحدثين عنه ، انا لا اومن به اصلا ... ! يا ريم ، الفن وحده يخلدوكلنا الى زوال ، الفن يبقى بعدنا ، لكن الفن يحتاج الى تضحية ، انا احب فني .... حاولي ان تفهميني ، انا مطارد صور وصياد انغام ... الفن بحاجة الى مواد اولية ، وانت لا تقدرين ذلك ، ان حبك الجنوني يحد من حريتي كفنان .. انا احبك ، ولا اريد فتاة غيرك .. مطلقا .. انا معك دائما .. ولكن ارجوك افهمي فني .. »

كذلك يقابل زياد المجرب ، حب هذه الفتاة العاشقة التي تريد ان تهبه قلبها . لكم كرهنا زياد في فلسفته ... لكم اشفقنا على ريم الفتاة الغريرة !

وعندما مالت اليه ميلها الشديد وولعت به ، ارادت ان تكاشفه في زواج :

« ـ زياد ... الا تشعر بالوحدة ؟

« ـ الوحدة ؟ الوحدة خصبة يا ريم ... خصبة جدا .. انا لاعيش وحيدا ... انا اعيش مع فني والحاني ... ثم انا احب الحرية ، والحرية توجد في الوحدة ... انا لا استطيع ان ارتبط بقيود ... ان ذلك يحد من آفاق فني .. لا ... انا احب الوحدة ...

« فهمت ان زياد يستبعد فكرة الزواج ، وانه لم يشعر بعد بصقيع الوحدة » .. « كنت ساقول انني في حاجة الى شخص حبيب يبقى الى جانبي ، ويدلني على طريقي... ويدفعني فيه ... ! شخص يبدد ضياعي وخوفي ، ويعطي معنى لوجودي ، فاجد في ظله الامان ، ثم اكتب .. واكتب .. واكتب .. »

احببنا ريم في حنينها الى المجهول ، وخوفها من الوحدة .. وازداد كرهنا لزياد ، الذي ينفر من اسار الحب الجميل .

بل انها لتطلب منه طفلا ، عندما تنبثق في حناياها عاطفة الامومة ، الى جوار الخوف من الوحدة، وهل انبل من الامومة تبدد وحدة المرأة ؟

« ـ الى اي درجة تحبينني ؟

« رفعت نحوه عينين ادمعهما الوجد ، وقلت بصوت ترقرقت فيه الانوثة :

« ـ احبك .... احبك الى درجة انني اضحي باي شيء .. اي شيء عندي من اجلك ..

« ثم تمتمت : « ـ واريد .. اريد ان اعطيك ... طفلا ... »

هذه العاطفة خلقت لتعبر عنها المرأة .. هل من رجل يعبر في قصة عن عاطفة الامومة بهذا الايجاز والصدق والعفوية والسمو ؟

تعرفت ريم بزياد عند بائع الورد ، وكان تعارفا جميلا صنعته لنا الكاتبة . وجاء اللوم ينقض ظهر ريم : اتركيه ، يا ريم ، ابتعدي عنه ، الفارق بينكما كبير!

ورافقته الى السينما غير آبهة . وارتياد الفتاة الاماكن العامة ، بصحبة شاب لا تربطها به قرابة ، يقارب ان يكون في عرف المجتمع جريمة . .

وجعلت ريم تفكر :

« كم من فتاة تذهب وحيدة الى السينما ، وعندما تطفأ الانوار ، ياتي صديقها ، ويجلس الى جانبها ، وتتحاشى البقاء معه حتى نهاية العرض فيخرج قبل ان تضيء القاعة الانوار ؟ .. وكم من فتاة تذهب الى شقة شاب اعزب ، متسترة باجنحة الظلام ، وتخرج من عنده على رؤوس اصابعها ، وتعود الى بيتها لتخبر امها انها كانت ... « عند الجارة » ستار الخبث ! لماذا تسدله الفتاة على افعالها في بلدي ؟ طبعا لانها لا تحترم التقاليد !! هل اكون انا كلاخريات ؟.. »

وماجت الثورة في اعماقها .

« ما اغبى الاهل الذين يجبرون فتياتهم على اقتراف مثل هذه الافعال ! وما اقبح المجتمع الذي لا يحب الصراحة ! المجتمع الذي يؤثر الدعارة في الخفاء على الابتسامة الطاهرة علنا .»

أرايت الى هذه الثورة ؟!

ورافقت ريم زياد الى السينما :

« مد ذراعيه بصورة طبيعية ، واحاط كتفي وظهري ليحميني اولا من الجموع المحتشدة ، ثم من ظلام الممر . وددت لو يبقى دائما هكذا ، كبيرا .. جديا .. قويا .. يشعر بضعفي فيحميني .. تمنيت لو تظل هذه الذراع تحيط كتفي ، وترفع عنهما مسؤولية الحياة . »

يا لهذه المشاعر من انثوية دافئة ، الادب جدير بان تبوح اليه بها انثى جريئة صادقة .

وجاءت اليها جدتها تعاتبها مستطارة اللب :

« ـ ريم .. اصحيح انك كنت في السينما ، منذ يومين ، مع شاب ؟

« اجبتها بصورة طبيعية:

« ـ نعم .. لماذا ؟

« ـ ريم ماذا دهاك ؟ هل جننت ؟

« ـ على العكس يا « تيتا » ... لقد ابتدأت اعقل .. » !!

وتبلغ ثورة هذه العاشقة ذروتها العالية ، عندما تناقش مفهوم «الشرف» الذي يستمسك به المجتمع الشرقي :

« هل انا شريفة ؟ انا التي احبت الرجال ، واحب صداقة الرجال ؟ هل يعتبرني الناس شريفة ؟ انا التي ارافق شابا الى السينما ، واستقبله في بيتي ؟ ... » ، « يقولون عندنا عن امراة تثير الضغائن ، وتحوك الفتن ، وينخر قلبها الحسد ، ولا تترك فرصة تمر دون ان تسيء فيها الى الاخرين ، انها شريفة ، لانها لا تخاطب الرجال ! وينعتون بقلة الاخلاق ، فتاة طاهرة طيبة ، لا تريد للاخرين سوى الخير ، لانها احبت رجلا ووهبته نفسها ! هذا هو المنطق في بلدي ... » ، « انا اؤمن بالاخلاق الصحيحة بالافعال التي يرضى عنها الضمير الصحيح لا العادات ... » ، « اليس لي شعور يتدفق مثل شعور زياد ؟ بل اكثر ؟ اليس لي جسد تنهشه الشهوة مثل زياد ؟ » ، « انا لم اشعر بالحرمان قبل اليوم ، لانني لا استطيع بل لااريد ان أهب جسدي دون ان أفني قلبي ... ولكنني اليوم اتالم .. انا احب ..! هل الحب محرم ؟ وهل يعلم المجتمع ان كلمة شرف كلها تذوب في حروف الحب ؟ شرف .. شرف .. كل واحد هنا ينادي بالشرف ، ولكن هل هناك واحد يفهم معنى الشرف الحقيقي ؟ وفجاة ، تجسمت امام ناظري قصيدة للشاعرة نازك الملائكة : الاخ الذي يقتل اخته « غسلا للعار » ، ثم يذهب الى الحانة ليشرب بين احضان « الغانية الكسلى » نخب الشرف المستعاد ! نعم ! الشرف كلمة نتغنى بها ، لا عن عقيدة بل عن انانية ، وغرور ، وسخف ! » !!

فتاة شرقية ، من قلب دمشق ... تناقش هذه القضية بصراحة متناهية . وهي ، في مناقشتها قد تخطىء الرأي ، وقد تصيب كبد الحقيقة ... ولكن المعجب في هذا ، هو جرأتها — وهي الانثى الشابة — وابتدارها لهذا الموضوع الخطير .

وانها لتصف — بدقة وجرأة — احاسيس شابة بين يدي حبيبها الاول :

« واحنيت راسي على كتفه ، فتسللت اصابعه تفك الخصلات السود من الدبابيس القاسية ، وتعيد الحرية لشلال الشعر العاتم .. وارتفعت همساته الحنونة :

« — ريم .. صغيرتي .. يا حبيبتي ..

« رفعت نحوه ثغري .. فخيمت انفاسي على دفء كلماته .. وامتزج شوقه بصلاة عيوني ..

« برفق ... احتوى العشرين عاما بين ذراعيه القويتين ، فاختلطت في ناظريه الشهوة بالحنين .. وتماوج في ناظري الهوى والليل ..

« وعلت ، شيئا فشيئا ، همهمة الحب ، تقصر المدى بين شفاهنا ... وتلاشى ، شيئا فشيئا ، خلف عيوننا المغمضة ... ضوء الفانوس الاصفر الصغير ... » .

فتحت ريم قلبها للحب ، واشعلته نورا ونارا .

وما يشتعل ويضيء ، يحترق ويفنى .

فهل احترق قلبها واصابه الفناء ؟

الحق ، ان قلب ريم قد ماجت فيه — في فترة — ثوره حب لاهبة صخابة ، وتطلعت الى ان تربطها برجلها وشيجة الزواج يشدها اليه حتى اخر العمر . وهنا عطفنا عليها كل العطف ، فقد استطاعت ان تقنعنا بصواب مسلكها بعد ان بررته لنا خير تبرير ، حتى انجذبنا اليها نرجو معها ان يكلل الزواج حبها الوهاج .

ولكن زياد ، كان يفضل دائما فنه على حبه . والحب عنده مادة ضرورية لتغذية مشاعره الفنية ، وما ريم ، وسواها ، غير « مواد » ، انهن فتيات ماضيات، يعبرن به او يعبر بهن ، وريم احداهن . صارحها بذلك ، فقطع نياط قلبها المشتعل .

وعلمت ان فتاة تركية ، على دينه ، قد اقبلت الى دمشق ، فاولاها عناية خاصة . ان«سوزان » مادة اولية جديدة ، تثري فنه الاثير .

وانطلقت الاشاعات : زياد سيتزوج سوزان ..

افصحت لها احدى صويحباتها ان زياد وسوزان « اذا تبادلا الاعجاب، فلا عائق يقف فيطريق زواجهما ... انسيت ان الدين يقرب ما بينهما ؟ ».

فانطلقت من ريم صرخة ، قدسية ، زهراء ، فيها العاطفة الطاغية الصادقة ، وفيها المنطق المفحم الذي لا يدع قارئا في غير اقتناع :

« هل يعتقد الناس ان هذه الفتاة التركية اقرب الى زياد مني ؟؟ انا التي رضعت معه ينابيع بلدة واحدة .. انا التي تحرقت معه بشمس سماء واحدة .. انا التي شاركت معه ارضنا الشوق الى امطار سماء واحدة ... انا التي احنو معه على احجار بلدة واحدة ... انا التي اتغنى معه بتاريخ بلدة واحدة .. وانا .. انا التي افني حياتي ، معه، لازدهار مستقبل بلدة واحدة ... هل هي اقرب اليه مني ، وهي التركية التي تزور ، لاول مرة ، بلادي ؟ .. » .

يا للجنية ،من مبدعة رائعة الاحساس !

كذلك تمضي القصة بقارئها تغذيه بشحنات من الاحساسات الرهيفة والثورة الجهيرة !

وزياد يأبى الزواج . لانه مكرس حياته لفنه . وهي اعتصرت قلبها في ايامها معه ، حتى ذوى الحب في ارجاء هذا القلب النابض ، وشاع اليأس واصفرار الخريف وانتفاضة الموت .. وان تصوير هذا الجو ، في القسم الاخير من القصة ، ليوحي اليك بالياس والحزن والاسى جميعا ، حتى لتكاد تذرف الدمع من اجل ريم ، وتكاد شفتاك تبتسمان بالكلمة المزرية توجهها لزياد شفاء لغلك الذي يستعر في قلبك .

ولكن الكاتبة ، لم ترد ان تغلق علينا القصة ونحن نحس هذا الاحساس القاسي نحو زياد ، فجعلته يعود اليها طالبا الغفران ، ولكنها ، وهي التي يئست من حبها لخطيبها ومن حبها لحبيبها ، اصبحت اكثر ايمانا بالفن كشاعرة :

« — احبك يا ريم ... هل تتزوجينني ؟ »

« — يازياد ... الفن والزواج لا يجتمعان ..

« — ارجوك .. لا تحاربيني بارائي ..

« — لكنها اصبحت آرائي .. اني مؤمنة بها .. كيف نضحي بفنك وتتزوجني ؟

« — اذا طلب مني ان اختار بينك وبين فني فلن اتردد لحظة .. انا لا اريد شيئا غيرك في هذه الحياة ..

« — هل جننت يا زياد ؟ انت تحب فنك .. ويجب ان نعيش من اجل فنك ...ان فنك هو الشيء الوحيد الذي يستحق التضحية . نعم كنت اريد الزواج .. كنت ارحب بالزواج عندما كنت ضعيفة .. تائهة .. لكنك انت يا زياد حملتني الى الواقع ... علمتني ان احب فني ... ان اعتني بفني ... ان اعيش للشعر ... وانا الان مؤمنة بان الزواج والفن لا يجتمعان .. »

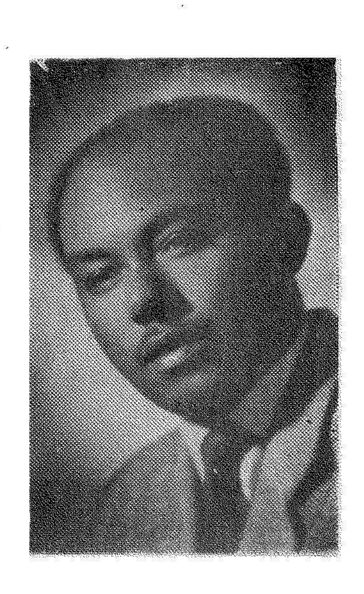
وانتهى الامر بريم الى ان تهب نفسها للفن .

ان الفراغ الذي كانت تشكو منه وتخافه في الماضي ، بدا لها اليوم،

— التتمة على الصفحة ٩٨ —

الزنجي العجوز

« مهداة الى الشاعرة ملك عبد العزيز »



لا تطـرقي يا ريحُ نافـذتي
كوخي .. يدوس على سقيفته
وأنـا هنـا أسقـي حقولهمو
وأنا هنـا أحمـي شياههمـو
وعصرت كـل ُكروم داليتـي
ومـلأتُ بالاشواق اكـوابي
لكنهم مـروا علـى بابـي ...
والريـح تلغو تحت نافذتي
ومضيت اضرب في الدجى قلقا
فسمعت للانهـار دمدمـة
فانا هنا .. من امس امس هنا

أغلقتُ بالظلمـات أبـوابي
جبـَل الليالي ... طـول أحقاب!
أسقي العطاش رحيـق اكوابي
ترعـى .. وترتع .. بين أعشابي
انـي عصرت .. عصرت أعصابي
للشاربين ... ملأت اكـوابي !!
عبـر الدجـى .. لم يتركوا بابي
تروي الـى الظلمات أتعـابي..
عكـازتي .. في ظلمة الغـاب
فكأن ما بضلوعها ... ما بـي !!
فوق الجـذوع .. أنين حطاب!

*

ودخلتُ يوما فـي كنيستهم
واذا بقسّـيـس يطـاردني
تركوا الصلاة .. وهمهموا غضبا
أإلـه الزنجـي يرحمـه ...
وتحلقوا ... ليمزقوا جسـدي
وانا .. انا .. في شدق منجمهم
وأنا كجرذان السفين هوت
ويدمدم القسيس ... يركلني
للبيض .. لا للسود .. أدعيتي
لم يرحموا شيخوختي .. ومضوا
حتى اذا ما غبت عن رشدي
فـروا « لنويرك » لتبلعهم
فلمحتهم .. كوحوش غابتنا ..
لكنـهم مـروا علـى بابـي
حتـى اذا أنـَّت أضالعـه
لملمت أشلائي ... وامتعتي
وزوابـعٌ زرقـاء تتبعـُني
وصحوت .. والغابات تحضنني
ان قعقعت اقدام سـارية
والحور ، والصفصاف قد همسا
ومن البعيد .. تظل ضحكتهم
حتى هنـا يا رب .. تتركنـا
تلد السنين على مدينتنـا

أنسـلُ من باب .. الى باب..
فعثرت فـي أطراف جلبابي
وتلاغـطوا .. انصاف أربـاب
من ذا يكـون ؟.. الهه الغابي ؟
بسياطهم .. بسياط ارهـاب
لقـم .. أنا صرخات سـنجاب
للقاع .. تصرخ بين صـخاب
ويقول : كيـف دخلت أعتابـي
تلـج السماء .. بغـير أسباب !!
يرمون فوقي .. تل أنصاب .
وتلفتـوا بعيـون مـرتاب
حاناتها .. وفتحت اهـدابي
مسعورة ، مزرقة النـاب
عبر الدجى .. لم يتركوا بابـي
وخبت مصابيحـي كأحبابـي
ورجعت ادلـف في حشا الغاب
وثلوجهـا .. ضربات قصـاب
بعيونها .. بعيـون هيـاب ..
القـت علـيَّ تـلال أعشاب!!
.. وتلفتـا لمقابض البـاب
تنـداح .. ملء مسامـع الغاب
يا رب !! أنـا صمـت أحقاب!!
أتعابها ... فتموت اعنـابي

*

لا تطرقي يا ريح نافـذتي
فأنا هنـا من امس امس هنـا

أغلقت بالظلمـات أبـوابي
فوق الجذوع .. انين حـطاب !!

القاهرة

محي الدين فارس



التضحية اختيار وجودي يعيشه المناضل ، ويرتبط كليا بالتمرد الذي يختاره الثائر ، على اعتبار ان الانسان المتمرد الذي يرفض قيم واقعه السيء ، ويتطلع لقيم اخرى يجدها اكثر تحقيقا لحكم السعادة ، يؤثر هذه القيم على وجوده ، وعلى وجود الاخرين .

والتضحية مرتبطة كليا بالفهم الثوري للواقع الاسود السائد في مجتمع معين متخلخل ، وحماس لاهب لتغيير هذا الواقع عن طريق التمرد .

وهي سخاء كامل وايثار للمستقبل والحلم على الواقع والمأساة ، وعطاء دائب من اجل هذا المستقبل ، اي تفضيل مرتبط كليا بالمعاناة الحقيقية للواقع الاسود ، ومنح الحلم او الفكرة كل شيء ، وايثار لتدمير الواقع المشوه من اجل هذا الحلم .

وما دامت التضحية تفضيلا للمستقبل على الحاضر ، وتعبيرا عن رفض لهذا الحاضر - وان كان يحوي بعض فضائل - فهي ايثار لما هو اكثر اتساعا من الهنيهة او الان ، عن طريق رفض المكاسب الجزئية ، والفضائل البسيطة ، لبلوغ المكاسب الكلية والمطلقة اي الجذرية القادرة على تغيير كل الواقع ، واقامة واقع اخر .

هذا يعني رفض كل حاضر قائم سيء ، وهذا الرفض يفترض ايمانا لا محدودا بالذات ، وثقة بالنفس وسيطرة كاملة على الظروف ، من اجل ان يكون المستقبل كما يبغي المتمرد الذي يرفض الواقع .

الثوري يرفض الواقع المشوه ، لانه يظن بنفسه انه قادر على ان يتخطاه ويتجاوزه لمستقبله ، أي ان يسبق الزمن ، فهو لايركن للواقع بل يحمل مصيره بيده ، ويسير الى حلمه الكامل بتضحيته .

التضحية ايثار عملي اذن ، يهدف من ورائه الانسان لتحقيق حلم ويعمد اليها من اجل الاخر ، فما دامت ايثارا فهي رفض لفكر معينة ، وقد لاتكون خاطئة كليا ، وعلى كل تضحية بسعادة انية من اجل سعادة دائمة ، وفيها يتجلى الثوري الذي يتجاوز المتمرد به واقعه ، والذي يعبر بالتضحية عن هذا التجاوز .

والذي يتخذ من التضحية طريقا فهو يعيش قضيته ولا يناقشها فكريا ، هو يعانيها ، ولكن المفكر الذي يحلل القضية يناقشها ويحاول تقييمها ، ويهتم بدراستها اكثر من اهتمامه بتقديمها ، وبالتالي يحاول ان يعطي كفرض منهجي احد شقي صراع الواقع والحلم ، وهو الواقع ، أهمية قد لايعطيها الذي يعيش المشكلة . ان المفكر يحاول ان يختبر مدى جدية الفكرة او مدى انسجام الانسان الثائر معها عندما يضحي بنفسه في سبيلها ، ويحاول ان ينقص من قيمتها ، وذلك بدراسة مضمون الحلم الذي يضحي الثائر من اجله ، ويحاول ان يعطي اهمية للحاضر والآن ، ويشكك في امكان الحلم ، ويعلل في النهاية لفرض يضعه ويجعله نقطة انطلاقه ، وهو امكان السعادة في هذا العالم ، لان التشكيك في امكانها في المستقبل ، يوصل للايمان بالحاضر فقط وان كانت بعض جوانبه سيئة ، لان المستقبل لن يحوي السعادة الكاملة ، بل لابد وان ينغص عيش انساننا فيه شيء ، وقد لايكون ذا اهمية بالنسبة الينا اليوم ، ولكن الكمال والطمأنينة في عالمنا لاوجود لهما .

هناك فكرة اساسية ينبغي ان نعيرها كل الاهتمام عند مناقشتنا لمضمون « التضحية » ويمكن ان توضع في الجملة الاتية : « ان الانسان الذي يؤثر الحلم ، اي يتعلق بالماهية الكاملة ، يرفض الوجود الناقص المشوه ، وان كان هذا الوجود يحوي بعض فضائل . وحتى يستطيع جعل الماهية او الحلم وجودا واقعيا ، لابد له من ان يضحي باعداد من الناس هم « الثوار » او « الفدائيون » ليكون العالم اكثر سعادة . »

اذن هناك « تضحية » ينبغي بذلها ، وهناك « قرابين » ينبغي تقديمها ، وقد تكون النتيجة قتل عدد من الاطفال او الابرياء ، اي موت عدد كبير من الناس ، فاذا لم تكن هناك ضمانة اكيدة تجعلنا نثق بعد كل هذه التضحيات بامكان السعادة او بتحقيق الحلم ، فقد نتردد في التضحية بالواقع من اجل المستقبل الذي قد لانثق بامكان السعادة الكاملة فيه ، وأزمة عدم الثقة هذه مرتبطة كل الارتباط بكل التجارب الثورية التي مرت على الانسانية ، والتي امتهنت في اكثرها الكرامة الانسانية ، بقطع النظر عن مدى تأثير هذه الثورة في المجتمع ككل وبالتقدم الانساني كمجموع .

ان الفهم الصحيح لكرامة الانسان واعتباره غاية في حد ذاته يجعل من المستحيل التفكير بالانسان كرقم ضمن مجموعة من الارقام ، فالتضحية ينبغي ان لاتقاس بمقياس مادي يجعل من الانسان عددا ، لان المشكلة ليست رياضية مجردة . فقتل انسان يعني قبر موهبة ، قد تكون تعادل الافا من المواهب ، وقد تكون ذات أهمية تعادل او تزيد على الكسب الحضاري الذي تحصل عليه الانسانية نتيجة

القتـــل .

وهذا الفهم يمكن ان نجده بصوره واضحة عنـــد « باسترناك » في « الدكتور جيفاكو » اذ ان جيفاكو يطرح القضية بشكل واضح وصريح ، ففساد الاوضاع السابقة لثورة « اوكتوبر » وحماسه اللاهب لتغييرها واضح ،لامجال للشك فيه ، ولكن خيبة أمله من النتيجة التي حصلت بعد الثورة ، وبعد كل الضحايا التي قدمت ، قد جعل ايمانـه يتزعزع ، حتى انه يبلغ موقفا معلقا نتيجة للصدمة التـي خلقتها خيبة الامل ، فهو ليس من انصار الثوار الذين لـم يحققوا حلمه ، وليس هو من انصار بقاء الاوضاع السابقة ، وكلاهما لم يستطع التعبير عن حلمه بالسعادة ، او لم يستطع اي منهما ان يفهم الكرامة الانسانية كما فهمها هو .

ونحن طبعا لاننافش مدى صحة موقف « باسترناك » ، ولكننا نحلل موقفه بغض النظر عن صحة ماذهب اليـه او عدم صحته ، المهم انه وقف موقفا معلقا بين طرفـين رفضهما معا ، رفض الخضوع ، ورفض الثورة التي لـم تعط ماحلم بـه .

طبعا هذا موقف محير من الاحداث ، ولكنـه مـوقف واقعي ، فكثيرون ، وعلى الاخص ان كانوا مفكرين مـــن نوعية اخلاقية معينة ، يجدون في الاحداث السياسيـة والاجتماعية ، ولا سيما اذا كانت على نطاق جماعـي وتخضع لاهواء عامية لاتهتم كثيرا بالمعنى الانساني للحياة والكرامة ، يجدون فيها مايثير تقززهم وانصرافهم عنها ، وعلى الاخص حينما لايستطيع قادة الثورات توجيهها ومنع سيطرة الغوغاء عليها .

المنطق المادي الذي يعالج قضية التضحية من وجهـة نظر عملية يخلص نتيجة هي ان موت عدد من النـاس ضروري لبقاء المجموع ، وهذا قد يستطيع ارضاء بعـض الضمائر ، ولكنه يصعب عليه ارضاء فنان مرهف الاحساس أو مفكر ، ينظر للانسان كفاية في حد ذاته ، فهو ينشـد الوصول لحل ، ولكنه يبقى متألما مادامت النتيجة هـي « موت عدد كبير من الناس » ، والتمزق يبقى ابديا بـين معطيات المستقبل والتضحيات التي قدمت من اجله ، ويظل ينشد ان يصل لنتيجة ، ليستطيع الطمأنينة ، ولا نتيجـة لان من الصعوبة بمكان ان يعرف ايهما يستحق الايثار او ايهما اكثر انسجاما مع اخلاقية الفنان .

قد يعطي الفنان ، ويقبل التضحية في موقف عملـي ، او في تجربة نضالية ، فيجد نفسه في مقدمة من يقدمون انفسهم ، وقد يرتكب الخطيئة ، اي يقتل انسانا بريئـا في موقف معين ، ولكن الفنان الاصيل حين يعود لنفسـه يجد ابدا نفسه في هذا التمزق الداخلي ، بين معطيـات ثقته بنفسه ، ومعطيات الثائر الذي يرفض التسليم الساذج بالواقع ، وقد يصل التمزق حد التعليق والحياد بينهمـا ولكنه حياد فعال ابدا وليس بسلبي مقيت .

المفكر او الفنان يعتبر الاخلاق هي التي تعطي الثورة كل مقوماتها ، والاخلاق هنا تعني خير المجموع ـ لا ككل يذوب فيه الافراد ، بل كتلاقي ذوات حره ـ وبالتالي فالاخلاق تفترض ان لايكون ثمن المستقبل الكرامة الانسانية ، لان المستقبل الذي يقبل التضحية بالكرامة هو مستقبل زائف لانه قائم على اساس مشوه .

وتجد هذا التفكير بصورة واضحة عند « كامو » فـي مسرحيته « العادلون » وتمثل شخصية كل من « ستيبان» و « كاليائييف » نموذجين لانسانين من الثائرين ، احدهما وهو « كاليائيف » يرفض ان يدمر مدنية قائمة في سبيل مدنية بعيدة المنال . يرفض ان يصفع اخوته ، واصدقاءه من اجل حلم ، وهو يؤثر ان يبقى ممزقا ، وفي صراع بـين معطيات عالمين كلاهما لايجد فيه تحقيقا لامآله ، فهو يرفض ان يقتل طفلين صغيرين وجدا في عربة الدوق في اللحظة التي هم فيها بالقاء القنبلة ، وقد اثر ان لايقتل الدوق اذا كان في قتله للدوق قتل لضحايا بريئة ، طفلين لا ذنب لهما ولا جريرة ، بينما الثورة كما يفهمها الاخر « قتلا » ، الثورة عند الثائر الشريف او عند المتمرد الاخلاقي ان ابتعدت عن الشرف فقدت كل معانيهـا ، والشرف هنا لايعني الا اخلاقيتهـا .

خلاصة القول ان المعنى الصحيح لقبول التضحية بالواقع في سبيل المستقبل ، ان لاتكون التضحية على حساب الاخلاق وان كانت هناك ضحايا فينبغي ان يشق الثائر من المستقبل لان وثوقه من امكان المستقبل هو العامل الاساسي الذي يجعل من ثورته شيئا ذا معنى انساني . وثورته لاتعني فقط امكانها ، بل تعني مقدرته هو على ان يعطيها للآخرين ، وتختفي التضحية كليا وتصبح غير ذات موضوع عندما لايثق الثائر بامكان السعادة .

***

اوضحنا في البداية ان التضحية ايثار ، وهذا الايثار يتعلق بالاخر ، اذ هو ايثار من اجل الاخر ، وعمل على سعادته وقلنا انها وثوق بامكان الثائر بانه لاشيء الامايستطيع ان يعطيه للاخرين من قيم ، اي اذا كان الثائر انسانا يعي تماما نقصه ، وعدم تدبيره ويشعر شعورا قويا بامكانية ان يكون اكثر من شيء من الاشياء التي لاتجهد نفسها كي توجد ، ويعمد لرفض ان يكون شيئا معينا ، ويؤثر ان يتمرد على من يحاول ان يحيله لشيء ما ، اي لما هو فاقد للانسانية ، وعندما يشعر بان الاخرين لايستطيعون مثله ان يكونوا ذوات لا اشياء ، وان هز اعماقهم ، ورفعهم لمستواه الانساني لا يكون الا تبرير الواقع وبالتضحيةبالذات في سبيل الاخر ، هذا الاخر الذي يعطي وجودي كل كونه ، والذي عن طريقه استطيع قهر الموت وعند ذلك يؤثر الثائر ان يدمر نفسه فيرتفع بالتدمير لمستوى القضية او الماهية التي يؤمن بها ، ويخلد عن طريق الاخرين ، بعد ان يوقظهم ويصبح مثلهم الذي يحتذى .

القضية هنا اصبحت ذات شقين ، الشق الاول يرتبط كليا بما قلناه من ايثار للمثل الاعلى ، وللفكرة والماهية ،على الواقع المشوه ، وهبة ثانيا لذات الانسان من اجل هذا المثل ، دون امل بالاسترداد ، هي فناء للذات من اجل الفكرة ، هي صوفية اخرى وعطاء من اجل هذا الاخر ، الذي ليس شقا اخر في صراع انا قطبه الاول ، بل هو وانا معا نعيش كلانا في الاخر ، لحب احدنا للاخر وايثاره له ، فهو اذن تلاق روحي غني ، وليس بصراع ، والتلاقي الروحي حينما يبلغ اعلى مستوياته يبلغ حد فناء الواحد في الاخر ، وتدمير جسد احدهما لايعني موته بل يعني انتقاله من وجود جسدي الى وجود روحي قد يكون أغنى من الوجود الاول ، وعلى الاخص اذا ضخمته الاسطورة ليصبح المثل الاعلى والموجه لشعب في مرحلة من تاريخه .

اما تفضيل الواقع والسعادة الانية ، على المستقبل والتضحية ، ورفض حلم السعادة الكاملة لانها وهم ، كل هذا يجعل من السعادة تعلقا « بالآن » او « بالهنيهة » ، ويجعل طريق الوصول اليها اختلاس سويعات سعيدة من بين الالآم اللامتناهية ، وهي كل سعادة ممكنة في عالم شقاء دائم .

وهذا الفهم تجده واضحا عند ديستوفسكي في كتابه « مذلون مهانون » ولنحاول ان نعرض لتحليل مبسط لهذه الرواية .

كل ابطال قصة ديستوفسكي يقعون في الحب ، ولكن الطرف الاخر في حب كل منهم يؤثر حب اخر ، « فانيا » يحب « ناتاشا » و « ناتاشا » تحب « اليوشا » و « اليوشا » يحب « كاتيا » ، و « فانيا » يحب من قبل « هيلين » ، وهكذا كل منهم محبوب من قبل اخر لايحبه ، وكل منهم يفضل التضحية بحبه ، بسعادته ، في سبيل الاخر ، والحب هو الذي يعطي السعادة للانسان ، وهو لايعني التعلق « بالآن » او « الهنيهة » بل يزداد الحب وينمو ويصبح انسانيا بمقدار مايكون تعلقا بالروح ، اي اذا بني على « التضحية بالسعادة الانية » ، والحب ليس تعلقا بالغيب ولا بالخيال ، بل هو حب لهذا الانسان الموجود الواقعي الذي يتألم ويشعر ويخطيء .

وكان يمكن لابطال قصة ديستو فسكي ان يسعدوا جميعا بتلاقي كل محب بمحبه ، لو كان كل منهم قادرا على التخلص من الخيال الذي يجعل في النهاية سعادتهم سرابا فالحب هنا ضد كل ماهو متعال وغيبي ، لانه بعيد كل البعد عن كل ماهو عقلي وجامد ، لانه موجه نحو هذا المخلوق المؤلف من لحم ودم .

والنتيجة التي نخلص اليها ، أن سعادته ليست في تضحيته لان التضحية احيانا ، وان لم ترتفع لمستوى روحي غني ، تظل تعلقا بوهم ، اذ ان كل هذه التضحيات التي يبذلها كل إبطال الرواية لاتستطيع ان تمنحهم اية سعادة ، والسعادة كان يمكن ان تكون لو لم يعمد الانسان للتضحية .

كأن السعادة هي هذه اللحظات الجميلة التي يختلسها الانسان ، من ضمن الالام اللامبررة التي تجعل من الحياة مأساة بطلها الانسان وعدوه فيها كل شيء .

طارق الشريف

معنى الادب عند سلامه موسى

ـ تتمة المنشور على الصفحة ٤٨ ـ

الرحمة ، كما نلقي للجائع لقيمات الصدقة »

وفي البلاد العربية ادباء كثيرون يفهمون الانسانية في الادب على غير هذا النهج . الانسانية عندهم ان « نمتع » الانسان باحلام الربيع ، واخضرار الحب ، ونشوة الجنس . حتى ان شاعرا عربيا مشهورا كتب يقول انه في دهشة من الذين يكتبون للشعب عن الكفاح والموت والدموع في حين ان عمالنا وفلاحينا ، عندما يغادرون مصانعهم ومزارعهم في حاجة الى الكلمات الحلوة التي ترطب عرق كفاحهم ، لا الى الكلمات الخشنة التي تزيد اعباءهم ثقلا .

والواقع ان هذا الشاعر العربي ، قد صور مأساة ادبنا « الانسانية » اروع تصوير . فهو يرى ان العمل المجهد في حاجة الى « منديل رطب » يجفف به عرقه ، ولست ادري : لماذا نسى قليلا من العطر ايضا ، يعبق المنديل برائحة جميلة ، تخفف من وقدة التعب التي يستشعرها العامل المسكين ؟

اجل . ان عمالنا وفلاحينا مساكين ، لان تاريخ بلادهم الادبي ، قد ابتلى بمثل هذا الشاعر . فنحن لانريد ياسيدي لهذا العامل ان « ياخذ راحته » و « يرطب جبينه » وينام سعيدا « مع شخيره العميق الهادىء » اننا لانريد له ادب « الويسكي » و « ورقة التوت » لان هذه المخدرات تقتل حواسه ، فيطمئن ويرقد على مستقبله . ادب المناديل هذا يستهلك الطاقة الكفاحية عند هؤلاء المكدودين ، ويمتص قواهم الثورية فينامون على الشوك ، ولا يحسون بنزيف دمائهم ، لانهم شربوا عصير « المناديل » وتاهوا في غابات الاحلام . ادب الورود الزرقاء والنهود الدجداجة ، هو « حقنة بنج » ترسل المريض الى متاهات بعيدة عن حياته وواقعه والامه المرة .

ولكن ايدي ادباؤنا الكرام ، ان آثار المناديل والخمر والبنج جميعها تزول ، ويبقى شيء واحد هو الالم !

هذا « الالم » هو الخامة الاصيلة للفنان « الانساني » لانه اذا كان صاحب مقدرة « كوميدية » استطاع ان يرطب حلوقنا بالضحكات ، وان تركت في نهايتها مرارة العلقم فهذه المرارة وحدها ، هي « المصل » الذي نستعيد به صلابتنا ، ونسترد بواسطته مستقبلنا . واذا كان الفنان صاحب لون « جاد » استطاع ايضا ، ان يكشف لنا بوعي ، عناصر المأساة الانسانية التي تشكل مصيرنا على غير ما نهوى .

يلزم ان نقبض على هذا المصير .. لا على الايدي الناعمة (١)

ان قلق العامل والفلاح ، وعدم طمأنينتهما ، اشرف بكثير من سعادتهما « الواهمة » .

ليس الادب الانساني هو « الكوكايين » وانما هو « النوشادر » الذي يفيق به الانسان على حقيقة وجوده الراهن . ومن ثم يبادر الى تغييره .

ولهذا كله ، قال سلامة موسى هذه الكلمات المضيئة (ص ١٩٤) « لااعتقد اني احتاج الى ان اشرح النزعة الانسانية في الادب . ولكن عندنا كثيرون ممن يزعمون انهم ادباء كبار ، وكل تقاليدهم من الادب مدائح المتنبي لسيف الدولة ، وقبائح ابن الرومي الجنسية البرازية ، وخمريات ابي نواس ولوطياته ، ونحو ذلك . ولهؤلاء اقول ، ان الانسانية في الادب تعني مكافحة الظلم والجهل والفقر . والاديب الذي يتخذ هذا المذهب الانساني تعود حياته نفسها ادبا لانه مكافح .

وفي عصرنا الحاضر ، تتمثل هذه النزعة الانسانية في المذهب الاشتراكي الذي يحاول انصاف المظلومين باغناء الفقراء ومساواة الجنسية ومحو التعصبات العدوانية ، سواء كانت دينية أم طبقية ، واستخدام العلم لاشعاع النور في الاذهان ، والرفاهية في المدن والقرى ، وتحطيم القيود التي تحد من الحريات سواء كانت قيود الخرافات ام قيود الحكومات ..

هل معنى ذلك ، الا يصبح الجنس والحب والمرأة من موضوعات الادب ؟

غير صحيح ! وما نطالب به هو ان تتناول هذه الامور جميعها حسب « منهج علمي » . والنظرة العلمية للجنس والحب ، لن تدعهما موضوعين شائهين في الادب الكفاحي ، وانما يمسيان في مستوى الضرورة والاهمية.

هذه هي « الانسانية » التي تخلد الادب ، وترفعه الى المستوى العالي بين انتاج العالم . والخلود هنا بمعناه النسبي ، وليس ذلك المعنى المترسب في اعماقنا ، منذ قليل بان فنون الادب « موهبة من السماء » . وبالتالي « خلوه » من وهج العبقرية التي هي منحة الاله !

« ان قيم الادب ، مثل سائر القيم ، تتغير كلما تغيرت الظروف . واذا كان الجمال يتسلط على الاديب ويشغل ذهنه حتى ليتوهم انه خالد ، فان هناك ماهو « أخلد » منه وهو الانسانية » (ص ٩٣)

ولا شك ان الوحدة الحية بين القالب الفني للعمل الادبي ، ومحتواه الانساني ، يتناسقان كلاهما في ابراز المضمون او الهدف الذي يقصده الفنان .

ومن هنا تبرز قيمة الصياغة الفنية ، ويتضح دورها في توصيل مايستهدفه الكاتب الى قلوب الناس وعقولهم وكيانهم ووعيهم .

فالبقاء النسبي للعمل الادبي ، لايعتمد على « عظمة » مايحتويه من قيم رفيعة ، لان هذه « العظمة » لاتتحدد معالمها الا في الاطار البنائي الناجح . اما نسبة هذا البقاء ـ او الخلود ـ فلانه « قد توجد ظروف تدعو الاديب الى ان يحارب ملكا سافلا او عقيدة فاسدة او طبقة طاغية او استعمارا او استبدادا ، فهو يستقطب الصمود على موضوع معين كي يبرزه ويحرك العقول والقلوب بشانه . وقد يزول السبب الذي كتب والف من اجله . فتزول قيمة ماكتب وما الف . لان الغاية قد تحققت . ولكن تبقى بعد كل هذا النزعة الانسانية ، في الاديب ، لان حرفة الاديب وعنوانه وموضوعه انه انساني » (١)

كيف يتطور الادب الى هذا المستوى من الانسانية ؟ والجواب ، انه لايمكن للاديب ان يصبح انسانا في حدود ذلك المعنى الرائع ، الا اذا حدد لنفسه مفهوما علميا للطبيعة والمجتمع . لانهما خامتا الفن والادب ، وكافة اوجه النشاط الانساني .

ولا يستطيع ان يحدد الاديب هذا المفهوم العلمي ، الا اذا استبعد كل الاتجاهات المنافية للعلم ، وان تمسحت به للايهام والتضليل . ولا يتحدد هذا المفهوم ايضا في اطار مدرسي جامد ، وانما بالاستقراء الذاتي لجوانب الحياة ومظاهر المجتمع . اذ بعد مايتسلح الفنان بمنهج علمي

---

(١) « الايدي الناعمة » مسرحية لتوفيق الحكيم ، يثبت فيها ان السلام بين أصحاب الارض « الاقطاع »وبين الفلاحين لابد ان يسود ، اذا التقت الايدي الخشنة مع الايدي الناعمة !!

(١) « من أهان انسانا فقد اهانني » هوايتمان .

يبدأ دوره الخلاق ، في تطبيقاته الثابرة على الواقع المحيط به .

وسيبدو له - على الفور - ان الحياد المزعوم لاقدر له من الصواب وسط هذه الصراعات المتباينة . « لقد عشنا في مجتمع مصري لابسته ظروف استعمارية واستبدادية . والكاتب الذي وقف بعيدا لايكتب عن هذه الظروف لمصلحة الشعب او الذي كتب في مدح المستبدين والمستعمرين لايمكن ان يوصف بانه كان امينا للانسانية والمجتمع » (١) (ص ١٥٤) .

ودعوات الحياد ، دائما لاتنبت الا في ارض مضطربة . والموقف الحيادي نفسه موقف مضطرب . لانه ليست هناك فلسفة ايجابية تقول بالا يصبح للناس فلسفة . بمعنى انهم لايتمتعون بوجهة نظر . والفلسفة الايجابية لاتقف بلا حول ولا قوة ازاء الاحداث الدائرة حولها .

والادب المصري الحديث ، عرف نفرا من هؤلاء الذين تشدقوا بـ « الحيدة الموضوعية » ، فلم يجسروا على عبور هذا الموقف « المتجمد » الى طريق الحياة العريضة والانسانية . قال هؤلاء ، في دعواهم ، ان الفن يجب ان « يعلو » على مستوى الصراع الاجتماعي ، لان مجاله الحقيقي هو « الحياة الوجدانية » للبشر . وقالوا ايضا ، بان الاديب « الحر » هو الذي ينفض عنه قيود المجتمع ليطير في اجواء « علوية شفافة » .

والحق ان هذه الحيدة المزعومة ، هي حيدة واهمة ، لان « اللاموقفية» هنا ، هي « موقف » واضح وصريح وحاسم . والشعوب دائما تردد « من ليس معنا فهو علينا » اي ان الذين يهربون من المعركة يؤيدون - بطريق غير مباشر - اعداء المستقبل للبشر . « وأيما اديب لم يثر على الاستعمار والاستبداد ، وأيما اديب يحس النار تأكل احشائه ، بل اكاد اقول ايما اديب لم يفقد وجدانه وينس الحذر ويزج في السجن وهو يكافح ظلام الانجليز ونذالة الخديويين والملوك في مصر ، لايمكن ان يوصف بالشرف ..(٢)

ذلك ان ادبنا كان يجب منذ ١٨٨٢ ان يكون شعبيا ثوريا يكافح بالفكرة والكلمة هؤلاء المستعمرين والمستبدين . وكان يجب ان يكون على الدوام مع الشعب يقف الىصف الفلاح الذي يحمل الفاس،والحوذي الذي يسوق فرسه . والصانع الذي يصوغ الاثاث ، والطالب الذي يعجز عن اداء المصروفات ، والموظف الذي يعمل طوال النهار لقاء جنيهات لاتكفي طعام اولاده ..

وهكذا لم يكن في مقدور الفنان المصري حينذاك ، ان يقف مكتوف اليدين صامتا كالتلميذ المؤدب . وقليلون جدا هم الذين رفعوا هذه الايدي في وجه الاستبداد والاستعمار . وان نجح هذا الاخطبوط الاسود في تحطيمها . وسلامه موسى مثلا - كان واحدا من هؤلاء القليلين حين قال في جراة « ان في مصر من يعيشون بالف جنيه في اليوم ، وفيهم من يعيشون بثلاثة قروش ، واحيانا لايجدونها » (٣) ، ولم يكن نصيبه حينذاك الا نوما هادئا على اسفلت سجن الازبكية !

ألم يصبح الادب كفاحا ، والكفاح ادبا ، كما يقول برنارد شو ؟ ليس حراما اذن ان يكون بيننا« كتاب شهداء » كما نادى سلامه ، وليس غريبا ان يصرخ بزملائه في شرف الكلمة وقداسة القلم (ص ١٦) :

« افيقوا يأدباء مصر وافهموا وتعلموا ان الادب للحياة والانسانية والمجتمع ، وانه ليس نكتة بديعة ، او بيتا رائعا ، وانما هو ارتقاء وتطور وكفاح لقيم الخير والشرف والاخاء والحب » .

والاديب العربي الذي لم يقف الىجانب شعبه ، سواء اعلن ذلك صراحة او احتمى داخل اسوار النظريات الرجعية في الفن ، لايملك الا ان يكون ذلك الرجل . فقد تطوعت ظروفه الموضوعية ، بأن ينطوي على نفسه ، ويتقوقع داخل ذاته ، ليلد - في نهاية الامر - هذا الادب المتعفن اللزج .

والمدارس الادبية في اوروبا حين عنيت بـ « الجمال » الفني وحده ، كعنصر يتيم للفن ، كانت تصور مأساة تاريخها الاجتماعي ، قبل انتلخص مأساة تاريخها الفني ، بهذه الانعزالية المطلقة . فقد بلغت اوروبا حينذاك ، اعلى مراحل الازمة الاقتصادية والسيكلوجية ، في آن واحد ، بعد الحرب . اذ تمزقت اوصال تكوينها الاقتصادي ، بفعل الخسائر الرهيبة التي استنزفت دماءها في الميدان . وتمزقت أيضا أرواح بنيها بعد ان صهرت نفوسهم في بوتقة التناقض الجذري العميق ، بين المثل العليا فوق صلبان الحرب ، وبين أتون هذه الحرب . احسوا بتناقضات اخرى بين اخلاقيات المجتمع البرجوازي ، وبين القيمة الحقيقية لهذه الاخلاقيات ، وبين دعاتها ورافعي راياتها من جانب ثالث .

ومن ثم كانت الدعوة الانعزالية هنا ، احتجاجا ادبيا على « فوضى المجتمع الجديد » (١)

وفي مصر ، لم تنبت الحركات « البرجوازية » الا من صميم الاضطراب الجذري في ارض المجتمع .

وحقا لاتشابه بين « الفوضى الاوروبية » واضطراب مجتمعنا . ولذا اختلفت السمات التفصيلية بين رواد « الفن للفن » في اوروبا ، وبين رواده في بلادنا . ولكن هذا الاختلاف لم يذب المعالم الرئيسية . ومن يتأمل تاريخنا الأدبي - بعد الربع الاول من هذا القرن - يكتشف التناقض الجذري في التكوين الاجتماعي لهذا التاريخ . ولا يلبث ان يعثر على نقائض ثانوية صغيرة كثيرة .

والتناقض الحاد الحاسم في مجتمعنا آنذاك ، تمثل في الصراع بين

(1) Plekhanov : Art and Social life P. 48

(١) « الادب هو التعبير عن الضمير الانساني » (ص ٩٣) س.م

(٢) « اذا غاب الشرف عن الادب فقد غاب كل شيء » (ص ٥١)س.م

(٣) « حرية العقل في مصر » - دار الفجر - ١٩٤٥

طبقاتنا الشعبية ، والاقطاع . وما زاد حدة هذا التناقض اتساعا ، هو ان الاحزاب السياسية ، في جميع انحاء العالم ، هي في صميمها «تلخيص» لاتجاهات طبقية . اي ان حزب المحافظين مثلا ، هو حزب الطبقة الاقطاعية من لوردات وكونتات وباشوات . ويليه مباشرة احزاب « الوسط » وتمثل الطبقات الوسطى بشقيها « الصغيرة والكبيرة » ثم احزاب العمال اليسارية .

ولكن مصر – دون العالم اجمع – اصرت تحت ضغط ظروفها الموضوعية – (١) ان يقود اغلب احزابها ابناء الطبقة العالية . حتى ما سمي بالحزب الشعبي (٢) كان قادته عامودا فقريا للنظام الاقطاعي .

اما حزب العمال المصري ، فكان يرأسه احد « النبلاء » (٣) !!

هذه الفوضى السياسية ، التي يرعاها القصر من جانب ، والاستعمار الاجنبي في الجانب المقابل ، خلقت بدورها ، الفوضى الاقتصادية والاجتماعية والنفسية . وبرزت الاتجاهات الحيادية في الفن ، احتجاجا – لاواعيا – على بشاعة هذه الفوضى .

يقول سلامه موسى (ص ٩٥) « ليس العالم في فترة تاريخه الحاضرة في استقرار . فاننا نعيش في وسط يحوي من الحضارات والثقافات والاهداف الاجتماعية ، بل يحوي من الوان الاستعمار ، والاستقلال والرجعية ، في الشرق والغرب ، ما يحمل كل انسان انساني على ان يتعرف مكانه من هذا الاضطراب او هذه الفوضى ، ويعينه . وعلى أن (يجتهد) حتى يميز بين الحسن والسيء . ثم عليه بعد ذلك أن يعرف جبهته وهدفه ومعسكره فيدافع عن موقفه ويجهد للوصول الى هدفه «على كل انسان ان يفعل ذلك اذا استطاع . والاديب اولى الناس بأن يفعل ذلك ، اذ هو يرى اكثر ويفهم اكثر» .

وهو – بهذه الكلمات – .. دق ناقوس الخطر ، فمن كان بغير وعي ، ينعزل عن الناس وحياتهم ومشكلاتهم ، اصبح لا يملك سلاح « الجهل ». ومن تشدق « بعلوية » الفن عن هذه « السفاسف » أحس انها ليست كذلك ، بل هي ضالته الوحيدة . ومن رأى في الاتجاه الجديد ، عدوا لمصلحته الخاصة وكيانه في المستقبل ، لم يبتعد عن الشعب ، بل جال في صفوفه ، مخربا ، وداعيا للهزيمة والفشل . والذين اطمانوا على (حقوقهم التاريخية) فيما مضى ، وكانوا مستقرين في هدوء البال ، امسوا قلقين ، ياكلهم التوجس ، والخوف والحذر . وتغير ادبهم ، بالتالي، فبعد ان كان« ترفا »و « متعة » اصبح كفاحا نشيطا ضد اهداف الشعب(٤).

« وفي ظروف الاستقرار او الركود او الطمانينة يفشو ادب الترف واللذة ، بل ربما على الدوام يكون مؤلفو هذا الادب انفسهم من المترفين الذين استقروا وارتضوا حالهم الاجتماعية السائدة . فكرهوا التغيير ، وقنعوا بلذة مستقرهم ونسوا الانسانية » (ص ٩٤)

لذة « الاستقرار » اذن ، هي الهدف الكبير الذي ينشده دعاة المتعة ، في المجتمع « المستقر » على مصالحهم وكيانهم . اما حين يتزلزل هذا الكيان ، فانهم يتحولون بسرعة الى ادب الكفاح ... الكفاح المظلم !

ودعاة التحليق في فضاء الفن «الاصيل» ايضا ، على غير فهم واضح بطبيعة الفن . لان الاديب ليس مخلوقا هلاميا لا يتأثر بما يحيط به خلال عملية الخلق الفني . لان الفنان هو قطعة من الانسانية ، بما يتجمع فيها من تراث تاريخي واجتماعي وبيولوجي . اي ان الاديب – كانسان يعيش بيننا – هو جماع تاريخي واجتماعي وبشرى لفترة زمنية معينة ... وهو حين يكتب لا يتجرد من هذه الخصائص المكونة لانسانيته ووجوده . لان تجرده منها بمثابة تجرده عن جسده البشري وعقله الانساني وكلاهما تعبير عن تكوينه العضوي والسيكلوجي والذهني .. هذا التكوين الذي يتعاون في تناسق اثناء عملية الخلق الفني . ومن هنا يبدو واضحا اننا لا نستطيع ان نعزل الفنان عن حياته (١).

وكثيرا ما يتوه هذا المعنى عن ادمغة الكثيرين من ادبائنا وفنانينا . لانهم يؤثرون تعريف « الموضوعية » بانها التجرد من كل عاطفة ذاتية . ولو كانت العواطف التي يعنونها هي الكراهية الساذجة او الحب الساذج ،لاسرعنا بموافقتهم .. ولكنهم يقصدون بالعواطف شيئا اخر هو « الميل » الى مباديء معينة دون اخرى ، رغم انه لا يوجد انسان في العالم بلا مباديء اي بلا فلسفة . والفنان – ايا كان يناقش الحياة والكون والانسان « بما تكون له من فلسفة بشأن الانسان ومجتمعه . ولا يمكن ان يكون هناك اديب بلا فلسفة » (ص ٩٣) ، وسواء تم ذلك بوعي او بغير وعي ، فانه لا يلغي القضية .

ولذلك تساءل سلامه موسى (ص ١١١) : ما هو اعظم ما يؤلفه المؤلف في الادب ؟ واجاب « هو حياته ، كيف عاش ؟ كيف ارتزق ؟ ما هي الاحزاب السياسية التي انضم اليها ؟ ما هي الثقافة التي اثث بها ذهنه؟ ما هي علاقته بمجتمعه ؟ هل سعى لخيره ام لضرره . بل ما هو كفاحه في هذه الحياة ؟ » .

ثم يقول « ايها القاريء ادرس الكتاب الاول الذي الفه المؤلف . وهو حياته . بل طالبه بذلك حتى يخرج كتابا يبين فيه المبررات التي حملته على ان يسلك سلوكا معينا في السياسة او الاجتماع او الاستعمار او غير ذلك »

ان دعوة سلامه هنا تلخص – بشكل رائع – منهجه في فهم الادب . هذا المنهج الذي اهداه لنا مركزا في كتابه العظيم « الادب للشعب » لنستعين به في حياتنا الادبية الجديدة .

واول الاعباء التي يلقيها الرجل على عاتقنا ، هي ان « نعي » موقفنا في الحياة والفن ، بدلا من ان نسير هكذا في « عشوائية » تتميز بروح المغامرة ، لا بروح الكفاح الجدي المنظم .

ولقد وقع سلامه موسى ، شهادة غالية لابناء الجيل الجديد حين قال (ص ٢٥) « اني اعمل واكافح كي يتغير هذا المناخ . وسيتغير لا بمجهودي انا وحدي ، بل بمجهود هؤلاء الشبان الجدد الذين رأوا النور وتحرروا من استبداد التقاليد وعملوا لتطور الفكر في مصر » .

وهي ليست شهادة ، بقدر ما هي وثيقة . انها مسئولية ثقيلة ، ان تتحمل عبء تطوير مجتمعنا .

✶

ما هي مسئولية الادب الجديد ؟

ان السؤال – رغم بساطته – يثير لغطا اذا تناوله البعض – كما يحدث

---

(١) كان التعليم والثقافة قاصرين على ابناء الطبقات الثرية .

(٢) الوفـد .

(٣) عباس حليـم

(٤) اشتهر كاتب مصري (اشير الى اسمه بحرف (ت) بالقصص الرومانسية والجنسية زمنا . اما هذه الايام فهو يكتب روايات (شعبية) في السياسة والمجتمع ، ولكنه « يشحنها » بحقده على مستقبل الشعب وكراهته لمستقبله المأمول وغده المشرق. لقد ترك ادب « اللذة والمتعة » الى الشعب .. وان سار في طريق مظلم !

(١) ان اعظم مؤلفات طه حسين هى حياته س.م.م – ص ٥٣ –

بالفعل – على طريقة الحماس العاطفي المفرط .. لكل ما هو جديد .

ولكني اقول ان الفرق بين القديم والجديد ، لم يعد فرقا زمنيا . وانما هو – في اقرب المعاني واولها – فرق اجتماعي وسيكلوجي . بمعنى اننا لا نمقت تراثنا القديم ، بل يجب ان ننكب على دراسته في تآلف وفهم وحب . و « ليست العبرة في الادب والفن ، بالقديم والجديد ، وانما العبرة بقيمة هذا الفنان او الاديب ، قيمته الانسانية والاجتماعية التي يحم الينا ، ونحم اليه بها . فنتبادل واياه الفكرة في حنان وانشغال انسانيين » ص ٤٧

الفنان القديم ، يستحق الدراسة ، ومن يتشبث بافكاره واسلوبه « يستحق الاغفال » ، والحق ان الاول – الفنان القديم – اكثر تفتحا وتقدمية ، من الفنان الجديد الذي يرسف في اغلال القيم القديمة .

« والواقع الذي لا ينكر اننا نجد في الادب العربي الحاضر : طائفتين ، احداهما تلك التي تلتزم القيم القديمة . ولا تكاد تختلف عن ادباء العرب القدامى من ان الادب لذة ومتعة وترف ذهني ، وانه الخاصة الممتازة . وانه يجب ان يمتاز بلغة الخاصة واحساسات او تانقات الخاصة ... وليس شك ان هذه الطائفة تمثل العقلية الاقطاعية الريفية ، او تمثل على الاقل رواسبها المنحدرة الينا من القرون الماضية . والذي الاحظه ان هذه الطائفة صادقة الايمان بمذهبها كما نجد في تناسق عقيدتها الادبية هذه مع عقائدها الاجتماعية الاخرى . لان جميع الادباء في هذه الطائفة يكرهون اللغة الشعبية في الادب ، كما يكرهون مساواة المراة ، بالرجل في الحقوق الدستورية والمدنية ، كما يكرهون ما يمكن ان نسميه « الاسلوب الديمقراطي » وهم يهفون على الدوام الى الماضي يكتبون فيه ويقراون عنه .

ثم هناك الطائفة الثانية ، طائفة القيم العصرية التي تنبع من الوسط الصناعي المدني والقيم العلمية . وهي تنضم الى سواد الشعب في الادب وتقول انه ، اي الادب ، للشعب . فيجب ان يكتب بلغته ، وان يكون كفاحيا في مذهبه لان الشعب يكافح من اجل حقه في الحياة الكريمة . وان مشكلة المراة هي رف لجميع المشكلات الاجتماعية . ولذلك يجب ان تكون مساواتها بالرجل بؤرة الكفاح . وهي تنتهي من هذا الموقف الى ان الادب يجب ان يكون انسانيا في نزعته ، اشتراكيا في برنامجه وان ديمقراطية الدولة يجب ان تنطوي على ديموقراطية المجتمع والمصنع والمزرعة والبيت » (ص ٨٧ ، ٨٨)

ابناء الطائفة الاخيرة هذه ، هم الذين يحملهم سلامه موسى « الامانة » وليس من بينهم على وجه التأكيد هؤلاء « الشبان » الذين يتمسكون بالقيم الخلفية .

وهؤلاء ، لا يقتصر نشاطهم الرجعي ، على الدعوة الى المثل القديمة فحسب، بل هم يبعثون هذه المثل من مرقدها . لا بقصد الدراسة كما نريد – وانما بقصد الاستهواء والتطبيق (1) .

واذن ، فالادباء الجدد ، هم الذين درسوا مجتمعهم ، وتبينوا حقيقة الصراع العميق بين متناقضاته ، ومن ثم آثروا الوقوف الى جانب الاطوار الجديدة النامية من تاريخه .

وعلى هذا الضوء ، فهموا كلمة الشعب فهما جديدا ، لانهم بدأوا يحسون ان الشعب هو الجندي المجهول الذي يجب عليهم ان يرفعوه الى المستوى الفني والاهتمام الذهني في القصة والشعر والرسم والنحت ويكتبوا عن حياته ويرسموا اهدافه وما فيه من عبقرية او انسانية » (ص ٣٢) .

والشعب – بهذا المفهوم – ليس خاصة باهتة ، لا ترى الا من خلال نظارة خاصة ، وانما هو كيان مادي ملموس ، يعيش وينمو ويتنفس ، وادب الشعوب لذلك ، هو الادب العضوي « من حيث انه يؤدي في الجسم الاجتماعي خدمة معينة كما تؤدي اليد او القدم خدمة معينة للجنس البشري وبمعنى اخر ليس هو أدب الترف او التسلية الذي يمكن الاستغناء عنه . اي ليس هو ادب البلاغة كما فهمنا معنى هذه الكلمة في كتب البلاغة العربية . فهو لا يبالي تلك النبرات والنغمات الا بمقدار ما يستطيع ان يؤدي بها خدمة عضوية في النشاط الاجتماعي، فالبلاغة هنا وسيلة وليست هدفا » (ص ٣٣)

والحق ان الوسيلة والهدف – في الادب الحي الجديد – اصبحا كلا واحدا لا يقبل التجزئة لان الوحدة العضوية التي تجمعهما لا تحتمل فصلا حاسما بين عناصرها .

والعلاقة بين الاطار الفني للعمل الادبي ، ومحتواه الانساني ، لم تعد علاقة ميكانيكية يمكن الحكم – على هداها – بان البلاغة في اللفظ ، دون المعنى ، او العكس . لان الاعمال الفنية في حقيقتها – كائنات حية متكاملة . ولم تكن هذه الاعمال ، على غير هذا النحو من قبل . وانما كانت هناك نظرة آلية ، خلقت هذه التجزئة . ولذا كان « الاديب الجديد الاديب العضوي ، هو الذي يدرس الحياة ، ويحاول ن يجد نظرة جديدة لشئونها اعمق واوسع من النظرة المألوفة » (ص ٣٥) .

والنظرة الجديدة ، لا تسقط هكذا من السماء ، انها تنمو في احشاء النظرة القديمة ، وتولد من حميم التناقض الكامن داخلها ، وعملية الولادة هذه ، تفترض البقاء المؤقت لقوة النظرة القديمة ، لان النظرة الجديدة لم تكتسب من القوة بعد ، ما يمكنها ان تعيد صياغة المجتمع والفكر على نحو جديد .. مرة واحدة .

وهكذا كان على الادب في مصر « ان يضطلع بضع سنوات بمحاربة القرون المظلمة وهدم الاسوار التي تعوق حرية الفكر ، هذه الاسوار

(1) يجدر بنا في هذا المقام ان نثبت كلمات مضيئة لرجل « قديم » حسب المفهوم الخاطيء للقديم والجديد – ان الاستاذ احمد لطفي السيد، كتبت في مجلة « الثورة – ديسمبر ١٩٥٤ » يقول : « ارى ان يكون نشر الكتب القديمة في نطاق محدود ، وبعد فحص دقيق، ذلك ان كثيرا منها لا يخلو من اسفاف يترك اثرا في اخلاق شبابنا .. ودواوين الشعراء المليئة بالكذب والتضليل لا احب لشبابنا ان يقتفوا اثرها ، واثر هؤلاء الشعراء ذوي الاسماء الطنانة ، على حين ان الواحد منهم لا يساوي عشرة قروش »

التي كانت الحكومات الماجنة ، بل المجتمعات الماضية ، تحرص على استبقائها وحمايتها لانها تؤيد الوانا من الرجعية تحتاج اليها لاستبقاء نظمها الاقطاعية ، اي يجب على الاديب ان يهدم دون ان ينسى البناء » (ص ٣٩) .

واسلحة الفنان في معركته الجديدة ، تصنع ارض المعركة نفسها ،فاذا كان هو يخوض معركة شعبية ، وجب ان تكون لغته ـ مثلا ـ هي لغة الشعب . لان اللغة تعين الاسلوب والمنهج ، اذ هي تدخل في التركيب العضوي للعمل الفني ، وليست « وسيلة للتعبير » كما يتوهم البعض.

كان دعاة اللغة العربية ـ وما زالوا ـ يقولون في ميثاقهم ان اللغة هي اداة التعبير . واذا وجد الفنان المصري انه لا يستطيع ان يصل افكارنا بالناس ، الا بواسطة هذه الاداة فلنا ان نحترم ارادته ومقدرته. بل اننا يجب ان « نرفع » الشعب الى مستوى الادب « الرفيع »

واجاب الادباء الجدد ، على المبدأ الاول القائل بان اللغة اداة ، والفنان له مطلق الحق في استخدام الاداة القادرة على التعبير عن احساساته ومشاعره . وقالوا انهم يجدون في اللغة الشعبية المصرية اداة اكثر توفيقا في نقل خلجاتهم ، واقدر تعبيرا عن اهدافهم . ثم استطردوا بانهم « ينزلون » الى الشعب بلغته ، بدلا من العكس .

وفي هذا « الارتفاع » «والنزول» يتضح مدى الخطأ في كلا الدعوتين ـ لانهما اغفلتا هذا الفهم الجديد للغة . وهي انها « عنصر حي » في التركيب العضوي للعمل الادبي .

وحين نقول بادب مصري ، لا يصح ان يتوه عن بالنا ، ان من غير المعقول ان يصبح هذا الادب كائنا عضويا حيا متكاملا ، وفي بنيانه العضوي ذراع من الصين ـ لان هذا ـ فوق انه مستحيل ـ يؤدي الى تشويه الكائن الحي . وكذا نفس الامر في العمل الفني ، ما دمنا نقول بانه اللغة « عضو » ، هي في جسمه الحي ، ولا يمكن بالطبع ، ان تستغني عنه بعضو اخر مماثل في جسم اخر ، ولو كان شقيقا توأما .

ومن اعباء الناقد الجديد ، ان يرافق الفنان الجديد في خطواته الجديدة . بمعنى انه يلتزم بهذه النظرة الموضوعية للعمل الفني . فالاوروبيون « ينظرون الى ادحب الكاتب كما ينظر احدنا الى المبنى الكامل بكل ما يحتوي من حدائق وطبقات وموقع وما يدل عليه من فلسفة المهندس الذي وضع تصميمه واشرف على تشييده . ولكن الناقدين عندنا يقفون عند احدى اللبنات ويقولون : هذه رخوه او هذه في غير موضعها» (ص٥٣) .

وكلمات سلامه هنا توضح العلاقة بين الناقد والفنان . فليست هناك حواجز حاسمة بين مهمتهما في المجتمع الوليد . انهما يشتركان في المنهج الواحد ، و « النظرة » الواحدة . ولذا ، فعلاقتهما ، هي علاقة اليد باليد الاخرى اثناء البناء. وانجلت بذلك الوظيفة الحقيقية للناقد .

وعندما قرر مؤلف « الادب للشعب » (ص ٩١) : ان النقد السديد للادب هو النقد الاجتماعي . اي يجب ان نسأل عن قيمة الاديب ، ما هي خدمته للشرف او للانسانية ، كان تقريره ، بمثابة رد فعل ، للحركة النقدية القديمة التي تدرجت في فهمها للنقد من انه « ابراز العيوب » الى « ابراز العيوب والمحاسن » وتوقفت عند هذا الحد . وما كانت تعني بالعيوب والمحاسن الا اللفظات اللغوية ، والتركيبات النحوية وما اليها . ولم تشر يوما الى العيوب الاجتماعية او محاسنها في العمل الادبي . حتى لا يتحول الادب في زعمهم عن هدفه الاصيل .

ولما تغيرت مفاهيم الاديب حسب نظراتنا العلمية اليها ، تدرج النقد في خطواته الامامية الى ان (كشف عن قيمته الاجتماعية) (1) . ولكن هذه القيمة ـ كما قلت ـ لا تصيب مرماها الا اذا توازنت مع الفن الناجح ، ولذا خطا النقد العلمي ، خطواته الجديدة ، بان تقدم الى العمل الفني بسؤالين :

■ الى اي مدى تناسق الشكل البنائي مع المحتوى الانساني في ابراز قيمة العمل الفني ؟

■ ما القيمة الانسانية لهذا العمل ؟

واصبحت الاحكام الحاسمة وسيلة غير مجدية ، للاجابة عى هذه الاسئلة ، وانما هو « التشريع العلمي » للنص ، الذي اصبح الطريق الجديد للناقد .. يرافق معه الفنان وعمله ، مرافقه منيرة كاشفة .

والناقد الجديد ، هو لذي يعرف لأدب بانه « دراسة الانسان في جملته . وهذه العبارة تعنى ان ندرس الانسان في اقتصاده وامراضه وثقافته واتجاهاته الذهنية والعاطفية واهدافه المستقبلية » (ص ١١٠) واذن فالاديب « الذي لا يعرف علل الفقر والمرض ، لا يجهل الاقتصاد فحسب ، وانما يجهل الادب » .

والترابط الموضوعي بين المعارف الانسانية ، هو الذي حدد للاديب تعريفه العلمي للعمل الفني . هذا الترابط الوثيق ، هو ما نحسه في « تشابك » اتجاهات العلم الواحد ، وبين العلوم المختلفة ، ولا يمكن فهم هذه العلاقة الشبكية الا حسب منهج علمي . بل لا يمكن التصرف على هذه العلاقة ، وتفهم دقائقها الا اذا حصلنا على هذا المنهج . وما الاخطاء النظرية والتطبيقية ، التي يقع فيها الكثيرون من ادبائنا ، الا لانهم يدرسون احد جوانب الحياة معزولا عن بقية الجوانب الاخرى ، غير واعين بالرابطة المادية والروحية التي تضم جوانب الحياة جميعا . وحتى لو عثروا على هذه الرابطة ، فان منهجهم العفوي لا يدلهم على حقيقتها الموضوعية .

وعلى ضوء النظرة العفوية هذه ، رات الانسة سلفياهم في سلامه موسى (2) « مفكرا للبرجوازية ، وقت ان كان الاقطاع متسنما كراسي الحكم ، ثم اصبح مفكرا للطبقة العاملة فور انهيار النظم الاقطاعية ، وتولي السلطات البرجوازية الوطنية مقاليد لحكم » .

والخلط الذي وقعت فيه الناقدة الانجليزية ، هي انها كانت تعزل مراحل التطور الفكري لسلامه عن بعضها .

ولو انها اجهدت نفسها قليلا ، لرات في سلامه « مفكرا ثوريا » ناصر البرجوازية ـ الثورية ـ الصاعدة ، حين تالفت مع الطبقات الشعبية لتحطيم الاقطاع ، وظل « مفكرا ثوريا » حين وقف في صلابة الى جانب الطبقة البازغة النامية ، بعد ان تحولت البرجوازية الى قلاع ضخمة في وجه التطور ، اي ان ثورتها تجمدت كما هي عادتها التاريخية ،فاصبحت عدوا بعد ان كانت صديقا . (3) والدراسة العلمية لمجتمعنا ، توضح

(1) النقد السليم للادب هو النقد الاجتماعي اي ان الناقد يسأل : ما هي قيمة هذا العمل الادبي في المجتمع ؟ » (ص ١٣٥) (س.م.)

(2) مقال في التايمز ، واذيع من محطة لندن ، علق عليه س.م. في « المرأة ليست لعبة الرجل » (ص ٦٧ ، ٦٨)

(3) « لقد كنت وما زلت اكتب لاولئك الشبان والموظفين ، والمحامين والكناسين ، والاطباء ، والحلاقين ، وعمال المصانع المتفهمين ، والنساء الجديرات العاملات ، وجميع اولئك الاشراف الذين لا يعيشون سدى ولا يكسبون قوتهم بالباطل .. وانما يتعبون ويكدون ، كي ينتجوا سلمه ، او يؤدوا خدمه » (ص ٥٨)

لنا في يسر ، انه كان لابد موضوعيا من الثورة البرجوازية . وبالتالي كان لا بد من مناصرتها لتحطيم الاقطاع .

والمفكر الثوري ، هو الذي يدرس مجتمعنا على المدى البعيد ، فلا يعادي الجبهات في آن واحد ، حتى لا يخسرها جميعا . انه - ايديولوجيا عدو الجميع ، ولكن التكتيك الفكري المنظم ، يفترض مهادنة احداها حتى تموت الاخرى .. ثم يجري التاريخ في طريقه المحتوم .

والسؤال : اين كان ادباؤنا من « هذا المدى البعيد » ؟

كانوا يكدون انفسهم في البحث عن « بيت » اسقطه الكامل ، او معركة بين الفرزدق وجرير !! كان المدى البعيد ، في نظرهم ، الى الماضي ولذا جاء ادبهم اكفانا جميلة الصنع ، ولكنها لا تبشر بالحياة ، وانما تدق اجراسا جنائزية « جميلة » .

والاجراس الحزينة في ادبنا الحديث ، نسمعها في وضوح ، من صفحات الادب « الغيبي » الذي لا يجد تفسيرا للكون والحياة والانسان الا في بطون الكتب الصفراء . وخطورته انه لا يرتد الى الماضي ، لانه يعالج - بالفعل - مشكلاتنا المعاصرة . ولكن يفرز بواسطة منهجه الغيبي ، كافة عوائق تقدمنا وارتقائنا . فالتواكلية المطلقة ، والهروبية ، واللامبالاة ، وغيرها من القيم التي يبثها هذا النوع من الادب ، وعلى انها فضائل (١) اجتماعية ، تعبر في حقيقة الامر عن فلسفة خنوعية متخاذلة ، لا تلبث قلوبنا ازاءها ، ان تفرغ ما بداخلها من شحنات الكفاح والعمل . هذا الادب يذيب صلابتنا ، ويحيلنا الى دمى يحركها القدر ، لقد نسوا ان القدر الحقيقي هو لانسان . الانسان المبدع - الخلاق - الذي يقفز كل يوم مع انتصاراته العلمية المظفرة - اسرار الغيب والمجهول ، الى عالم الحقيقة والانسان وحدهما . والمثول امام الحقيقة والانسان ، لن يعوزه دقات حزينة من ادب اسود . وانما يتطلب فرحا واشراقا وتفاؤلا .

ولكن ليست المناهج الغيبية وحدها هي صاحبة هذا الاتجاه السلبي في ادبنا الحديث . وانما هناك مناهج اخرى اكثر خطورة ، لانها تتمسح بالعلم ، وتغتصب اسمه في تقديم مبادئها .

فالاتجاه الطبيعي « الفيزيقي » - مثلا - يقول انه يستخدم العلم - كما يخرج توا من المعامل (٢) - حتى يخرج العمل الفني مزودا باحدث مكتشفات العلوم ، ويصبح اقرب الى المنطق والعقل .

وليس هنا مجال البحث في نشأة مدرسة زولا هذه ، ونكتفي ان نذكر السبب الرئيسي والهام في نجاح هذا الاتجاه عند نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين . الا وهو الانتصارات العلمية الحاسمة في مجال البيولوجيا . والتي غيرت ما كان سائدا حينذاك من قيم وتقاليد . فقد اصبح الناس ينظرون الى « الوراثة » على سبيل المثال نظرة جادة . وصاح زولا ومن ورائه الادباء الطبيعيون « لقد وجدتها » وكان يعني الوراثة اذ راى فيها عاملا حاسما لا يمكن تغييره . وقرانا قصص الطبيعيين فاذا بالوراثة في ادبهم ، تغتصب بابا مغلقا في وجه الانسان وتقدمه .

وهكذا لم نجد اختلافا حاسما بينهم وبين رواد المدرسة « الميكانيكية » القائلة بان ظروف الانسان فقط هي التي تشكل مصيره . ولاحظنا كذلك فنون هذا الاتجاه ايضا ، مجللة بالسواد والقتامة . ولكنا حين نعود الى الجذور البعيدة التي انبتت هذا الاتجاه نعرف ان (ضربة جاليلو للارض التي جعلتها تدور) (١) (وجاذبية نيوتن - من بعده - التي اعطت لهذه الدورات معنى) (٢) هي الاسباب الموضوعية لشيوعه .

والتفسير العلمي لنشأة هذه الاتجاهات ، يفيدنا في ان نتعرف على ظروفنا الجديدة في تباينها مع تلك الظروف البعيدة. ومن ثم يدعنا نفكر : ما هو اتجاهنا الحقيقي ، النابع من صميم ظروفنا الموضوعية ؟ وليست ظروفنا بالطبع قاصرة على (ارضنا المحلية) وانما اقصد بها ظروف عالمنا المعاصر التي تختلف بالتاكيد - عن ظروف القرن التاسع عشر التي انتجت هذه الاتجاهات .

ولهذا كله ، كان الادباء العرب الذين يقتفون بآدابهم وفنونهم آثار الاتجاهات الميكانيكية ، او «الفيزيقيية» من دعاة التشاؤم والرجعية (٣)

(١) « ان الاديان الغيبية القديمة ، كانت تحملنا تبعات وتطالبنا بواجبات . ولكن القيم الاخلاقية والاجتماعية في هذه الاديان كانت قيم الاخرة ولم تكن قيم الدنيا . فكان علينا ان نكون صالحين نمارس الفضيلة ونصلي ونصوم حتى نستمتع بالفردوس ولا نتعرض للعقوبة بعد الموت . فالقيم هنا اخروية . ولكن الادب الجديد ، يحملنا ايضا تبعات ويطالبنا بواجبات . ولكن القيم الاخلاقية والاجتماعية فيه هي قيم الدنيا فقط . فيجب ان نكون صالحين وان نمارس الفضيلة كي نخدم المجتمع البشري ونرقى بشخصيتنا اخلاقا ومعارف ونجعل من كوكبنا فردوسا نجد فيه السعادة والخير والشرف » (ص ١٩ ١) .

(٢) تعبير لزولا عن الرواية التجريبية .

(١) تعبير ليورميلوف في دراسته عن الادب السوفيتي .

(2) Short history of science, W. C. Dampier P 61-78

(٣) كلمة المساواة الاجتماعية الاقتصادية تكاد تفقد معناها اذا سلمنا بالوراثة كانها كل شيء لان قيمة الوراثة تعني في النهاية الايمان بالقدر الذي لا يمكن انسان ان يغيره . لاننا نغير موروثنا القدر لنا ، هذا هو ايمان المتشائمين ، ولكن المتفائلين يقولون ، اننا نتغير الى احسن ونرتقي اذا كان وسطنا راقيا يعلمنا ويهذبنا وينير عقولنا ويقوي صحتنا » ص١٣٢

ولا فرق بينهم ـ على الاطلاق ـ وبين دعاة المناهج الغيبية ، فما دامت « الظروف البيولوجية » عند الطبيعة و « الظروف الاقتصادية عند الميكانيكية ، هي الالهة الجديدة » للانسان ، لا يملك بدونها حولا ولا قوة.» ما الفرق بينهم وبين آلهة الغيبيين واقدارهم ؟ اليس الانسان (عاجزا) عند هؤلاء واولئك ؟ اليست (دنياه سوداء) عند الفريقين ؟

الحق ان دعاة الغيبيات افضل ، لانهم تخيلوا حياة اخرى تسعد الانسان ، فقالوا له بان يشقى ويعرق « وتسود عيشته » على الارض ؛ لانه سينال الجزاء في تلك القبلة السماوية الزرقاء . على اية حال ، كان لديهم امل .

✶

ولكنه ليس املا حقيقيا . فالمسافة بينه وبين الحقيقة ، هي نفس المسافة بيننا وبين شاشة السينما . ولهذا جاءت اعمالهم تفيض بالتفاؤل العبيط الساذج ، الذي ينطوي على ابشع الوان التشاؤم .

ولهذا ايضا ، كان علينا ان نبحث عن التفاؤل الحقيقي .. التفاؤل العلمي .. في ادبنا الجديد ..

والتفاؤل على هذا النحو يقتضي ان ندرس مجتمعنا ، وندرك طبيعة الصراع الكامن في اعماقه ،ثم نقف الى جانب الطور المستقبلي من اطوار تاريخه . وهنا يصبح التفاؤل ضرورة ، لا حقيقة فحسب (1)

ومن نقطة الانطلاق هذه ، يتضح معنى الواقعية في الادب ، يقول سلامه (ص ١٥٦) « قصة الحياة ليست عند الاديب ، رواية ما وقع له من حوادث ومصادفات او خطوط فقط . وانما هي وقع كل ذلك في نفسه ، اي بكلمة اخرى هي الاحساسات والرجوع والاستجابات التي تلقاها » . اي ان الادب الواقعي ليس هو الواقع فحسب ، وانما هو النظرة العلمية للواقع ايضا . والتشريح العلمي للواقع ، يقود الفنان الصادق ـ بالضرورة ـ الى التفاؤل . ويقوده الى فهم الموضوعية فهما لا يلغي ذاتيته . ومهما اشترك ادباء العالم جميعا في منهج واحد ينظرون به للادب والحياة ، فانهم سيظلون الى الابد ، متباينين مستقلين، يفصل بين الواحد والاخر حدود منيعة حاسمة ، هي المكونات العضوية والذهنية والاجتماعية والنفسية لكل فنان (1) التي لا ريب انها تختلف ـ بطريقة او باخرى وبدرجة كبيرة او صغيرة ـ بين اديب واخر . وهذه هي ذاتية الفنان .. وموضوعية الفن .

الموضوعية في الفن ، لا تقتصر في تسجيلها الظروف المحيطة بجوهر العمل الفني ، على الصدق الفوتوغرافي ... انها تعترف بالعامل البيولوجي الذي يتباهى به الطبيعيون ، وتعترف بالعامل السيكلوجي الذي يزهو به عشاق علم النفس ، وتعترف بالعامل الاقتصادي الذي يتحصن داخله الميكانيكون .. ولكنها تعترف في نفس الوقت ان هذا العامل الاخير هو العامل « الحاسم » في تطور المجتمعات وتاريخها. انه ليس « العامل الوحيد » كما يقول رواد الاتجاه الميكانيكي ، ولكنه العامل الحاسم ، ليس « عاملا وحيدا » لانه ليس الها جديدا او قدرا جديدا ، لاقبل للانسان على احتماله او تغييره . ولاننا نعترف بكافة الظروف الموضوعية الاخرى التي لا يمكن لعقل صادق انكارها . ولذا كان على الاديب ان يدرس هذه الظروف في علومها المختلفة .

ودراسة كهذه ستسمو به الى « المرتبة الانسانية » بعد ان كان اديبا فحسب . « الانسان » يلزم ان يتعرف على ذاته الانسانية بان يكشف العلاقة بينها وبين هذا الكون الذي يعيشه . والفنان اولى البشر جميعا باكتشاف انسانيته . والكاتب العظيم كما يقول (ص ١٧٦) «يمكن ان يكون بعضه فيلسوفا، او بعضه عالما ، او بعضه اديبا ، ولكن معظمه يجب ان يكون على الدوام انسانا » .

والفنان الانسان في بلادنا العربية لن يكتب للفراغ .. بل سيضطر الى ان يكتب للبشر ، فيوثق علاقتهم بهذا الكون وتلك الحياة التي يعيشونها وهم ، اما في غيبوبة الخرافة ، او في اسر النظم اللاانسانية. وهو حين يزيد الفهم للحياة ، « سيزيد التوسع الذهني . ويزيد الوجدان كاننا نزداد وجودا بقراءته » (ص ١١٧)

والفنان الانسان ـ في بلادنا العربية ـ لن يطالبنا بان نجعل مراسينا الاجتماعية وفق التقاليد في الالف سنة الماضية ، وانما وفق ما نستعد له من نظم الالف سنة القادمة » (ص ١٠٦) .

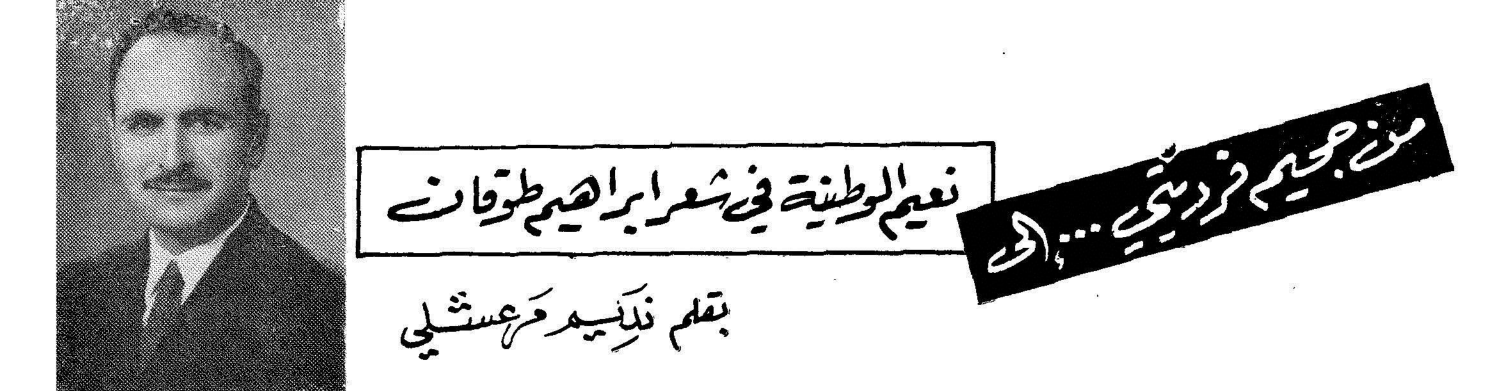
يقول سلامه موسى (ص ٥٢) « وهذا وضع جديد للاديب ، الذي لم يعد خادما يهرج ويسلي ويمدح ويقول النكتة . اذ هو الان معلم ومرشد . هو نبي له رسالة »

القاهـرة — غالي شكري

---

(1) « الادب المحافظ ، الادب المتشائم ، هو ادب الجمود والتقاليد وكراهة التغير وكراهة المرأة ، والخوف من المستقبل ، وهو الادب الذي يجد المبررات للاستعمار وللتفاوت بين الطبقات . والادب الاشتراكي هو ادب التغير والتطور والايمان بالمستقبل ومكافحة الفقر والجهل والمرض ومكافحة الاستعمار والاستبداد » (ص ١٣٣)

(1) « ان الشخصية التي تنبع من النفس ، ستبقى على الدوام الطابع الذي يميز بين كاتب واخر ، حتى ولو كان كلاهما شعبيا » (ص ١٧٦)



من جحيم فرديتي ... الى نعيم الوطنية في شعر ابراهيم طوقان

بقلم نديم مرعشلي

جلست اليوم وحيداً بين الناس ، موجودا وغير موجود في عدادهم ، توحشني غربتان : غربة الطبع وغربة الدار ، متضايقا لغير ما سبب ، مكدودا وليس من تعب ، ترهقني راحة الفراغ والضياع ، شأني من الواقع شان الجندي الرعديد الجبان ، افلت من ساح النزال ، فهام على وجهه لا ملجأ يحميه ، او ملاذ يؤويه ، او مأمن يفزع اليه ، الا اذا كان من اسماء الفزع والهلع وانخلاع الفؤاد الملجأ والملاذ والمأوى ... وكدت اهيم على وجهي اخبط في بيداء النفس على ما هي عليه من الثورة والحيرة والتبرم ،في هذه المدينة العصرية الناعمة بكل اسباب الحضارة والمدنية ، كالبحتري يوم ضاقت عليه الارض الفضاء ، وقد قتل ولي نعمته على مرأى ومشهد منه ، فعصف في اعماقه الالم ، وهزه الشقاء، ولكنه انطوى على ذاته في منطلقه البعيد ، يستر فيه روح الهزيمة تعاليا على العيون النهمة المتشفية :

وتماسكت حين زعزعني الدهر التماسا منه لتعسي ونكسي.

واهبت بالنفس ـ شان البحتري ولا فخر ـ ان تتماسك في مهب عاصف الزمان المشغول عني بالطبع ، خوفا على مصيره بالذات ، ان يصبح ولا مكان .. وينفخ في الصور اذ يعصف الهوس برأس كائن مجنون الفت اليه الظروف مقاليد الكينونة والصيرورة على حد سواء .

وسولت لي النفس فيما سولت ـ وقديما وصف بعض المرض بسر العبقرية ـ ان التمس اسباب القصيد ، ناظما هذه المرة لا راويا ، ترجمة عن هذه الثورة ، وتعبيرا عن هذا الصراع الباطني المستمر المستعر ، لان الثورة ـ مجازا لا حقيقة ـ ان لم تكن في الشعر ، فلا وهج لكلمة ، ولا تألق لحرف،واخذت للامر اهبته ، استعدادا لخوض المعركة بهجوم على الكلمات القاموسية ـ كفارس عارض رمحه ـ ايقاظا لاوابدها ، وتحريكا لجوامدها ، لتكون في سلك قوافيَّ الشرود .. وتوهمت ساعة هذا المخاض العسير ان كل القوى الطبيعية الديناميتية تغتلي في اعماقي ، وان كل امجاد التاريخ القومي العربي على شبا هذا اليراع .. وان النفس تحدثني حديث الثورات ـ انتقالا من جو البحتري الى افق المتنبي ـ اسهاما في الادب الثوري ، وانطلقت بعد لاي وجهد ، وكد للذهن ، وارهاق للاعصاب « ثورة النفس يا لعمق اساها » وكانت القوافي اشمس من ان تسلس لهذا الطبع ، وكزت النفس الناقدة من النفس الشاعرة فيَّ لكلمة « اساها » هذه ، وشعرت بذاتي في الحضيض بعد ما توهمتها في الذروة ، ولذا اكتفيت به شطرا يتيما اهون ما يكون على اسرة الشعر ، بل لو لم اعترف مسبقا بابوته لكان شانه في ديوان الشعر شأن الاطفال الذين يربون في الملاجيء ... لا حسب ولا نسب ، الا ما تخترعه دوائر النفوس من اسماء آباء تنسبهم اليهم ... وبعد ان رايت ان الذهن لم يسعف ، وان اليراع عود جاف لا نسغ ولا حياة فيه ، وان كلماتي النارية حروف من حطب طال بلله ، عولج بالنار فجاد بالدخان شحا باللهب ، وان نصيبي من الادب الثوري نصيب سيف ابي دلالة في خوض الوقائع والمعارك ، وان لابد من التسليم بالهزيمة ، لانني لم ار في مرآة ادبي سوى ذاتي ، ولاني قذفت باجترار نفسي انطواء على على الانانية والفردية ، فلم تمر عواطفي في برزخ الشعب مفجر الطاقات ومجترح المعجزات ، ولان ثورة الفرد الذاتية لهذا المعنى لن تكون مهما بلغت من الطاقة اعتى من عاصفة في فنجان ، ولاني ذهلت عن وعي او لا وعي عن مدلول الكلمة الاجتماعية التي ان فصلت عن حياة الامة فهي ـ ولا بد ـ تافهة جوفاء ، لاغناء فيها ولا رجاء ، ليس بمفهوم النظريات الوطنية والقومية الحديثة فحسب ، وانما بمنطوق الفطرة السلمية التي ترجمت عن نفسها بلسان شاعرنا الجاهلي العظيم زهير القائل :

ومن يكن ذا فضل فيبخل بفضله على قومه يستغن عنه ويذمم ..

ولذا وبعد طول هذه المكابرة ، وكرد اعتبار لكلمة التي لا تتعشقها الامة والشعب الا اذا كانت انعكاسا عن ارادة الامة وعواطف الشعب ... لهذا كله ، وقد عييت انا بالذات ، لم ار من مندوحة سوى التماس ساحل النجاة ، والسير قرب الشواطيء الامينة الدافئة ، اعتمادا على نتاج الغير ، وقوافي الغير ، استرفدها جلوسا على الموائد ، وما انا بالمدعو كما لست بالمتطفل ، وهل اكرم من زاد الشاعر والفيلسوف والحكيم ؟.. وما ضير الفكر اذا استعار فاستند الى عمل الفكر ؟... اسهاما برسالة الكلمة ، واكمالا لتلك الرسالة تبسيطا وتوضيحا ، كشفا عن مكامن الجمال وعرضا لهذا الجمال .. زيادة بالمتعة ، واكثارا للفائدة ... بل واي تثريب او حرج عن الاديب اذا استعان بزميله الفنان وخدينه الشاعر ، فانتفع بنتاج هذا ، وروج لبضاعة ذاك ..؟ ودولاب سوق الحياة العامة لايدور الا بانتفاع صغار التجار وكبارهم بامضاءات بعضهم بعضا ....؟ وقانا الحق شر المتاجرة بالكلمة ، والسير بها في طرق ومظان الشبهات.. ونزلت الحلبة ، وخالص رأسمالي ـ كما عرضت ـ ضئيل ، ولكنه يستند الى اعتماد ضخم ، ليس في سوق البورصه ، وانما في معرض اصحاب الكلمات الجريئة في الحرف الحر ... ونشرت بين يدي ، على مائدة الفكر ، ديوان « ابراهيم طوقان » عرضا لكنوزه ، وستفادة من تلك الكنوز ... وأجلت النظر في صفحاته ، مدوما في سماء الشاعر وصفا وغزلا ، سياسة ورثاء ، ولكن اين الغزل وجمال الطبيعة من قدس الاقداس

ونشيد الانشاد ، في كل الاجيال والاماد ، والامصاد والبلاد ، من كلمة موطني .

موطني
الجلال والجمال والسناء والبهاء
في رباك
والحياة والنجاة والهناء والرجاء
في هواك ..

واستغرقتني كلمة « موطني » استغراقا نفذ بي الى اعماق بلادي .

واطلت الشوط بمزاملة « ابراهيم » .. مد التاريخ بعمر حرفة ، وخلد ذلك الحرف الذي يحمل في ثناياه وتنطوي حناياه على ارفع معنى للوطنية ، واشرف صورة للقومية ، بوجهة هي الطريق الى الحق والمنار الذي يشير اليه بآن واحد .. شرحا وترجمة للوطنية والقومية بكلمات فصاح لا تحتاج الى التحليل ، ولا مجال فيها للتأويل ، لان بعد غور ابراهيم ترجم عن ذاته بالوضوح ، فعلق ذهن القاريء بلا تعسف او تعمل ، ولان سعة مداه خالطت نفس كل قاريء نفوذا لاعماقها تمس الروح مباشرة بمصافحة السمع ، حتى ليخال كل من حمل قلما ان بامكانه الاتيان بمثل هذا البيان ، وهيهات .. هيهات .. فبلاغة السهل الممتنع التي عرفها ابن المقفع كان ابراهيم خير مترجم لها من شعراء الضاد .. سيما اذا ما حمل يراعه ، فعاش مأساة وطنه ، وعبر عما يعتلج في اعماقه نحو هذا الوطن ، الذي يراه واراضيه تفر من أيدي اصحابها رقعة رقعة ، قطعة قطعة ، شراء واختلاسا ، هدرا وتبذيرا ، والاحزاب لا رعاها الله من احزاب ، لا عمل لها سوى نهش جسم الامة ، وقتل روح الامة تفريقا وتمزيقا ، بعدا عن جادة الكفاح وهربا من طريق النضال سوى الوقوف على اعواد المنابر ، والتبجح اللفظي بالوطنية ، واصابع الصهيونية تعمل في الخفاء ،والاستعمار الانكليزي يجهر للعرب بالعداء ، والقوم ما زالوا في غفلتهم سادرين ، وعلى منابرهم معتلين ، كانما سيربحون قضية فلسطين ، التي اصبحت قضية الوطن العربي بكامله ، باللفظ الاجوف والمعنى المريض .. دون ان يعملوا شيئا او يصنعوا فتيلا ، فتتجه اليهم عدسة الشاعر يكشف لهم عن نفوسهم : فيسقط عنها براقع الكذب،ويمزق اوشحة التضليل :

عرف الناس والمنابر والاقلام افضالكم فهانوا سواها
غير ان المريض يرقب منكم هذه الجرعة التي لا يراها

كان اولى بكم لو ان مع القول فعالا محمودة عقباها
مثل القول لا يؤيده الفعل أزاهير لا يفوح شذاها
وهو كالدوحة العقيم ظلال واخضرار ولا يرجى جناها

وتنذر الحوادث بسوء المغبة ، ويلوح من بعد شبح الكارثة ، وسماسرة الوطنية ما زالوا حيث كانوا لا عمل لهم سوى تضليل الشعب ، ودفع سفين الوطن الى الشواطيء الصخرية لترتطم فيها فتكون الواحا متناثرة، وشظايا متفرقة ، ويشتد الهلع في نفوس المخلصين ، ويرفع ابراهيم عقيرته مناديا « وطنيي » الكلام ، والكلام فقط ، يصليهم نار نقده ، ولاذع بيانه ، باللفظة الساخرة ، واللهجة المتهكمة ، لانهم اصغر من ان يوجه اليهم الكلمة الجادة ، والعبارة الحازمة :


ابراهيم طوقان

انتم المخلصون للوطنيه
انتم الحاملون عبء القضيه ؟
أنتم العاملون من غير قول
بارك الله في الزنود القويه
وبيان منكم يعادل جيشا
بمعدات زحفه الحربيه
واجتماع منكم يرد علينا
غابر المجد من فتوح أميه
وخلاص البلاد صار على
الباب ، وجاءت اعياده الورديه
ما جحدنا افضالكم غير أنا
لم تزل في نفوسنا امنيه
في يدينا بقية من بلاد
فاستريحوا كيلا تطير البقية..الخ

واذا كانت قصة الوطنية ذات وجهين ، ككل قصص الحياة ، وحكايات الوجود ، فما سردنا سوى لمحة عابرة للموضوع في وجهه السلبي كما تمثله ابراهيم ، لنسير في القضية على هدي الديوان في سبيلها الايجابي، محاذرين قدر المستطاع تجنب طريقة التحليل اكتفاء بالعرض الجانبي ، حذر تشويه روح ابراهيم الذي لا نحسب ان شاعرا من شعراء العرب استوحى احداث بلاده فخطب ، وعاش هذه الاحداث فكتب ، كان اوضح منه بيانا واصفى ديباجة .. لذا فمهمة تحليل سفره عملية شاقة عسيره ومصدر المشقة فيها شدة وضوحه لكل قاريء ، حتى لاخال ان كل محاولة لتحليل قوافيه التي هي محض نبضات قلبه انقاص لقيمتها وتدن بسمفونيتها التي هي البساطة ، والبساطة فقط ، سيما اذا ما تكلم بهذا الموضوع : بلادي وطني ..

ان قلبي لبلادي لا لحزب او زعيم
لم أبعه لشقيق او صديق لي حميم
ليس مني لو أراه مرة غير سليم
ولساني كفؤادي نيط منه بالصميم
وغدي يشبه يومي وحديثي كقديمي
لم أهب غيظ كريم لا ولا كيد لئيم
غايتي خدمة قومي بشقائي او نعيمي

ويجسم ابراهيم الوطنية بكلمة من ترجمتها انا المحجة والسبيل معا.. المحجة لروح الوطنية ، والسبيل اليها .. ، ولا ترجمة لهذه الكلمة سوى الشهادة ومرادفها الفداء ، والسير بصمت في طريق التضحية بقافلة يتقدمها الجندي المجهول الذى لا عز للاوطان الا به ، ولا مجد لها الا بتضحيته : روحها دمها ، ودمه شريان حياتها .. ونفسه ـ وكل ما في الوجود صورة وطنه بناظريه ـ ان قطبت لها الخطوب انبسطت اساريرها

مستبشرة مهللة ، وان حلت بها المصيبة ردت العلقم – في سبيل المثل الاعلى ، والغاية الفضلى – شهد العسل، وهي بعد ذلك من الاعاصير عتوها ، ومن الحمية شدتها ، ومن النور الالق ، ومن النار الضرام ، تجمع في ذاتها رسوخ الطود ، لاتساع صدر البحر ، في جذوة لشعلة الحق الذي لا انطفأ لذبالته ، ولا خمود لمقدس جمرته ، لانه بانطفاء تلك الذبالة وبخمود تلك الجمرة انطفاء روح الامم – كل الامم، وهمود نفس الشعوب – كافة الشعوب ، وهيهات ان يغلب الموت الحياة ، وان تظهر الظلمة على النور :

عبس الخطب فابتسم ... وطغى الهول فاقتحم
رابط الجأش والنهى ... ثابت القلب والقدم
نفسه طوع همة ... وجمت دونها الهمم
تلتقي في مزاجها ... بالاعاصير والحمم
تجمع الهائج الخضم ... الى الراسخ الاشم
وهي من عنصر الفدا ... ء ومن جوهر الكرم
ومن الحق جذوة ... لفحها حرر الامم

الابتسام والعبوس نقيضان متعارضان، واي نقيضين هما اذا كان الخطب هو العابس، الخطب بكل ما احتشد وراءه من كوارث واهوال امتحانا للنفس البشرية بالارهاق والتنكيل ، والانتهاء بها لاخر شط من شطآن الحياة وقوفا على شفا حفرة الهدم والنهاية المظلمة ... يقابلها القلب الابي الشجاع بالابتسام الجريء البريء ، لان التضحية اذا لم تقترن بتلك الابتسامة خبا شيء من القها .. وفقدت قدرا من ذاتها .. ويتابع ابراهيم الذي كان واحدا من شهداء قضية الوطن العربي ، وان لم يضرج دمه ثرى هذا الوطن ، وان مات حتف الانف على فراش الامراض والاوصاب ، يتابع وصف الشهيد تعريفا للشهيد :

لا تقل أين جسمه ... واسمه في فم الزمن ..

واي فحوى للبقاء ، واي معنى للخلود ، اذا لم يكن الشهيد انشودة الخلود .. وترنيمة البقاء ..؟ ولنتابع الشاعر بقصته هذه تفرسا بوجوه الخالدين لنرى الى جنب الشهيد صنوه واخاه الفدائي الذي تقحم الموت تقحما تفجرت عنه ينابيع الحياة – الحياة الابقى والاخلد بالقافية العربية:

لا تسل عن سلامته ... روحه فوق راحته
بدلته همومه ... كفنا من وسادته
يرقب الساعة التي ... بعدها هول ساعته
بين جنبيه خافق ... يتلظى بغايته
من رأى فحمة الدجى ... أضرمت من شرارته
حملته جهنم ... طرفا من رسالته
هو بالباب واقف ... والردى منه خائف
فاهدئي يا عواصف ... خجلا من جراءته..

هذا هو الشهيد ، وذاك هو الفدائي اللذان بسط الشاعر لوحة حياتهما اسطورة البطولات والمعجزات ، اسطورة هي لحم الحقيقة ، ودم شريان الواقع نهضت بالحرف العربي تتملى ملامح البطولة باوضح ما يمكن، وابين ما يستطاع ، بلفظ مبين ، وجرس فيه تلاحق الانفاس المحرجة ، بوقوف على القافية تشعر فيه حرارة العزم ، واصر الحزم ، بصلابة الارادة ، وسحر هامة البطل الذي احترقت فحمة الدجى من لفح حرى انفاسه ، يرقب الساعة التي يلازمها كل هول وقسوة ... ، والموت يا له من جبان يخشى الوقوف حيال الرجل ، مجسم البطولة ، يخشى التطلع في عينيه المتألقتين نوراً للحياة ، وشعلة للحق ، صائحتين بلسان النظرة الصارمة ، صيحة نبي الشعر الاول : امات الموت ام ذعر الذعر ..؟ وكيف لا يموت ؟.. وكيف لا ترتد عواصف الاستبداد والاستعباد كسيحة مقعدة قبالة تيار نسمات انفاس الحياة الصافية، للوطن الحر، والشعب الطليق الا من قيد الواجب انغماسا في النور ، وتساميا بجمال معاني الوطنية والقومية نقية رقراقة، دونما جلبة او ضجة ، لان الوطنية – منذ كانت وستبقى – عمل لا كلام، انجاز لا ثرثرة :

صامت لو تكلما ... لفظ النار والدما
قل لمن عاب صمته ... خلق الحزم ابكما
لا تلوموه قد رأى ... منهج الحق مظلما ...

« منهج الحق مظلم » جملة تستحق الوقوف والتروي والتأمل ... رغم اشراق هذه الكلمات ، وبساطة هذا التركيب ، تستحق الوقوف لا لالتواء في المعنى ، او التباس في البيان .. وانما لنرى على الق الحق في الدنيا المظلمة تاريخ هذا الحق .. منذ ان قال الحق للنور كن فكان.. وملأ الناس فجاج الحياة يطرقون ابوابها ، التماسا للنعيم ، وانتجاعا للخيرات ... ومنذ ان فلسف الانسان الكلمة باشارة اصبعين لرجلين واقفين في باب المعرفة ، فارتفعت اصبع نحو السماء ، واتجهت اخرى للارض ... ولا نقصد بذلك النهج بالتفكير ، والتماس اسباب المعارف.. فتلك قصة اخرى ، وانما كهدف لغاية الانسان – بعيدا عن نظريات المعرفة – هل للتراب يسعى ، ام الى العلاء يرقى ..؟ هل تهتبل اللذات ام يطمح لابعد من ذلك من المثل والغايات .. ؟ ولا ريب ، وعلى ضوء ما قدمنا ، فان منهج الحق ، من أشرق في قلوب المؤمنين العاملين ، ووضحت معالم الطريق اليهم .. تبينوا ظلمات هذه الطريق في وعورة المسالك ، ومشاق الفجاج .. اليست الجنة قد صفت بالمكاره ، والنار بالشهوات..؟ وهذا صحيح لان طريق الهبوط سهل ممهد ، وطريق الصعود ، فتسنم الخلد شاق عسير .. وجهنم الوطنية المؤدية لنعيمها هو الامتحان الذي ابتلي به الفدائي الشهيد ، وصولا لغايته ، وتحقيقا لهدفه ، لهذا واكمالا للوحة التي رسمها الشاعر عن غاية الوطنية المثلى ، فلا بد من وقفة معه نستجلي مشهدا من مشاهد فصول هذا الامتحان العسير ، بقصة ثلاثة شهداء قارعوا الاستعمار والصهيونية ، فحكمتهم محاكم الاستعمار والصهيونية بالموت شنقا ، فما جبنوا ، ولا وهنوا ، ولا خارت منهم العزائم ، او خمدت فيهم الهمم ، او ترددوا في تقبل حكم الاعدام ، او فزعوا لرؤية حبل المشنقة ، بل ، وبكل جراة ورباطة جأش ، وتماسك امام زعازع الموت ، نازع احد هؤلاء الابطال ، مكسرا من قيوده – دور واحد من اخويه ، استباقا الى دار البقاء من نعيم الوطنية ، تأرجحا على حبل المشنقة .. وقد انطق الشاعر هذا اليوم ، وما هو فيه من التاريخ .. تاريخ هذا الانسان بآلامه ، وكفاح هذه الالام ، وفواجعه – ومغالبة تلك الفواجع ، وكوارثه – ومصارعة تلك الكوارث، مصائبه والتصدي لتلك المصائب ، فيما هو يحقق ذاته اشتقاقا من مأساة الانسان معنى الانسانية ... وجه مشرق في اطار من الظلمات .. تكتنفها ظلمات .. في هذا اليوم الذي اكل على الوجود ، ومرادفه العدم ، متلفعا بقناع دون سواده كل سواد ، في قسمات هي مظالم التاريخ بشقاء الاجيال ، اطل على الوجود ... يسائل الايام : هل من نظير ؟.. هل من شبيه ؟.. وتفر الليالي جزعا من ناظريه ... وتتجمع مظالم العصور بزاوية من زوايا الدهور خلفا من سحنته ، واشفاقا من رؤيته ... ويكرر – وما في الساح غيره – هل من نظير ..؟ ويتقدم منه قزم من اقزام الاجيال ، بيوم

سمي يوم محكمة التفتيش .. لكن ما ان يحدق فيه حتى يهرب، من وجهه وقد فصل سواد ظلامه شيب بياض من هول الموقف .. ، ويحاذيه يوم تجارة العبيد ، وكان فيه الانسان سلعة تباع وتشترى ... تماما كقطعة من قماش ، وكجزء من محراث عتيق .. والذي لولا ابراهام لنكولن ، لكانت الكثرة الكثيرة من الناس ، وفي جملتهم العدد الغفير من حملة الاقلام ، محرري الانسان من ظلام القرون الخالية، واوهام العصور الماضية، ممهدي سبيل المعارف ، نهوضا بانسانية الانسان ، وتساميا بمعنى الانسانية ، لكانوا ، ويا لفاجعة هذه الكينونة ، وفي عدادهم ، صاحب هذه الكلمات ، مشدودين في سوق النخاسة من تجارة العبيد .. ومع ذلك ، وما ان تفرس يوم تجارة العبيد ملامح يوم شهداء الشاعر حتى لحق بيوم محكمة التفتيش اختفاء بزاوية من زوايا التاريخ انكماشا على نفسه ، واستصغارا لهذه النفس . وما علينا بعد هذا التقديم الا ان نسلم القاريء لقوافي الشاعر تروي له هذه المأساة :

يوم اطل على العصور الخاليه   ودعا : امرءً على الورى امثاليه ؟
فاجابه ، يوم اجل أنا راويه   لمحاكم التفتيش ، تلك الباغيه
ولقد شهدت عجائبا   وغرائبا
لكن فيك مصائبا   ونوائبا
لم ألق اشباها لها في جورها   فاسأل سواي وكم بها من منكر
واذا بيوم راسف بقيوده   فاجاب والتاريخ بعض شهوده
انظر الى بيض الرقيق وسوده   من شاء كانوا ملكه بنقوده
بشر يباع ويشتري   فتحررا
ومشى الزمان القهقرى   فيما أرى
فسمعت من منع الرقيق وبيعه   نادى على الاحرار يا من يشتري..

وما يزال يستعرض سود الايام في مدلهم الليالي حتى يصل الى ساعاته الثلاث الرهيبة ينطقها بلغة هي نجوى ارواح شهدائه ، ومشافهة النفس البشرية مباشرة كأنما ليس بينها وبين الشاعر تلك الحجب الكثيفة الصفيقة من مادة التراب التي هي اللحم والعظم ، فتنطلق الساعة الاولى – اي ساعة الشهيد الاول – تترجم عن نفسها :

انا ساعة النفس الابيه   الفضل لي بالاسبقيه
انا عبر ساعات ثلا   ث كلها رمز الحميه
بنت القضية ان لي   أثرا جليلا في القضيه
اودعت من مهج الشبيبة   نغمة الروح الوفيه ....

فتنبري الساعة الثانية مفاخرة اختيها :

انا ساعة الرجل العتيد   انا ساعة البأس الشديد
انا ساعة الموت المشر   ف كل ذي فعل حميد
بطلي يحطم قيده   رمزا لتحطيم القيود
زاحمت من قبلي لاسبقها   الى شرف الخلود
وقدحت في مهج الشباب   شرارة العزم الوطيد ...

وهنا تطل الساعة الثالثة ، مدلة على الزمن ، مشرفة في جبين التاريخ:

انا ساعة الرجل الصبور   انا ساعة القلب الكبير
رمز الثبات الى النها   ية في الخطير من الامور
بطلي اشد على لقا   ء الموت من صم الصخور.
جذلان يرتقب الردى   فاعجب لموت في سرور ...

الى اخر تلك الاناشيد الثلاثة التي تكاد لقدسيتها لا ترقى من الارض الى السماء ، وانما تنزل من السماء الى الارض .. والشاعر منذ كان الشاعر صنو النبي ، وخدين الرسول ، سيما اذا كان صاحب قضية ، وحامل رسالة ..

مدنا اللهم بروح من ابراهيم .. وتبارك اسمك الكريم

بيروت   **نديم مرعشلي**

في اعماق الليل

الشمس وراء الغيم
بقعة دم
والسحب سطور مضطربه
في افق معتم
وانا ابحث عن انسان
يشرق وسط سمائي

★

البحر سجين خلف الامواج الزرقاء
اسوار تغرسها الريح تخفي أصداف الاعماق
ما اروع ان ترتاد الآفاق
وتشق طريقا عذراء
وتغوص الى نفس بشريه .
جفت خلف جدار الوحده
تسكب فوق اساها بسمه
فتذوب الجدران
وأنا ابحث عن انسان
ينفذ في اعماقي
يحمل بسمة

★

بابي يبسط بالود ذراعيه
ويعانق من يخطو نحوه
يحتضن جداري جنبيه
وبساطي يدفىء اقدامه
لكني أمضي مقرور القلب
ابحث عن انسان
يدفئني وده

★

قلبي اعصره للساري بين الاشواك
واوسد صدري احزان رفاق المأساة
لكني ابحث عن انسان
يحمل عني احزاني .

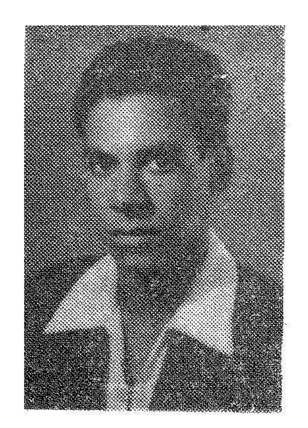
★

النجم باسفار الليل رفيقي
والليل طويل
في كل حفيف تحمله الريح
اتنسم انفاس صديق
والدرب طويل
وانا ابحث عن انسان
يؤنس بالليل طريقي

★

في اعماق الليل ينام الفجر
بساعات ثم يقوم فينفض ثوبه
من يشعل بالليل سراجا يلقي ألفجر
وانا ابحث عن انسان
لا ينتظر الصبح
بل ينفذ بين ثنايا الليل ويوقظ فجري .

القاهرة   **محمد البخارى**



الموت الجديد

في كتاب كان يقرأ
« انني ابن فرنسا »
سأل الطفل اباه : كيف هذا يا أبي ..؟
اطرق الوالد يرنو لجبال المغربِ
كان يصغى للرصاص الاجنبي
ودموع في مآقيه ترقرقْ
ـ كيف هذا يا أبي ؟
ـ يا صغيري ..
يا شهابا في الدياجير يحدقْ
هل تصدق ؟..
عندما تقرأ عن زنجية تنجب طفلا ..
« أزرق العينين اسمر ،
في كهوف الغاب ـ والجاني قدر ؟
هل تصدق ؟
انها معجزة لا تتحقق ..
في سوى ارض العبيد
حيث يلهو في جحور الليل ذئب ازرق العينين اشقر،
انها النار التي تصهر شعبا من حديد ..
فاذا الشعب قبورٌ من جليدْ ،
انها الموت الفرنسي الجديد .
غن ابني :
« انها الموت الفرنسي الجديد »
ـ يا ابي .. مهلا الا تشرح لي معنى النشيد؟

ـ « يا ابي » .. ثم أنتفض
حينما دوى بأذنيه هدير .
ماجت الحيرة في الوجه الصغير
ـ « يا ابي » .. واهتز مصباح هزيل
ـ احذري .. الجدران يا امي تميـــل ..
ـ « احذري » ...
لكن سقف الغرفة انهار .. تهاوى
غاصت الصيحة في اوحال دم .
وعلى ضوء الحمم
ـ وكتاب لم يزل في يده ـ
لمح الطفل وجوه المجرمين ،
ثم لا شيء .. فقد حط الظلام
العيون انطفأت
الدموع اختنقت تحت التراب
شربتها مقلتاه ،
والدم النازف قد اغلق فاه
فهو اعمى ،
وهو ابكـم ،
يلفظ الانفاس .. لكن كان يفهم ..
النشيد الغامض المردوم .. يفهم ..
انه ابن الجزائر .

القاهرة — الحسانى حسن عبدالله

العاشقة الثائرة

ـ تتمة المنشور على الصفحة ٨٠ ـ

بديعا ذا معان جميلة :

« ساملأ كاسي برحيق الفن ، فالفن نبع فياض ، دفق وجود لا ينضب ... مهما غرفنا منه،يظل يغرقنا بالجمال ... ومهما نهلنا منه ، يظل يسكرنا بالامال والحب .. ساهب حياتي للحرف : ساجعل منه الهي ، ورفيقي ، وعبدي .. فآمره ساجدة ... واعبده ، سيدة . واشكو اليه همومي كانسان حبيب .. »

*

الى هذا المصير انتهت عاشقتنا ريم .

ثارت على المجتمع ، الذي اراد ان يحول بينها وبين ممارستها عاطفتها الانسانية على الوجه الذي ترغب ... ثم ثارت على الحب نفسه ، لانه كما بدا لها اسار يقيدجناحي فنها الطليق .

وانت ، في هذا كله ، مندفع مع ريم العاشقة الثائرة ، متجاوب منساق، تؤمن بآرائها ، لا يداخلك فيها شك .

وان ما يحملك على هذا الانسياق والتجاوب ، صدق التجربة التي تقدمها اليك الكاتبة ، فهي من حيث الصدق كاملة غاية الكمال . وان الصدق ليتجلى في هذه « الجزئيات » الصغيرة المتدافعة المتزاحمة في تضاعيف القصة ، فكل ما يمكن ان يقع بين الحبيبين من تمنع ، ومطاوعة ، ووجد ، وجفوة ، وفرح وارق، وافتراق .. كل ذلك مدروز ، احدها اثر الاخر ، في تتابع الفصول .. فتأخذك هذه الواقعية ،وتاسرك الرومنتيكية ، فاذا انت ملتذ بالقصة لا تريد ان تقطع قراءتها لقضاء ايسر الامور .

وفي رايي ، ان ما أثرى القصة بهذه الجزئيات الشيقة ، معين ثر خصيب ، هو سجل مذكرات اعتمدت على الكاتبة ، فامدها بالفيض الذي لا ينضب ... وان لديها من هذا المعين نصيبا اخر وافرا ، حقيقا به ان ينثر في قصة من الطول ذاته ، او لعله قصتان .

على ان اعتمادالكاتبةعلىالحوادث تترى ، وعلى الحوار ، صرفها عن التحليل تسبر به اغوار شخوصها ، فاذا هي متفرغة لذكر الحوادث كبيرها وصغيرها ، ولتسجيل كل عبارة تجري على لسان احدهم ، دون النفاذ الى ما وراء هذا اللسان من نفس موارة بالعاطفة والاحاسيس المتضاربة ، عدا احاسيس البطلة الرئيسية ريم ، باعتبار القصة تروى بلسان حالها .

ومن هذا المأخذ الجانبي ، ننتقل الى مأخذ اخر كبير . شخوص القصة كثر . يربو عددهم على العشرة .. فهل وفتهم الكاتبة حقهم ، من حيث العناية بهم ، واعطاؤهم الدور الفني اللازم لكل منهم ؟

كانت ريم الشخصية الرئيسية الاكلة حقوق غيرها من الشخوص . وما في ذلك من بأس ، فهي الراوية . ومن احق بالتكلم ـ اذا اتيح له الكلام ـ بالحديث عن نفسه وعن احاسيسه وخلجاته !

اما زياد ، فقد بدا شخصا ثانويا ، ولكنه لاقى العناية المتوجبة على كل حال . واما الفريد ، فقد طرح جانبا ، ولو ان سماته بدت واضحة وصادقة في اواخرالقصة، وقد كان ينبغي ان يشغل حيزا اكبر .

بيد ان العناية بالشخوص الاخرى ، قاربت حد الاهمال المعيب . ولئن غفرنا قلة العناية « بالست سناء » مثلا و«عصام» و«المربية» و«الخادمة دنا» وليس لنا ان نغفر ، الا ان شخوصا ثلاثة في القصة جاءت على درجة طيبة منحيث التخطيط وبروز الملامح ، ومع ذلك لم يلاقوا العناية الكافية ، وهم «الجدة» و«العم » ، واخص منهم «ناديا» زوجة خال ريم ، انها في الحق ذات شخصية واضحة متسقة وذكية ، لذلك كان يمكن اعطاؤها دورا اظهر في القصة ، وقد اعجبني منها موقفان : وهي تحض ريم على العمل في الوظيفة بمنطقها الرصين (الصفحة ٢٦) لتتحررمن سيطرة الرجل ، ثم وهي تفسف لها حرمان زياد ، هذا الشرقي ، الذي وان عاش في اوربا سنوات الا ان الحرمان في دمه موروث عن الاسلاف (الصفحة ٢٧١) ... ان ناديا شخصية موفقة ، واضحة الملامح ، تختلف عن سائر الشخوص الثانوية اختلافا جوهريا .

وتصوير الاجواء في القصة كان جيدا ، فانت تحس بانك تحيا في الجو الموصوف كما لو كنت فيه في الواقع . وذلك غاية الابداع . ولم يتخل التوفيق عن الكاتبة ، الا في رسمها جو الوظيفة ،فكان فاترا لا يشعرك بان ريم موظفة تعمل حقا ... ولعل صدق احساس الكاتبة بهذا الفتور ، حملها على ان تسحب بطلتها ، في منتصف القصة ، من الوظيفة ، فقد اصبح توظفها او عدمه سيان في مجرى القصة .

اما اللغة ، فسليمة ، مشرقة ، شاعرية ، تستغرقها الصور الماتعة .

وقد كان الظن في الكاتبة انها شاعرة باللغة الفرنسية وحسب ، وان العربية لا تطاوعها في بيان افكارها ، فاذا هي تكتب بلغة اجدادها خيرا مما يكتب معظم قصاصي لاقليم ، فتنتزع الاعجاب، بل تبعث الحيرةوالذهول

اما الحوار ، فقلما قرات مثله في قصص كتاب اقليمنا . فهو فني عذب ، سائغ ، عفوي ، ينساب انسيابا ولا يدفع دفعا .

ولقد اعلنت الكاتبة، مضيا مع احترامها للغتها وزهوا في اقتدارها على التعبير بها ، انها تتحدى ان يكتشف لها احد في الكتاب اخطاء لغوية . واني ،مع تسليمي بسلامة اللغة في القصة ومع تواضع حصيلتي اللغوية ، اقبل التحدي ، فاذكرها ببعض الهفوات ، من ذلك : « وادي معاصي » (ص ١٥١) ، «سنينه الماضية» (٢٠٤) ، « بعضهم البعض» (٢٢٠) ،... هذه الهفوات التي لا اعتقد الا انها من صنيع عامل المطبعة سامحه الله وغفر له !

بقي ان اشير الى وجه للشبه ما بين «ايام معه»» وبين « انا احيا » للكاتبة اللبنانية ليلى بعلبكي . الموضوع يكاد يكون واحدا ، الفتاة التي تبحث عن نفسها ، عن وجودها ، ثائرة ، منكرة الاوضاع والتقاليد الى ان تلقى الذي تحب ، فتذيب حبها شمعة تبكي بين يديه ، ثم ينتهي بها الحب الىذلك المصير . انه قصة الفتاة الحائرة الثائرة العاشقة ، فلا غرابة ان تشابه الموضوعان ، وانما العبرة في المعالجة الفنية ، ولقد فاقت كوليت زميلتها ليلى ، بما ملكت من قياد الفن والاصالة والحوار الشيق.

وبعد ...

ان قصصا مطولات ثلاثا ، لروائيين سوريين ثلاثة ، قد صدرن خلال العام ١٩٥٩ : « باسمة بين الدموع » لعبد السلام العجيلي ، و«خمر الشباب » لصباح محي الدين ، و «ايام معه » لكوليت سهيل ..

هل اقول : كوليت ابرعهم ؟

اكاد اعلن ذلك ، لولا ان تشدني الي العجيلي، صاحب «باسمة».. ، اواصر من الاعجاب المتين وقد قرأته لسنوات ، فامسك من اعلاني ، انتظارا لاثر جديد تدفعه الى القراء كاتبتنا الشابة ، يكون اكثر نموا من الوجهة الفنية ، واوضح هدفا ، واقرب الى مشكلاتنا الحيوية ، واكثر ذيوعا وخلودا .

درعا (الاقليم السوري) **فاضل السباعي**

ادبنا الثوري والموقف الحضاري

ـ تتمة المنشور على الصفحة ١٤ ـ

العالمية الشاملة .

اما اليوم فان استفاقتنا الثورية على حضارتنا وعلى حضارة العالم بعد ركود طويل تحمل في صلبها معاني وامكانات باهرة قد نتمكن من انتهازها وقد لا نتمكن . ان قولي هذا لا يحمل ضعفا في الايمان او ميلا الى التشاؤم ولكنه يعكس من الناحية الموضوعية العلمية حقيقة الامكانات التي قد نلتقيها خلال السنوات القادمة . فهل سنستطيع مثلا ان ننقذ انفسنا من الروح التجارية المرعبة التي تميز الحضارة الغربية ، من السلبية وفقدان الشخصية في العمل والحياة اليومية وضروب الترفيه ومن الميل الى التشابه المسلكي الذي يحطم الفردية ، ومن الحياة الالية المرتبطة بمنبه الساعة في المنزل والمحطة وقاعة العمل ، اي من كل هذه المظاهر السلبية للحضارات التي تتجه نحو حياة جماعية منضبطة ؟ ام ان حضارتنا المتجددة ستعنى بالانسان الفرد وستضمن لنا « الاستقلال الشخصي » في حياتنا وستفتح المجال للطرافة والتفرد والتميز امام الافراد؟

وان استفاقتنا هذه فوق هذا قد تحمل الكوامن التي تمهد للفنان والخلاق عندنا ان يخلق فنا ذا روحية متدفقة واثقة اكثر من كتاب اوربا وفنانيها الذين يعيشون في عصر تساؤلاتهم الميتافيزيقية المريرة . فمعاناة حربين مدمرتين ، وهيروشيما وافران الغاز والاطفال المصلوبين على وجه اوربا وحرب الابادة في الجزائر ، كل هذه الفظائع التي اختص بها القرن العشرون ، قد برهنت على فشل الحضارة الغربية في منح الانسان الغربي الوهة الارض واستقرار الضمير وليس حزن السويديين وخيبة الاميركيين النفسية وحركة الشباب الغاضب في بريطانيا الا ردود الفعل المحتومة لفشل هذه الحضارة الباهرة التي لم تستطع ، رغم تعبيرها عن اجل معاني الانسانية ، ان تحمي الانسان من تدمير نفسه عندما ضاعفت له مقدرته على انزال الضرر والخراب . غير ان الكاتب والفنان والمثقف العربي ، لا يمكنه التهرب كليا من تساؤلات الغربيين وحيرتهم ازاء فشل حضارتهم في منحهم الاستقرار والدفء الروحي . فكما اسلفنا لم يعد سكان الارض قادرين على الحياة في معسكرات منفصلة لا تترادف فيها التيارات الفكرية والعاطفية ، ولم يعد بمقدورنا ان نعمل ونبني بمعزل عن مخاوف اوربا وارتجافاتها ـ واما الخوف من حرب ذرية فانه لا يقض مضاجع الغرب اكثر مما يقض مضاجعنا .

لكن هذا لا يعني اننا سنشارك الغربيين يأسهم وضجرهم وشكوكهم . ان افكارهم ستعرض نفسها علينا ومن المفروض ان تثير تحدينا وتشعرنا بقوتنا الدافعة، غير ان هذا سيكون رهنا باحوالنا النفسية والاجتماعية ومدى تغلغل الثورة في حياتنا العملية . ذلك ان مجتمعنا ما زال يشكو من نواحي الضعف الخلقي والفوضى في المفاهيم ومن الكثير من البلادات والتفاهات التي كانت عنصرا من عناصر ثورتنا على حياتنا . بل اننا نرى هذا المجتمع لا زال يعنى اكثر ما يعني بالانماط العادية من الناس وبمن له ظهر يسنده ومال يدفعه واصدقاء اقوياء يسهندونه . ان مجتمعنا يؤثر الوسطية ويغل الحرية الفكرية ليس افضل مجتمع للانتاج الادبي المتفائل والفرح الذي يعبر عن بنائية ثورية مستبشرة. ان حقيقة صراع الفئة المثقفة اليوم يقع في الفارق الشاسع بين المفاهيم التي اعتنقتها وبين الواقع الذي تعيشه بمرارة في اغلب بلدان الوطن العربي الكبير .

ولهذا فاننا لن نستغرب اذا رأينا ان عددا من ادبائنا لا يعكسون فعالية حضارتنا المتجددة وحيويتها واستبشارها وتفاؤلها ـ ولعل الجيل القادم سيكون اكثر تفاعلا مع حضارة اسست ونهضت وآتت اكلها الاول . ان اخلاص الاديب هو لفنه فقط ونحن لا نريد لادبائنا الا ان يعكسوا قناعاتهم الوجدانية فيما يكتبون ، وسوف ندافع عن حقهم في هذا ، وسوف ندافع عن حقهم في اتخاذ الموقف الذي يلائمهم ويجد ارتياحا في نفوسهم ما دام يعكس تفاعلهم الحقيقي مع حياتهم .

★

هناك فئتان من حملة الاقلام تجنحان نحو المغالاة العصبية في نظرتهما الى الحضارة الغربية. فالفئة الاولى تشعر بان التخلف مزية من مزايانا وبان التفوق مزية من مزاياهم. وقد قابل هذا الشعور بالضعف امام الغربيين شعور الفئة الاخرى بأننا اكثر موهبة واعمق اصالة واروع تفكيرا . ولعل هؤلاء لا يقلون خطرا على حضارتنا المتجددة من اولئك ـ فان ضعف الثقة بالنفس يوازي الغرور قبحا وان الاستخذاء امام الاخرين يوازي التعالي الفارغ فجاجة وتهافتا ـ والاديب الانساني والمفكر الحر هو الذي يستطيع ان يشمل في نظرته مزايا الانسانية جمعاء والذي يستطيع ان يتمثل الحضارة الانسانية التي هي خلاصة تفاعل الحضارات جميعها بما فيها حضارتنا نحن .

اننا لا نستطيع ان نطلق لقب الثورة على اي من الفريقين. الفريق الاول متخاذل مستهين امام الحضارة الغربية ، منكر لتراثنا الغني ، والفريق الثاني متعال على حقيقة الحضارة الغربية ، وهي حقيقة كائنة لها جذور بعيدة ولها تاريخ طويل لم يترعرع الا على كفاح الانسان الغربي مع نظم الحياة وعلى تفاعله الدائم مع تيارات الفكر التي كان يفتقها باستمرار فلاسفة اوربا ومفكروها وعباقرتها .

ان الاديب المؤمن بعروبته يكون اديبا ثائرا بحق يوم يتفهم حقيقة مشكلاتنا وحقيقة اوضاعنا الحضارية والثقافية والفكرية والفنية الى جانب الاوضاع الاخرى . الايمان بالعروبة لا يقع في انكار الغير وفضلهم وتقدمهم . فالعروبة ليست شيئا منفصلا عن الانسانية وتراثها العظيم ومدنيتها وخيراتها ، ولو كان هذا ايمان ثورتنا لكنا جنحنا نحو الانغلاقية الخطرة ـ ولكن ثورتنا لا تؤمن بهذا ، بل انها تؤمن بان العروبة التي هي دمغتنا وثقافتنا ، هي التفتح والتسامي عن العنت والاستعباد الفكري ـ العروبة هي الانطلاق والمحبة ، انها نحن ، المتشوقون الى غد مبني على اسس مركزة راسخة من تراثنا الكبير ومن تراث الانسانية وحضارتها .

ان الثائر الحقيقي لا يفهم الثورة على الشكل الساذج الذي يدعو اليه بعض الكتاب ، أولئك الذين لا يرون في حياتنا وفي تراثنا الا العظمة والروعة ، ففي حياتنا وفي تراثنا الكثير مما يجب ان يرفضه الثائر الحقيقي والقومي المخلص ، ولولا هذا الكثير لما فرنا ، لما تركت جيوشنا الثكنات لتهاجم الاستبداد والرجعية والانانية والتفاهة والسديمية ، اما المتعصبون من الكتاب فهم دخلاء على ثورة جيلنا ، غرباء عن حقيقة كفاحنا ، بعيدون عن مشكلاتنا الجارحة وتساؤلاتنا المرتعشة وتجاربنا المريرة وبحثنا اللاهف عن حقيقتنا .

نعم بعيدون وخطرون . اننا لا نريد ان نبني « السدود بدل الجسور » بيننا وبين العالم . بذلك سوف نختنق ونتعفن ، وبذلك سوف نبقى على هامش الحضارة والتاريخ. ان علينا ان ندخل شراكة العقل الخلاق المبدع في العالم كله.

ولهذا فان كل مفكر قومي ثائر من المؤمنين باصالة هذا الشعب العربي وبعظ امكاناته لمدعو بان يشارك في بناء الجسور المتينة بيننا نحن عرب اليوم وبين تراثنا الكبير ، وبيننا نحن عرب اليوم وبين حضارة العالم ، وان يصر على ان نجمع التراث العربي الى الثقافة العالمية ، ان نمزج بين عطائنا والعطاء العالمي ، ان يرجع الادب الى جذوره وان يتطلع الى ما حققته الانسانية جمعاء في الوقت ذاته ...

٢ ـ ناقوس الخطر

واذا جاز لنا ان نتكهن فانه يخيل الي انه ما دامت الجذور الفاسدة لم تستأصل وما دام الفكر مقيدا فان ادبنا الثوري اما ان يستكين واما أن يمعن في ثورة سلبية لن تعود علينا بالخير ، حتى ان الادباء الشباب قد ينقلبون على انفسهم ، وتراثهم ، وعلى رواسب الدين والتقاليد والعادات منددين بالماضي ومستهينين بمآثر الحاضر . وهنا يجثم الخطر الاكبر من التعصب ومن استمرار حالة الوسطية في حياتنا الثائرة الروح ، حياتنا المفتقرة الى التوازن المعافى بين المعرفة والامال من جهة وبين الواقع المؤقت من جهة اخرى . اننا لا نريد شبابا كافرا بمعطيات الماضي، متجاهلا كنوزه واندفاعاته وعطاياه ، ولا شبابا كافرا بمعطيات الحاضر متجاهلا انتصاراته وامكاناته الكثيرة ، ولكي لا يتورط جيلنا في هذا الكفر فان علينا ، نحن حملة الاقلام ، ان نصر على ثورتنا ان تكتسح جذور الرجعية والسديمية والتعصب والبلادة والتفاهة والظلم وان تحاذر من التعرض لحرية الفكر والقلم ، لانها حرية مقدسة ، والتعرض لها يخنق القدرة على الخلق والابداع .

نحن لا يمكننا ان نضحي بالمثقف العربي وبالفرد الموهوب في سبيل اي هدف بعيد او قريب . ان النكسة النفسية التي تصيب المثقف عندنا تصيب الامة العربية في جوهرها الاول . اننا لا يمكننا ان نستغني عن مثقفينا وموهوبينا لانهم هم ملح ارضنا وخميرة عطاء اليوم والغد ، وهم استمرار تراثنا واستفاقة حضارتنا ، وان عليهم تقع مسؤولية احياء التراث العربي وارجاعنا الى جذورنا الثقافية ، وعليهم تقع مسؤولية وصلنا بالثقافة العالمية وتنبيه نظر العالم الى امكاناتنا وفعاليتنا . انهم الجسر بين تراثنا والتراث العالمي . اننا اذا خنقنا امكاناتهم خنقنا تقدمنا ،وبدون جهودهم المنطلقة لا يمكن لثقافتنا ان تنتعش ولحياتنا ان تتجدد . وانه للغو ان نقول بفضل اسبقية التحرر المادي على التحرر الفكري والتقدم الثقافي والروحي ، فالاثنان يسيران جنبا الى جنب ، ولا يمكن للشخصية الحضارية ان تنطلق عن طريق واحد فقط.

فاذا ارادت ثورتنا ان تحقق لنا حضارتنا الموعودة ،فان عليها ان تحرر الكلمة من كل قيد يعوقها عن الانطلاق ، كي يستطيع الاديب الموهوب ان يعبر عن رايه دون تردد ، فالانطلاق الفكري وحده الذي يفجر طاقات الابداع والابتكار في خيال الانسان .

سلمى الخضراء الجيوسي



أحلام الشهداء

« بمناسبة اعياد النصر بالجمهورية العربية المتحدة »

وكان وجودهم عارا ..
يؤجج جوفنا نارا ، ويشعل عمرنا نارا
وكان رحيلهم حلما ، يداعب ثم احرارا
فينطلقون ثوارا ..
ويسقط منهم الابطال بين مذابح
الغدر ..
وفوق مشانق الغدر ..
وملء عيونهم امل ..
وفوق شفاههم امل ..
ويجري الاحمر الغالي ،هنا وهناك ينهل
ليصنع هاهنا نهرا ،ويرسم هاهنا وجه
ويكتب في ضمير الخلد ، من تاريخنا
صفحه

★

وفي ارض البطولات ..
تمطى الظالم العاتي ..
هنا ، في ارضنا الحره ..
ولاح الغدر ثعبانا ...
يشوه حبنا آنا ، ويزع حقدنا آنا
ويغرس في ضلوع الناس اضغانا
واضغانا
وقامت ثم احقاد ..
ولكن موكب الاحرار لم يأبه لما كادوا ..
فيمضي ركبه الظافر ..
يسطر بالدم العاطر ..
هنا في ارضنا قصه ..
ستبقى في الورى تروى ، كأجمل
قصة قيلت ..

على زهران لاتبك ..
فما قد مات زهران ..
اخي ما مات زهران
ولا اخوانه ماتوا
ولا خالي الذي اردوه في الثوره ..
ولا دمنا الذي قد سال ، قد سالا ..
فقد شربته تربتنا لتنبت بعد ابطالا ..
يعود لارضنا فيهم شهيد مثل زهرانا
يعود اليوم فرحانا ..
مع الشهداء نشوانا ..
ليلقي جمعنا الظافر ..
يودع موكب الظلم ..
يردد لحنه الحلوا
ويرقص موكب الازهار في اعياده زهوا
فقد ولوا ، اجل ولوا ..
وكان وجودهم عارا ..

★

ولاح الافق مزدانا ..
بالاف من الافراح والاشواق والذكرى
والاف من الارواح ترقب موكبي الحرا
وجوه نحن نعرفها ..
تبارك ثم معجزة ، على ارضي على
مصرا ..
فذلك عيدنا الاكبر ..
وتلك جحافل التتر ..
تغيب اليوم عن مصر
فيا جانكيز لا تحزن ،فتلك نهاية القصه
ونابليون لن يذكر ..

ولا الاسكندر الاكبر ..
وهو لاكو سننساه ..
فتلك بطولة اخرى ،رواها الدمع والدم
نماها الحقد والظلم ..
ولكن البطولات التي تحيا ، بطولة عصرنا
الزاهر ..
بطولات صنعناها ، وتصنعها شعوب
تعشق السلاما ..
وتهوى الورد والحبا ..
وتفرد كفها قلبا ..
تحيي كل من يهوى حياة الحب والسلم
ويصنع الورى شيئا ، يحرك فيه امالا
تنور عصرنا الزاهر ..
وتبني عهدنا الناضر ..

★

فيا ينبوع احلامي ،ومنهل قلبي الظامي
تعالى نبتني بيتا ، هنا في موطني الحر
بلا خوف ، بلا قلق ، بلا رعب بلا ذعر
فتلك الارض نملكها ،وطفل سوف ننجبه
جميلا ، مثل زهرانا ..
سيحيا العمر فرحانا ..
ويملأ بيتنا حبا ، واشواقا ، والحانا
ولكن عندما يكبر ..
سيسمع هذه القصه ..
سنحكيها له يوما ..
ونذكر انهم ذهبوا ،وكان وجودهم عارا

عبد المنعم عواد يوسف

ثورة على الفكر العربي المعاصر

تتمة المنشور على الصفحة ٣٠

ومضت السنوات ، وظلت الارض تنتج البقل والفاكهة ، وظل الفكر الشرقي يغوص في الخرافة والتسليم ، وتنقلت علامات الاصفاد والسلاسل في معصم الشرقي ما بين رومانية وفارسية ومغولية وتركية وانكليزية وفرنسية،وكان الشرقي الذيدودت قروحه ينقلالنظر بين فاتحوفاتحبدون ان يثور او يتعلم الكراهية ..

وكان الوضع الداخلي للبلدان الشرقية موجودا اصلا لخدمة القوى الغازية ، وتمكينها من السيطرة ، وزاد الهم الملقى على كاهل الشرقي وناء به ، لان الحاكم افترض اول ما افترض الا يتكلم الشرقي والا يسمع والا يرى والا يفكر .. وكان على الشرقي ان يرضى بذلك ، بل وان يتحمس له ، في اللحظة التي يخدعه فيها الغازي مجلجلا له ..

ولنعتبر بخديعة الاسكندر ، ونابليون ، للمصريين في دعوتهما تبني الدين المصري الفرعوني ، ثم الاسلام ، لدرجة ان صار الاول نفسه الها بالنسبة لكهنة مصر ، وغض النظر عن جرائم الثاني المخزية ..

في تاريخنا سذاجة عجيبة ، ليس لاننا عاطفيون . ان العاطفية تساعد بالوقوع في الانشوطة ، ولا تخلق السذاجة التي توقعنا فيها . ومنشأ هذه السذاجة هو اننا نؤمن بان العالم خير ، مع جهلنا البات بعصرنا وبالقوانين التي تحكم التطور والانبعاث ، وخلقنا الدين اصلا للهرب من مسئولية الانتماء للعصر والمشاركة في الخلق والوجود والابداع ما زلنا نفسر المظاهر الطبيعية بالخرافة ، فيدق اطفالنا على الصفائح لتخليص الشمس التي تختنق ، ونعالج الشيزوفرينيا والنورستانيا بذبح ديكة بيضاء ، ونقيم حدا لصداع الشقيقة بقراءة سورة هود ، ونقاوم الاشباح والموت بترديد اية الكرسي مرات ثلاثا ، ولا نخجل من ذلك ، في هذا العصر العجيب الذي اصبح ارتياد الفضاء فيه مقدمة لاخضاع مواد الكون جميعا للانسان .

ان العذر الوحيد الذي يسند شرف العقل الشرقي ، هو ذاته العذر الذي سند عقلية الجمهور المصري الفرعوني القديم بالنسبة الى قضية التحنيط ، فقد كان الكهنة يمنعون بالقوة وسيطرة الدين اية محاولة للمعرفة ، ويقرنون السر بالمطلق وبالاله وبالقدسية . أما الوضع في الشرق العربي فقد تحول من دكتاتورية الرهبنة والالوهية ، الى دكتاتورية الحاكم والطبقة الثرية التي تظاهره ، واستخدم الدين كبرشامة أزلية تعطى عند الحاجة وعندئذ تكاثفت سحب الثورة والتمرد . وكان الضعف موجودا في الذهن الشرقي لان مسكنته المعيشية والاجتماعية تطلب منه التفاتا كليا ، واهتماما مضاعفا .. (*)

ان الفقر يوحد الملامح ، ويوحد الاساليب التي تتبعها المجتمعات المتماصرة ، خاصة اذا كانت احكام الديانة عنيفة بالقدر الذي في شرقنا العربي..

فاذا شئنا ان نحول ذهننا من وعي الخرافة الى وعي العلم ، ومن التسليم بالقدر والمكتوب ، الى الاعتراف بالارادة واهمية الفعل البشري في التطوير ، اذا شئنا ان نبدا حياتنا من جديد ، لا بد ان نقر بهذه الحقوق الاساسية للذهن :

أ ـ حرية التفكير والعقيدة ، وحرية التبشير بها :

اول مظهر من مظاهر حياتنا الاجتماعية هو الاكراه العقيدي ، والسخرة الضميرية : لنتصور مسلما يتحول الى المسيحية او الى الالحاد بصفة خاصة ... : كيف يمكن له ان يعيش في وسط محتشد بالكراهية والحقد والسخط ، كيف يمكن له ان يباشر حياته العادية وصداقاته التي تزخر بها معيشته الاجتماعية ، بدون ان يواجه كل لحظة بالحط من كرامته ، ويعير بانه ضعيف وجبان لانه (غير دينه ، ودين آبائه ..) ؟!!

وهذه الظاهرة ملحوظة بشدة في المدينة ، فما بالنا بها في القرية ـ على ندرة ذلك ـ ان على المرتد ان يضطر للمهاجرة من وطأة الضغط الاجتماعي والنفسي عليه ، بل ان اسرته ذاتها تتخلى عنه ، لانه (داس) على كرامتها وشرفها ، ولان الناس هنا يكونون عصبة دينية متآلفة متآزرة ، حيث يصبح المسجد هو الاصرة الوحيدة التي تلم اليها الافراد ، وحيث يتسيد شيخ المسجد في كافة شئون القرية من الزواج والميلاد الى الموت وادوار السقيا . (التسامح الديني الذي حض عليه الاسلام لا يناقش هنا . اننا نعرض قضية تحول المسلم عن عقيدته ..)

الاكراه العقيدي يوجب الصمت والسكونية ، بل انه يصل في أعلى حدة له ، بالحض علىرفض كل فكرة يكون الغرب مصدرها ، لانها بالنتيجة فكرة (كافرة) ، ذلك لان العقيدة الاسلامية واجهت من قديم طغيان العالم المسيحي الاستعماري ، ولم تستطع ان تفصل بين الدين المسيحي ، او اي مذهب غربي ، وبين السلوك الذي يسلكه مسيحيون مخلصون . وفي الحروب الصليبية، والحروب الاستعمارية الحديثة كل منطلق هذه المواجهة المستمرة . والضمير العربي له الحق في ذلك ، لان الاسلام ليس كالمسيحية علاقة بين الفرد وربه ، بل هو محاولة لتنظيم حياتنا الدنيوية على اساس اقتصادي واجتماعي وعاطفي ، فله الحق اذن ان يكفر بالعالم المسيحي الذي يؤمن بالحب والمساواة ، ويضربنا بالقنابل لاحتلال أرضنا .

غير ان هذه الضميرية لم تستطع ان تهضم الجواب على هذا التناقض :

فالرأسمال في الغرب هو الذي ينشر الدين ، ويوجهه وينظمه ، لانه يفيد من ذلك غاية الفائدة ، ويكفي ان نعلم ان مؤسسة روكفلر توزع في العام الواحد على المسيحيين المخلصين ملايين عدة من نسخ التوراة .. فهل تفعل ذلك لانها تحب المسيح كل هذا الحب ..؟ واذا كانت كذلك فلماذا تمتص دم عمالها وتلقي اليهم بالكفاف ، لماذا تسكت على امراض الفاقة والسل والانيميا الخبيثة التي ترتع في دم وصدور عمال منشآتها ..؟!!

الثروة تساعد الدين ، لان احكام الدين توزع التقبل والسكوت على الفقراء ، وتحرضهم على تجاهل المادة ، لان ذلك فقط هو الذي يفتح لهم ابواب الفردوس على مصراعيه..

اي سند اكثر من ذلك يحتاجه الرجل الثري ، ليمنع تكالب الفقراء على الثروة ، ويمنع مطالبتهم بزيادة الاجور ، وتخفيض ساعات العمل ... اي سند اكثر من ذلك .. وسند يأتي من الله ايضا ؟!.. والثروة الغربية هي التي تحارب الاسلام ، لا لان الاسلام واقف ضدها ، بل لان تاخر الاراضي الاسلامية يغريها بتسويق منتجاتها ، وزيادة ثروتها ...

فلم تكن المسيحية هي التي قامت بالحروب الصليبية ، اكثر مما كانت الثروة هي المحرك الاساسي للضمير المسيحي في الغرب ، فقام قومته المعروفة وجمع الجيوش والاساطيل ووجهها لانقاذ عاصمة الله .. لن تقوم

(*) حتى الان ، ما زال العربي يقول اثر كل نقاش في أزمة سياسية (دعونا من هذا ، ولنلتفت الى لقمة العيش ...) ذلك لان منتهى الفقر الذي يعيشه العربي يقابله منتهى الانحطاط الذهني ، ومنتهى تسليم الامور الى السلطات والخشية من مواجهتها ..

للعرب مكانة فكرية في التاريخ الحديث ، ما لم يكافح الافراد والجماعات هذا الطغيان الدكتاتوري من السلطة في سجن الافكار وحرقها ، ما لم يقف المفكرون صفا واحدا ضد عمليات الشنق الفكرية التي تستعملها السلطات للحد من الثورة ومن الوعي . فاذا صمت المفكرون على ذلك وخشوا نتيجة التمرد ، فما أطول الوقت اذن على النور ان يضيء حياتنا ، وما اكثر ما سنمضيه في الظلمات من اعوام واعوام واعوام !..

لنفتح الابواب للافكار ، تصطرع وتصطدم وتتعارك ويفني بعضها بعضا ، وهكذا فقط يمكن لنا ان نعرف اقدرها على الصمود المنطقي، واكثرها قدرة على الوقوف في وجه النقد ، وفي وجه التقليدية . اما اذا شئنا ان نظل في صمتنا المؤنس هذا ، باقتناعنا العاطفي وتخلفنا العقلي والضميري فقل علينا وعلى حضارتنا السلام ...

ان حرية العقيدة وحرية الاعلان عنها هما من اخص خصائص الحياة الفردية في العصر الحديث ، وبدون اقرارها يستحيل ان نتطور وان نتقدم ، وسوف نقابل في كل خطوة بحكومة تفتح لنا السجون والمعتقلات، وتلقى بنا في الزنزانات ، وتقلع اظفارنا ، وتدمي افخاذنا وصدورنا بوخز الابر ، وتحرق شعر اجفاننا ، وتهتك اعراض شقيقاتنا وامهاتنا . كل ذلك لاننا نخالفها الرأي، ولاننا نعتقد بصواب ما نفكر فيه .. كل ذلك لاننا نقول حقيقتنا .. كل ذلك لاننا نستجيب لعصرنا .. كل ذلك لاننا نود ان نطور عقلية البهائم ، ونطور حياة الوحوش التي نحياها ..

فأية مأساة نعيشها ، واية جريمة نقترفها بالسكوت على ذلك .. اية جريمة ؟.. لقد انعدم الحس النقدي في ضمير الفرد الشرقي بتأثير هذه الحركة الاعتقادية الموحدة التي تفترض في كل انسان ان يكون نسخة من الانموذج المذكور في الكتاب المقدس .. ان يكون كذا وكذا ، والا يكون كذا وكذا .. وسرنا على هذا السراط ، منا من وقع لخطأ اقترفه ، ومنا من فضل القفز في الهاوية على ان يظل عبدا مرسومة له طريق حياته. وواصل الباقون هجرتهم الاختيارية نحو السراب الفردوسي.. وتتشكل هنا مسئولية المفكر العربي الراهن من مجرد الرؤى وحكاية القصص المسلية ، الى الاعلان عن هذه الانقلابية الذهنية ، بالحض على حرية الفكر ، وقول ذلك بكل الطرق وبكافة الوسائل المشروعة وغير المشروعة . فكفانا كل هذا الزمن الذي امضيناه مخدرين ، مغلقي الاعين والعقول ، ولنضع في اعتبارنا ان السلطة بالدرجة الاولى ليست نظاما . انما هي افرادمثلك ومثلي،يجلسونعلى العرش الذيصنعه النظام. فاذا كانوا افرادا مثلك ومثلي فلماذا نخشاهم اذا كنا نطالب بحق لنا ؟.. ان السلطة تعبير عن ارادة المجموع وليست ضغطا غير مشروع على هذه الارادة .. لنضع ذلك في اعتبارنا ، ولنكافح الظلم والبطش والدكتاتورية ، لاقامة مدنية يحلم بها الشرق منذ مئات العصور ، وهي المدنية الديموقراطية ..

ليكن ما نقدمه للغرب من حضارة ، هو المفهوم الحق للديمقراطية ..

ب ـ الايمان بالاشتراكية :

الفقر هو المشكلة الاولى في الشرق العربي ، وتكفي زيارة قرية ، او حي شعبي في اصغر مملكة ، او اكبر جمهورية ، ليبرز وجهه الكالح بافظع قسماته ، واشدها انحطاطا .

ومن قديمكان سوء توزيعالثروة بالاضافةالى زيادة النسلزيادةهائلة(*) عاملين هامين جدا في هبوط المستوى الاجتماعي للاسرة والافراد في الشرق العربي .. ومصيبة ثالثة كانت تعمل عمل التبرير لهذه الخطة الجهنمية في اماتة شعب باسره من الجوع : هي التواكل . كانت الاسرة تتزايد في كل عام فردا ، على حين يظل الدخل الشهري لرأس الاسرة ثابتا عند حد لا يكفي شخصا واحدا ، وكان الرأس يقول : (كل ولد وله رزقه . الارزاق علىالله .. امة المسلمين لها اولية الرزق)!! وانتشرت الانيميا والسل وكافة امراض سوء التغذية والامراض الاخرى التي تعيش على الصحة المتعبة ، واخذت تقتل شبابنا وتنمي فيهم اللامقاومة والدعة وايثار الراحة والسلامة ، واخذت تخفض متوسط الاعمار الى ما دون الثلاثين .. كل ذلك لاننا نتواكل ، ونزعم ان الله يريد ذلك ، وان ارادته لاراد لها ...

وكانت فكرة الزكاة ايام الاسلام الاولى قوية التأثير جدا ، لان المجتمع الاسلامي كان رعويا وتجاريا على اضيق نطاق ، وكان حصر الثروة ممكنا ، لان رؤوس الاموال كانت معروفة ، وكانت النسبة تجمع بسهولة وبساطة، زد على ذلك حماس المسلمين لتطبيقها في الايام الاولى لنشوء الديانة ... اما الان ، وبعد ان تعقدت صور الثروة ، واستحال تنظيم الزكاة على الوجه القديم لها بعد ان تطورت حياتنا ، واصبحت ضرائب الدخل المتعددة تغني عن هذا الشكل البدائي من الاشتراكية ، اصبحت فكرة (الزكاة) اختيارية محضة ، وباطلة التأثير الى اضعف درجة .

الارض العربية كنوز مطمورة ، ولا تنتظر الا العلم الحديث ليقفز بها من محدودية امكانياتها ، الى منتهى المنطلق المادي . ولكن العلم الحديث لا يكفي وحده لنقل هرمية الثروة من القمة الى القاع ، ولنذكر بلدا عربيا كانت تعتمد اعتمادا كبيرا على زيارات طقوسية ، لفقرها الزائد ، دخلها العلم الحديث مكتشفا للبترول ، واستغنت هذه البلد نهائيا عن اموال الزائرين لانها اضحت بين يوم وليلة من اعظم البلاد العربية ثروة ... ولكن الذي حدث ، لم يكن الارتقاء بالوضع المالي للجمهور ، او رفع مستواه المعيشي ، بل كان ان تحولت الثروة الى ثروات عظيمة في خزائن الحكام ..

وظل الفقير فقيرا والمريض مريضا ...اي ان دخول العلم لم يغير من واقع الشعب المادي شيئا ، ذلك ان تغيير الواقع لا بد ان تكون اصوله في الذهن اولا . لا بد ان تكون القاعدة مؤمنة بالاشتراكية ، وبتوزيع الثروات على اساس العدالة ، لا على اساس الهبات والمنح والامر الواقع..

(*) في عام ١٩٠٠ كان تعداد السكان في السودان يقل عن ثلاثة ملايين نسمة ، وفي عام ١٩٥٨ ، اصبح تعداده احد عشر مليون نسمة !!..

ان الاشتراكية ترتبط بالحرية ارتباطا جسيما ، فلو نادت حكومة ما ، باشتراكية ما ، وكانت هذه الحكومة تسجن الشعب بالحديد والنار بدعوى تطبيق الاشتراكية ، بطلت هذه الدعوى من اساسها واصبحت كأن لم تكن . فمصدر السلطات هو الشعب ، وليس القمة ، وطالما كان الشعب مسجونا بواسطة الحكومة ، مكبوت الطاقات ، ومسلسل الارادة ، فلا فائدة في بعث او تقدم . ومن هو الذي يملك ان يغير ذهني بالعنف ؟!.

ان تطبيق الاشتراكية بالقوة ، والاشتراكية الف صورة ، ليس الا محاولة من محاولات محاكم التفتيش ، لا تختلف عنها الا في الصورة والشكل ..

مسئولية المفكرين العرب ترتبط ثانيا بهذا المجال النشاطي الهام ، وتتقيد به ، فلا بد ان تقوم ثورة فكرية تضيء جوانب حياتنا ، وتتصيد شكل الاشتراكية الذي يتفق ومتطلبات واقعنا الحضاري ودرجة تخلفنا. ولا بد ان يلاحظ هؤلاء مقدار الرباط الذي يجمع بين مشكلة طرح مفهوم الاشتراكية كما يراها كل مفكر ، وبين الوجود الحتمي لمجتمع حر العقيدة يسمح بالنقاش ، ويسمح بالنقد ..

ح ــ الحد من الدين :

لا يعني ذلك ان نطالب بشجب الدين من حياتنا المدنية ، فذلك اعنف ما يوجه الى حرية الفكر من طعنات ، والصور التي نطالب بالحد منها هي مدى تعلقنا النفسي واغراقنا في تفسير مظاهر وجودنا بنصوص الدين . اننا لا نحاول ان نضع الحدود لديننا ، بل نتركه يتدخل في كل خصيصة من خصائص حياتنا الفردية والاجتماعية .



اننا عاطفيون وروحانيون ، ليس لان ديننا هو الاسلام . بل لاننا فقراء . ولان الفقراء يتعاطفون ويعطون لانهم يحسون الاسى والعذاب والذل والياس المغمورة فيها حياتهم .. بسبب ذلك نحن نفكر بقلوبنا ، ونقدر بعاطفتنا ، ونندفع في حياتنا على اساس انطلاقي وغريزي . اما العقل عندنا فهو شعلة خامدة مطفأة لا نعرفها ولا نعلم عنها شيئا ..

فاذا شئنا ان نغير هذا الواقع فينا ، من تعاطف الجوع ، الى تعاطف الشبع ، والتكاتف المصلحي ، فان علينا ان نضع خطا فاصلا بين الدين كعلاقة بين الفرد وربه ، وبين حياتنا كافراد وفقراء وثائرين ...

ان على الدولة في شرقنا العربي ان تخطو خطوة اولى لتنظيف رجال الدين ، او الادعياء شبه الرسميين ، بان تبدأ حملة عاجلة في الريف والمدينة للحد من استغفال الفلاحين والبسطاء ، بواسطة بعض الاذكياء المعممين ، الذين ياتون بالمعجزات والخوارق ، وفي نظير ذلك يسرقون الريفي طعامه وطعام اولاده وذهنه ايضا ..

وواجب على الدولة ان تمنع زيارة الاولياء والاضرحة بالقوة ، لان ذلك يجرنا الى عبادة الموت ، وليس عبادة الحياة ، التي نسيناها ، ونسينا كيفية استعمالها .. وان تمنع حفلات الزار ، وموالد الذكر من خاصة المتصوفة الراقصين وعامتهم .. ان تمنع كل هذه المظاهر الساذجة من ديانة لاهي تابوية خالصة ، ولا هي كتابية خالصة ..

وبالطبع ليس هذا هو التطوير المطلوب .. انه اعداد للارض ليس الا ، فالدولة لا يمكنها ان تغير ذهنية الجمهور ، فذلك ليس في صالحها . اننا نطالب فقط بان يقل جنون التحمس الهستيري الذي نلحظه في مثل هذه الاحتفالات الهمجية المتاخرة ، واملنا ان يجر الاقلاع عن هذه العادات البربرية ، ذهننا من مرقده ، فيتحرك وينطلق ..

واذا كانت ارادة التطور تساورنا الان ، فما اقل ان تبدأ الدولة بخطوة من عندها ، حتى اذا كنا نغشها ، ونفعل ذلك في غير مصلحتها على الزمن البعيد ...

ان على المفكر العربي مهمة ان يبدأ في وطنه وطبقته ومدينته وحيه ومنزله وشقته ، حربا مخلصة غير متوانية ضد هذه المسكنة العاطفية ، بغية تحويلها والنهوض بها . هذا اذا كانت رسالته حقا هي ان يرى وطنه النور والعظمة والامجاد .

ء ــ فرع تربوي للمشكلة :

الجيل الذي نعيشه هو ملامح أجيال ثلاثة : جيل آبائنا الذي اكل وشرب من خبز الاستعمار والاسرة المالكة والحكام الاتراك ، فثار احيانا ، وهمد احيانا ..

جيل افسدته ظروفه الاجتماعية ، واتعبته محاولاته للخروج من مازق وجوده ، فتعطلت فيه ارادته وامكانياته وصيرته عاطلا عن التفكير وارادة النزال ، وتركت له فتاتا من الاعتقاد يتعيش بها حتى نهاية ايامه . هذا الجيل لا خير فيه ، لان حكمته اكبر من شجاعته ، ولان مهادنته اعظم من ثورته ، ولان داعي الموت فيه اقرب من دواعي الحياة والتجدد .

والجيل الثاني ، هو جيل الشباب الذي يدوخه قلق المسئولية وقلق العصرية وقلق البحث عن القيم ، ويدوخه قلق الوجود الذي يعاني منه الشرق العربي على العموم ، وهذا الجيل لا يملك الا تمرده الخاص الذي يكاد يفقده اثناء محاولته البطولية الرائعة في نقل هذا التمرد كحس فردي الى الصعيد العام . فالظروف السياسية تقهره وتحاول

تحطيمه، والمجتمع غير الواعي يحاول عزله والتقليل من شأنه، والجيل الاول يسخر من امكانياته ومن قدراته ، وينبئه كل لحظة ان ما يفعله هو الان ، قد فعله قبله بجيل كامل ، بدون طائل ولا فائدة .. وان عليه ان يلتفت الى طعامه ، وان يترك السياسة لاصحابها .!!

وهو ـ هذا الجيل الشاب ـ الوحيد الذي يرى امته في وحلها اليومي يرى صراعها المستتر في الوجود ، ملاحظا بكل عنف وجسارة ، ذلك التيار القوي الذي يحمل الغرب في رحلته المادية ، وواقعا بعد ذلك في تناقض الوجود ، والاحساس بسخفه وعبثه ، من هذا المنطلق الضيق الذي كان كافيا قبل ذلك لتحطيم آبائه ..

هذا الجيل المتمرد الشاب ، هو جيلنا الذي نعيش ، جيلنا الذي ننتسب اليه ، ونعبر عن خصائصه في كل حركة وسكون . ان هذا الجيل يعرف اين يقف ، ويعرف الذي يعطله ويوقف مجهوداته ، ويعلم ان السلطة تتآزر مع المجتمع لفض هذه المعركة التي يحسبها قدر حياته ومعنى وجوده ، وبالرغم من ذلك ، لا يبغى تسليما لهذه الثورة التي وضعتها الاقدار في يديه تعبيرا عن قفزة مليون من الاعوام تريد ان تتنفس وان تكون ، وان تصير ..

والمشكلة التي يطرحها هذا الجيل هي مشكلة القيم في شرقنا العربي ومدى تطلبها للحياة الجديدة التي تتنفس في ارضنا قليلا قليلا..

ان تاريخنا زاخر بالتراث الديني والاخلاقي والاسطوري ، وفقير من حيث الالة والتكنولوجيا ، فلماذا كان علينا نحن فقط ان ندبر اتفاقا بان الآلة تناقض الحس الاخلاقي .. لماذا كنا نحن من زعم بان هناك اختلالا بين التركيب العاطفي وقضية تحولنا الى العقل .؟ لماذا كنا نحن من دون الخليقة كلهم اول من يقول برفض العلم لانه يتنافى والحساسية الدينية .. (*)

ان الزارع العربي ما زال يستخدم المحراث الفرعوني والبابلي في حرث ارضه ، فلماذا لا نشجب ذلك عنه ، ونجعله يستخدم اصابعه واسنانه ؟! طالما المحراث القديم نفسه آلـة ..!

فاذا كانت القضية قضية سماح للمحراث الحيواني وحسب دون اية آلة اخرى ، فالقضية اسخف من ان تناقش .. اما اذا كانت القضية ، قضية خوف من تحولنا الى المادية ، فذلك ادعى الاسباب الى السخافة، لان الارض ستتحول شئنا ام أبينا ، وسيتطور الناس في شرقنا رفضنا ذلك ام أردناه ، وسوف يصبح شرقنا العربي صناعيا ، رأينا ذلك او لم نره ، لان منطق الحياة ، ومنطق الوجود ، ومنطق الزمن ، وهذه الدفعة الواعية التي يشهدها جيلنا ويندفع في تيارها التطوري العظيم ، يدفعنا الى ذلك ، ويدفع حياتنا دفعا نحوه .

فقط .. نريد ، بدلا من أن نعطى للزمن وحده شرف تطويرنا ، ان نشارك معه هذه الفعالية الارادية ، ليقال عنا اننا حققنا ما رسمناه كهدى لحياتنا ..

ان الجيل الشاب يكافح من اجل رسم مخطط تقييمي يقفز من حدوده القديمة الى منطلق ثورة حضارية جديدة ، ولكن .. وفي نفس الوقت ، تطل ملامح الجيل الثالث الطفل في منتهى براءته وخلو باله واطمئنانه، فماذا اعددنا لهذه الوجوه الحلوة التي لا تكف عن الابتسام ..؟ ما الذي وضعناه في أيديها من وسائل يكافح بها ضد الزمن وضد التاريخ الذي لا يرحم ..؟!

(*) لم يقل الدين ذلك صراحة ، انما سلوكنا هو الذي ينبىء به ..

ان على الدولة ان تحول ذهنية الاطفال من التسليم الى المقاومة ، ومن النكوص الى الاقدام ، ولن يتأتى لها ذلك الا بتحويل المناهج الدراسية تحويلا كليا من الدروس الادبية والدينية والاخلاقية ، ومن أمثال الحكمة « الادب مفضل على العلم .. » ، والتي تحتشد بها البرامج ، الى تخطيط عقلي جديد يؤمن بالعلم الحديث ويؤمن بانتصاراته. وذلك يستدعي ان تطور المناهج تطويرا جذريا ، فتدخل علوم الذرة والكيمياء الطبيعية ، والرياضيات العالية ، محل العلوم الصفراء التي لا تخرج عن حدود استعمالات الالفاظ والمناقشات اللغوية والرجوع الى ما قاله فلان وفلان من احاديث واحكام ..

ان الجيل الثالث ينتظر ان نمهد له الطريق ، فذلك وحسب هو اقل واجباتنا نحوه ، واكثرها ارتباطا بشرفنا وبمعنى وجودنا .... فهل نبخل عليه حتى بذلك .. ؟!!

هـ ـ فصل العقيدة عن الدولة :

اول ما نطالب به ، بمنتهى العنف والصلابة ، هو فصل الحكومة المدنية عن الدين ، وعدم النص في مقدمة الدستور على دين الدولة الرسمي . فتلك مظاهرة من اشد مظاهرات العصر الحديث تأخرا ، واكثرها مدعاة للانحلال والتقهقر الحضاري ..

فالدين في اعظم صوره ، ارادة فردية تريد ان تتعلق بقوة وتفسير خارقين بكل مجالات النشاط الحيوية والانحلالية الساكنة في ارضنا . هي ارادة ترغب في ان تعطل عقلانيتها وان تستمد من المعجزات ومن الاسطورة غذاءها التكويني . انها شكل من اشكال العبادة القبلية المعاصرة في استراليا وجنوب افريقيا ، فاذا كانت صورتها الاساسية بهذه الخلال من التفرد والشخصيانية ، كان تعلق الدولة بها ورسمها كسياسة



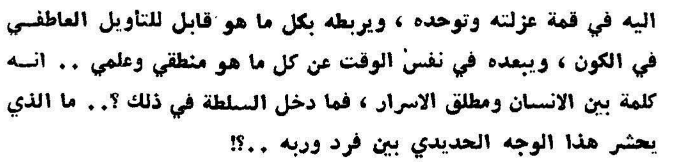
ومحتوى لوجودها ، محاولة منها لنقل كيان الديانة من داخلها الفردي وكونها علاقة بين الفرد وبين آلهه ، الى الصعيد السياسي ، ورسمها خطة عامة تحاصر بها ذهنية البشر الذين يتخطون هذه التفاسير الغيبية ولا يريدون لها ان تكون مبررا لوجودهم ، ما داموا مقتنعين بتفسيرات اخرى اشد منطقية وذهنية ..

فالدولة تخطىء مرتين اذا نصت في دستورها على ديانتها الرسمية ، الاولى في حق حرية التفكير ، وحرية العقيدة ، وفي حق المستقبل الذي يصبح مشدودا الى هذه الحرب الكريهة بين الوجود والعقيدة . وتخطىء مرة ثانية في حق وجودها نفسه كارادة واعية لروح كل فرد من افراد الشعب ، واستجابة لدوافع التقدم فيه ، فاذا لم تكن الدولة تعبيرا عنك وعني ، اذا لم تكن ارادتك ، وارادتي .. فما تكون اذن ؟! واذا كانت هذه الدولة المتكلمة باسمي ، تطبق الخناق علي ، وتقول لي : لا تفكر الا بالقدر الذي يحلو لنا ، ولا تتكلم الا بالقدر الذي نريد لك .. » اذا كانت الدولة تصفدني في ذلك ، فما هي العلاقة التي تصبح بيني وبينها ان لم تكن علاقة الكراهية والبغض التي تصل حتما الى التآمر عليها ، والرغبة في ازالتها من الوجود ؟!!

وقبل كل شيء ، ما هي الدولة ، ان لم تكن انت وهو وانا ؟. اهي قوة مجهولة تحكمنا . ام هي الرباط الاجتماعي بينك وبيني وبينه ، اهي مشيئة علوية ، ام رغبة منا مشتركة في احترام افكارنا ووجودنا .؟!

الدين خيط سري مشدود من المجهول الى القلب البشري ، يصل





اليه في قمة عزلته وتوحده ، ويربطه بكل ما هو قابل للتأويل العاطفي في الكون ، ويبعده في نفس الوقت عن كل ما هو منطقي وعلمي .. انه كلمة بين الانسان ومطلق الاسرار ، فما دخل السلطة في ذلك ؟.. ما الذي يحشر هذا الوجه الحديدي بين فرد وربه ..؟!

ان لنا ان نعتقد بالذي نستريح اليه ذهنيا وعاطفيا ، واذا كان اعتقاد بعض منا خاطئا فالامر متروك للنقاش الحر والنقد كيفما كانت صورته . اما ان تاتي الدولة فتفرض السجن عليك وتمنعك عن التعبير بدعوى خطئك ، فذلك تدخل منها فيما لا يعنيها ، وتطاول لا يصح الا ان يقابله تطاول الافراد أنفسهم عليها ، والمطالبة باخص حقوقهم ارتباطا بهم ، وهي حرية التفكير ، وحرية التبشير به ..

و — تغيير الذهن الاسطوري :

لماذا نحن تقليديون .؟!

هل لاننا نؤمن بالدين ؟! ان كل مجتمع متدين لا يحب ان يؤمن بالجديد ، لان في ذلك مجازفة بالقديم الذي لا يؤمن به ، واطاحة بالاسوار التجريدية التي يلجأ اليها ويطلب منها الامان والعدل ..

فما الذي يبقى للفقير اذن ، لو ضاع الرجاء ، وتبخر الامل في عالم آخر كله عدالة وحب ، ما الذي يبقى ! ان الاغنياء في الدنيا ينهبونه وينهبون جهده وعرقه ، ولو كان يملك الارض نفسها وجنيها ، كما ملك ريها وسقياها ، ما امكن له برغم ذلك ان يتحكم بالسعر الذي يبيع به ما جناه .. والله يرى كل شيء : يرى الغني وهو يحدد السعر بالاتفاق مع الاغنياء الاخرين ، ويراه جذلا بربحه العظيم ، بينما يموت اولاده جوعا وقهرا ... فلماذا لا يؤمن بارض اخرى ترضى فيه حس التشفي الذي يتوقد في داخله ؟.. لماذا لا تكون هناك ارض جديدة فيها العدالة وفيها الاغنياء يتلوون من النيران ، بينما ياكل هو من خيرات الجنة ما شاءت له رغباته ..؟!

ايظلمه هو الجشع الناعم المكرش ، ويموت دون ان يلقى عذابا على ظلمه واستبداده .؟ فلماذا اذن وجد الحار والبارد ، والابيض والاسود .؟

واذن فلا بد من وجود ثواب وعقاب . من اخلاقية قوية سيدة على ارادته وحس المنطق فيه ، لا بد ان يتحول الفل فيه الى امل في العدالة اعتى من المنطق واقوى منه ، لا بد من الخرافة ..!

وهكذا يفسر الشرقي كل شيء بقوة خارقة عاقلة ترى الظلم وتعاقبه، وتضع ثوابا لكل فعل حسن ، وعقابا لكل فعل شرير ، وما دامت الدار الدنيا خداعا بصريا ، وعرضا زائلا ، فلا بد ان يحول الفقير البائس وجهه نحو الله . ورويدا رويدا اخذت هذه النبتة في التضخم والسمنة واصبحت رمزا وعلامة على الشرقي ، وانجبت لنا أبناءها : التواكل والايمان بالقدر والانصياع للمكتوب ..

فاذا اردنا تغيير هذه العقلية كلية ، وتحويل ذهنية الميتافيزيقا الى ذهنية الوجود الواقعي المحسوس ، وجب أن نطلق صيحة عظيمة في هذه الاذن الميتة ، مطالبين لها ان تقوم وان تباشر حقوقها ، وان تعي وان تفكر وأن تجرب وان تعيش..

وتلك مسئولية القادة المفكرة في الشرق العربي ، ولا مسئولية سواها . ان على الذهن القيادي ان يبدأ قفزة تعليمية بمناقشة القضايا الخرافية وقتلها ، وابراز الوجه لفظيم للتقدم الفكري في صورة دراسات لاهم النظريات الذهنية التي غيرت وجه الغرب ، واجزاء عديدة من الشرق نفسه .

اننا نحتاج ثورة على هذا الواقع الذي ينبض بالامكانيات ، ويحبل

بالقلق وحس التعجيل بالتطور ، وهذا الامر في ايدينا ، اذ لا تقل ارادتنا عن ارادة الغرب ولا تنقص ذرة ..

فلنعجل بهذه الثورة التي سوف تكون ابداعا وجوابا لنا ...

شكل حياتنا :

ان الفكر هو تتويج الوجود ، وكلما اتخذ الوجود لونا معينا ، اصطبغ الفكر به حالا ، بتأثير عاكس وسريع ، فالفكر هو الانسان الذي يعيش اعمق مما يعيش الاخرون ، وهو لذلك يعاني من هذا الانفتاح الواعي على قيمةالحياة ، وقيمة العمل ، وقيمة الياس .. ولا بد لنكسة ما، ان تترك في نظرته للعالم شكلها ورائحتها ، ولذلك نجد طعم فكرنا اليوم محتشدا بقلق عجيب ، مصدره هذا القلق في وجودنا ، الذي نهرب من تحديده وتاطيره ، فلا نحن نحزم امتعتنا ونرحل الى الغرب ، ولا نحن نصفي هذه الامتعة ونستخرج منها ما يصلح لنا في رحلة الوجود هذه المترعة بالالام ...

لا نحن نصير شرقيين اصلاء ، ولا نحن نتحول الى الغرب .. .

اننا نرفض المذاهب الحياتية الغربية بدعوى انها لا تمت الينا بصلة ، ولان ظروف حياتهم تختلف عن حياتنا ، وذلك صحيح الى أبعد درجات الصحة ..

ولكن : هل يصبح صحيحا ان نظرية ما ، عربية ، يمكن لها ان تغير حياتنا الان ، وفي هذه الظروف القاسية التي نعيشها .. ؟! أشك في ذلك جدا ، فقبل ان تكون هناك نظرية ، يجب ان تكون هناك ارض ... وارض ملائمة لظهور هذه النظرية . وارضنا عارية عن الاوليات التي تسمح بالانبات ..

فاول شروط الحياة هي الحرية ، وذلك معدوم ..

ثم ماالذي تؤديه النظرية في مثل هذه البلاد التي تحتاج اول ماتحتاج الى هواء نظيف تتنفسه .؟!

النظرية العربية في الوجود مطلوبة بشدة ، ولكن ، على ان يسبقها ، ويبشر بها ارادة عارمة تطالب وتؤكد الحرية الفكرية وتوجدها ..

ان الايمان بالعقل وبالاشتراكية وبالحرية ، لايعني سوى رفع مستوى الشعب العربي ماديا وفكريا ، وذلك يعني تحولا حياتيا باقصى درجة من الجذرية والقوة ، ولن يصبح العلم وقفا على بعض الاذهان الفردة ، كما كان في تاريخنا الوسيط ، بل سيضحى تيارا وحركة اكبر من ان تخمدها سلطة او مشيئة حاكم ..

*

والان ....

الى متى يظل الادب العربي كصورة لحياتنا ، خاضعا لالف عام من الصحراوية ومن القلق ؟ اننا نموت رعبا اذا فكرنا في ان تحولنا الى المادة يقتل ضميرنا الروحي ، ونموت رعبا اذا فكرنا باستمراريتنا في مانحن عليه من قنوط واحساس بالتاخر ..

واذن ، فما العمل ؟.

اذا نظرنا الى المشكلة بشكل عام وغير مسؤول ، اي كما لو كنا نتفرج على الهية مسلية ، فسوف نقول بان الامر هو امر نظرية تخطط لحياتنا وسلوكنا . وذلك يعني الموت الى ان تقوم للنظرية قائمة ..

واذا نظرنا اليها على انها عقبة في سبيلنا لابد ان تزول ، ووضعنا في الاعتبار ظروفنا ووضعنا الاقتصادي والنفسي والسياسي والاجتماعي وتطورنا الدرجي بحسب امكانياتنا ، وجدنا ان الامر يحتاج ، لا الى نظرية ، بل الى تمهيد للجو ، وذلك يعني ان نكون نحن جيل التحويل وجيل المغامرة ، وذلك يستتبع ان تكون معركتنا الاساسية ، معركة المفكرين ضد السلطة والتقاليد ، وسوف تنتقل هذه المعركة سريعا الى رجل الشارع ، فتصبح معركة وجودنا جميعا ، وفي هذه اللحظة تنبثق النظرية انبثاقا من هذه الارض التي ستحبل سريعا بالنقد والمناقشة ، وعرض كافة الاراء في سبيل الاصلاح ..

وسوف نجد بعد ذلك ان ادبنا ذاته يخوض معركة الوجود التي نخوضها ، ويبدأ خطواته العظيمة المنتظرة ، لدرجة انني اجرؤ على القول بان جمود ادبنا هو بسبب من رتابة حياتنا وتقليديتها .. وان ازهى عصورنا الادبية كانت انعكاسا لازهى عصورنا السياسية والتجارية.

واذن .. لنؤجل املنا في ادب عظيم وشعر خالد يكتبه ادباؤنا،مادامت الخطوة الاولى الهامة لم تخط بعد ، وما دام الجو مشبعا ما يزال بدخان الكراهية والفقر والظلم والتقييد ..

ولنلتفت الى اقرار اهم ما نطلب به ، ونحيا من اجل رؤيته يعيش ويتنفس جنبنا ، ثم يصحبنا في رحلة وجودنا الصعبة ..

لنلتفت الى اقرار حرية الفكر والاشتراكية والعقلية ..

ولن يعني ذلك ان نكف عن الترجمة ، وان نكف عن الكتابة والتاليف واستيراد النظريات النقدية الغربية ، واستخلاص النظريات النقدية الشرقية من براثن الاكفان ومحاولة تلوينها بلون عصرنا ..

بل يعني ان تكون هذه المعركة نصب اعيننا دائما ، كشرفنا الاول واخص همومنا .. ان الارض النظيفة تسمح بخروج كل شيء ، وما دامت ارضنا تعوم فيها المستنقعات والبرك والجرائيم ، وما دامت الروح الشرقية تعيش هذا القلق العجيب ، الذي لااسميه مرضا ، لانه بحث جدي وعميق عن الهداية وعن الحقيقة ، ما دام الامر هكذا ، لنعمق هذا التيار الخصب بترك كل العقول تفكر كيفما شاءت وكيفما ارادت ،ولن يتاتى ذلك التعميق ، ثم الوجود الجبري للنظرية الا في ظل حرية تسود هذه الارض ..

واذن فلتكن رسالتنا الشابة قبل : فلنترجم او فلنبدع او فلننقل او فلنلتفت الى تراثنا .. ليكن جوابنا شعارا ، قبل ان يكون هندسة منطقية مادام الشعار حماسيا الى درجة انه يوافق عواطفنا ..

ليكن جوابنا : حرية الفكر ، او الموت ..

القاهرة — محي الدين محمد



سـلمى

ـ تتمة المنشور على الصفحة ٤٠ ـ

واما هي فلقد استشهدت ، استشهدت وانتهت ..

واندلعت صرخة اخرى شيطانية تخر لها آلهة الوحشة ، وحشة الارض والعالم قبل الإنسان ، قبل سوط انسان ولحم انسان تحت السوط .

تشبث بي عاكف ، بحث عن عيني ، وقف هناك :

ـ صديقي .. وددت لواكون مكانك .. ولكنني ساقول لك كيف تبدو لي هذه الازمة .. ازمتنا جميعا .. سلمى تتحول تدريجيا يا صديقي من مجرد انسان عادي عابر ، الى رمز .. ارى من خلاله الامة بكاملها .. انها تحتمل كل ذنوب اعدائها لكي تدفع بنا وبامثالنا الى خلق مصيرها الحقيقي .. سلمى لم تعد حبيبتك وحدها ، لم تعد فتاة سمراء مناضلة من اعماق العراق البائس .. سلمى تصنع لنا معجزتنا .. سـلمى ..

وصرخ عبد القادر :

ـ اصمت ايها الثرثار .. دعنا نصغي بصمت اليها وحدها ...

وكانت آهتها .. تتجاوب اصداؤها في انحاء القبو كله،لم تكن تضعف، ولكنها تشتد وتتضح . ليست عذابا . انها تحد ، تحد كامل ، للوحوش كل الوحوش ، انى اختباوا في انحاء الارض .. الوحوش الذين يحفرون التراب تحت الانسان ، يحيلون ارضه كلها الى قبور مستترة ببراقع



الديانات الحديثة ، المبادىء الحمراء .. هذا التهجين المسعور لكل الحقائق البسيطة في ضمائر البشرية .

ودوت الصرخة والصرخة والصرخة . والرجال محشورون وغضبهم في جحر تحت التراب الكثيف الرطب .

وراحت كلمات رتيبة عارية من اي معنى ، تنصب من فم عبد القادر وهو مطرق الى الارض :

ـ كفى .. كفى .. كفى . يضربون البسالة المكبلة .. كفى بحق الابالسة . يحاصرون الجسد النحيل الخمري .. كفى .. كفى .! ما هذه السعادة الشيطانية التي تغمر الجلادين وقت الذبح ..

ويقول فيصل :

ـ الجسد هو الذي يصيح .. واما هي .. سلمى فآلامها بدون صوت ..

والتفت الي :

ـ مجيد هل تعتقد بانها في حاجة الينا هذه الساعة .. هل يمكن ان تغفر لنا فيما بعد ..

ـ اوه .. هذا وقت لا غفران فيه ولا اله له .. وقت قفر من القيم .. من الاخرين . الا هذه الصرخة المندلعة من اعماق الاقبية كلسان جديد ، يتحدث بلغةلاقاموس لها .. سلمى الان لا شيء ..

واندلق الشاعر بعاطفة لزجة :

ـ ماذا تقول .! اجننت ، سلمى لا شيء .؟

ـ نعم ايها الاحمق ..! انها لا شيء .. هل تستطيع انت مثلا ان تقول عنها اية صفة الان ، لفظة ، اية قيمة مما اعتاد انساننا الحقير بسالة ، الحالم بجرأة اللص يسترق السعادات التافهة من كوى السماء المطبقة علية كقبة من الرصاص المبرقش بلمعات باردة .. هي كل نوافذ حلمه الجبان ..

وغلفت السذاجة الواهمة سيل كلماته :

ـ اتعني انها انسان جديد .. اتكون هي العالم المجهول الذي نناضل من اجل .. آه .. احسب انها عذراء مسيحية اخرى .. انها كنيسة التضحية الكاملة .. ترى كيف سيكون اتباعها .. من هم العبيد الجدد للديانة الجديدة . .

وقبل ان اجيب هذا الصوت قليلا ، ثم سمعنا خبط اقدام على حجر الممر الضيق . فتح الباب . امتدت يد . جذبتني من قميصي . جررت في الممرات .

قذفت اليد بي الى وسط غرفة . نظرت حولي ، فاذا بي محاصر من الطواغيت وقد تحلقوا حولي ، واسقطوا الضوء على وجهي اينما حولت وجهي ولكنني كنت ارى اشباح قاماتهم ، وبريق عيونهم ، ولمعان اسنان بعضهم .. تقدم مني احدهم ، اطل علي بوجه دائري معمى الملامح. ولكن كانت له شفتان غليظتان تتحركان باستمرار ولما وعيت على كلامه كان قد قطع شاوا عظيما في هذره :

ـ سنشوه وجوها اتسمع ، سنشوه وجهها ، حاول ان تتصور اللحم الاحمر المزق المكوم في جهات ، السائل من جهات اخرى .. في وجه زوجتك .. زوجة المستقبل .. واذا لم ترجع عن عنادك انت واصحابك سوف نحيلها الى .. انت تعلم طبعا ، لدينا رجال كثر هنا بدون نساء ..

ـ وماذا تريدون منا ؟

ـ ان تعترفوا بانكم حاولتم قتل الزعيم .. وانكم مدفوعون من قبل الجمهورية العربية المتحدة ..

ـ حسنا .! واذا فعلنا هل سيصدقكم الشعب ، هل سيصدقكم العالم الذي يتداول اخبار وحشيتكم كأساطير القرون المظلمة ..

ـ نحن نعلم ماذا نفعل .. نحن شيوعيون ، نحن مثقفون .. نحن سنقود العالم .. ولو اقتضى الامر ان يموت نصف العالم ... نحن علماء سنزرع البشر ونولد المجتمعات كما نريد .. الافراد لا قيمة لهم .. العالم .. العالم هو هدفنا ..

وصحت به :

ـ اذن ثق يا صديقي انكم قبل ان تخرجوا الى العالم ستنالون حتفكم هنا في الصحراء .. وبيد سمراء عربية .. الامة العربية هي التي قدر لها ان تفضح زيف العالم .. وانتم اكبر مهرجي الزيف .. لقد جرتكم حماقتكم الى ارضنا هذه .. وهنا تحت شمسنا اللاهبة ستتبخر الجمودية التي زحفتم بها من الشمال .. وبعد فالعالم سيعرف ان العرب قد كشفوا قناعكم الاخير ، فاذا بكم ورثة الاستعمار بافظع ادوات الاستعمار .. القتل الجماعي .. الإبادة القومية الكاملة ...

وصاح صوت :

ـ لا تقربوه . ستنال حبيبته نصيبه ..

وصاح صوت اخر :

ـ لاخر مرة قل انكم قتلتم باسم عبد الناصر ..

ـ عبد الناصر لا يتآمر .. عبد الناصر ونحن لا نتآمر ضد الحشرات .. اننا نسحقها بنعالنا سحقا . ليس القتل من شريعتنا ايها الجلادون .. ان زعيمكم مقتول كل لحظة ، وانتم ميتون كل لحظة .. ولا حاجة للابطال ان يدنسوا سيوفهم بدمائكم السوداء ..

ـ سنشوه وجه حبيبتك .. سنهرق (الشرف العربي) .. سنلقي بها الى الرجال ..

ـ افعلوا بجسد سلمى ما تشاؤون .. واما سلمى الحقيقية فقد تحررت من اغلالكم .. خرجت من حمأة دمائكم السوداء .. انها الان تسكن في كل قلب عربي .. فلن تنالوا منها شيئا بعد اليوم ..

وصاح صوت :

ـ انت مثالي اجوف .. نحن نعذب جسد حبيبتك ، نشوه وجه حبيبتك ، نستبيح عرض حبيبتك .. انفهم .. أتفهم ..

ـ نعم انني افهم .. افهم امرا واحد .. انكم لا تفعلون ذلك بها الا لان سلمى لم تعد بين ايديكم ..

*

حذار يا صديقي يا مجيد ، انك تحتك بالاحجار الكالحة اكثر مما ينبغي . انها تمتص منك حرارتك . ستصبح حجرا عما قريب . والفجر لن يطلع بعد هذا المساء ، انه معلق في اعلى القبة الرصاصية . لن يهبط على الارض . لقدعم الدنس الارض . والهوام بدون قوام وشكل، نفرت من الثقوب ، وملأت اديم البساتين والشوارع . وعششت في لحى الرجال وشواربهم . وفيصل العملاق بالقرب منك ما زال يزحم الجدار بمنكبيه العريضين دون جدوى. والشاعر ذاهل كعادته . انه يبني جناحا من طين هذه المرة . وعبد القادر يظل ينتفض كقلب حي دائما ولو في جوف هذا الصدر .. القبو الاسود الصقيعي.

وسلمى لم تعد تتابع الصرخات . لقد تلاشى صدى اخر صرخاتها من زمن طويل . ان الليل يضم الان آفاق الصدى . ينقله الى جوانب القبة الرصاصية . حيث سيظل هناك يرن يرن .. ثم يتهاوى ثانية الى الارض ، مواطن الهه الحقيقي .

وعندما راح يشرق مطلع النور الرمادي على كوات السجن ، كان فيصل يهز الشاعر :

ـ عاكف .. عاكف .. ماذا عراك .. قم يا اخي .. اغلق عينيك ... يا الله .. ما هذه الصفرة .

وعندما فتح السجان باب الزنزانة خرج ركب من نوع غريب . كان هناك في المقدمة عملاق ، يرتدي قميصا ممزقا عن نصف صدره وظهره . وكان وراءه شابان يوقعان على حجر الممر خطوات متمهلة عميقة ..

كان على ذراعي العملاق مسجى الشاب النحيل ..

كان الشاعر على يدي العملاق .

كانت عيون الطواغيت خلف الجدران السميكة تتسلح بالظلمة والحجر. ومع ذلك كانت تشهد ركب الشاعر الميت مع طلائع النور الرمادي في الفجر .

كان الشاعر على يدي العملاق .. ووهج النور الرمادي يطبق على الممرات الضيقة شيئا فشيئا .

دمشق — مطاع صفدي

الخائن

ـ تتمة المنشور على الصفحة ٢٢ ـ

تلك الخطة المحكمة كانت علي ان المظاهرة التي ستقوم في الغد هي مظاهرة سلمية حقا ، قد اوعزت بها سرا سلطات الثورة المسؤولة وكلفت بها نفرا من المواطنين الشرفاء على ان تكون شعاراتهاالى جانب الولاءللثورة استنكار بوادر الاباحية في الاخلاق ومظاهر الانفلات في السلوك والتحديات الوقحة التي بدأ بعض المتطرفين بتوجيهها الى العقائد الاصيلة في الامة والى المثل العليا التي نادت بها الثورة بقوة يوم اعلانها . هكذا ستقوم المظاهرة السلمية في الغد بايعازه ولو انه ايعاز سري ، من سلطات ثورتنا المباركة . ولكن ثمة ايعازا اخر من هذه السلطات نفسها الى اخرين ليقفوا في وجه المظاهرة السلمية هذه بمظاهرة مثلها .. ولكن غير سلمية .. فهم سيحملون بدل الشعارات المكتوبة اسلحة ماضية وحبالا للخنق واعمدة للشنق معدة كلها لاعداء التطرف في الثورة الذين يمشون في المظاهرة السلمية . وواجبي الواضح الهين يبدأ حين تلتقي المظاهرتان ، وهو اوضح واهون مما كنت اتصوره ، فهو ينحصر في ان اترك لحاملي الاسلحة والاعمدة والحبال حرية التصرف فاذا اتموا مهمتهم اتممت اداء واجبي في تطويق دور بعينها يقطنها رجال بعينهم متهمون بانهم هم الذين اثاروا العصيان وهيأوا التمرد وتسببوا في المجزرة . ذلك انه ستكون في الغد مجزرة ولا شك ، يموت فيها ابناء الشعب لتحيا ثورة الشعب .. فثورة الشعب لا تحيا اذا لم تتغذ بدماء ابنائه ! وأنا، انا الذي يؤمن بالثورة وبالوطن وبالشعب ، سيكون لي الفخر بان احمي هذه المجزرة المشرفة في الغد وان اتم فصولها باعتقال رجال موصومين بالتنكر لثورة الشعب وأن أسلم هؤلاء الرجال الى حاملي ادوات الشنق والخنق والتقطيع !... يا له من غد مشرق سيكون بالنسبة لي يوما عظيما يرفع رأسي ويرضي ضميري ويفتح لي بوابة مستقبل رائع ...

وانطلقت في الصباح التالي آلة الخطة المبيتة دقيقة في توقيتها واحكامها . ورأيت بعيني كيف اقبلت جموع الناس المسالمين يرفعون علم الثورة ووراءه لافتات تستنكر الافراط في الاباحية والتحلل والتحدي الوقح وتدعو الى ان تظل شعلة الثورة متقدة بنور الحرية والعزة للوطن والكرامة للشعب الذي يعيش على ارض الوطن . كانت الشعارات التي تنادي بها المظاهرة هي الشعارات التي تحمل من نفسي اعماق اعماقها، وكان الناس الذين يقولون بها هم اخواني وأبناء عمي الذين ترتد اصولهم الى الارومة التي منها اصلي ، في قلوبهم الاخلاص وفي نفوسهم الخير وعلى السنتهم الصدق والصراحة . وكنت احيط مظاهرتهم بجنودي وهم مطمئنون الى انّ هؤلاء الجنود هم اخوانهم وابناؤهم والى ان الاسلحة التي يحملونها انما يحملونها لحمايتهم وحماية مقدساتهم . غير اني انا قائد الجنود كنت اعلم من الخطة ما لا يعلمه المتظاهرون وانتظر مرور الدقائق التي ستبرز بعدها في عطفة الساحة الكائنة في اخر الشارع الرئيسي جموع اهل الاعمدة والحبال والسواطير لاسبغ حمايتي على المجزرة التي توشك ان تقع ويقع ضحيتها هؤلاء المسالمون المخدوعون. اليس هو واجبي الواضح الهين ؟ حتى تلك الدقائق التي سبقت المجزرة كان طعم قبل سلمى لا يزال على شفتي ولهاث انفاسها لايزال يلفح وجهي كأنها لا تزال تتململ بين ذراعي في وجد واشتهاء ، وكذلك افكاري كانت لا تزال مأخوذة باقوال سلمى وبحججها وتفاصيل خططها . فكنت في مركز قيادتي اسجل مرور الدقائق واحدة بعد اخرى وفي كل دقيقة كنت انفذ جزء الخطة الذي يخصها والذي يوصلها الى الخاتمة المؤكدة المبتغاة : تذبيح ابناء الشعب اتهام فريق محكوم عليهم مسبقا بانهم الذين خانوا الشعب وتآمروا على مستقبله ومصيره ..

وفي الدقيقة المعينة المعروف موقعها بالتأكيد في توقيت الخطة برز اهل الحبال والاعمدة والسواطير من عطفة الساحة التي تقع اخر الشارع الرئيسي يحملون العلم الاحمر وفي أعينهم الهياج الاحمر وفي حلوقهم صرخات الحنق الارجوانية . فترددت جموع المظاهرة السلمية عن التقدم بخطاها الهادئة ثم لم يلبث مئات افرادها ان تجمعوا متقاربين كقطيع غنم هاجمته جماعة ذئاب ، وتحولت أعينهم الى فصائل جنودي المسلحين الذين كانوا يحملون اسلحتهم مشرعة في أنتظار أوامري . ولكن جماعة الذئاب كانت تعلم أن اوامري لن تطلق ضدها ، فاندفع أفرادها يجرون حبالهم واعمدتهم ويلوحون بسواطيرهم نحو اللحم الادمي الذي



وقف مكوما امامهم . حينذاك ، كما تنجاب عصابة كثيفة عن ناظر معصوب العينين ، سقط الحجاب الغليظ الذي كان يحجب عن بصيرتي النور والحق . لهاث انفاس سلمى اصبح فحيحا ومعسول طعم شفتيها انقلب في لهاتي سما زعافا ، وتبينت في تلك اللحظة ان تلوي قد سلمى المثير في حضني ما كان الا كتخاذل دليلة بين ذراعي شمشون لتستذله وتستعبده . تلاشى سحر سلمى امام منظر الذئاب الشرسة التي حددت انيابها لتمزق القيم السامية التي ربيت على تقديسها واسترخصت في كل يوم بقائي في فدائها . تبينت في تلك اللحظات الى اين انتهى الفرق الضئيل الذي بدأ بيني وبين سلمى ، انا في ايماني الصحيح بالوطن وهي في ما تدعي زيفا بانه ايمان بالشعب . انا في ايثاري سبيل التضحية حتى الفداء لبلوغ الغاية الكريمة وهي في سلوكها طريق الغدر وتبريرها الوسائل الدنيئة بالغايات البعيدة . حينذاك ، حين سقط الحجاب الغليظ عن بصيرتي ، اصدرت امري صريحا ومباشرا الى الوحدة التي كانت ترابط عند منعطف الساحة . فانطلقت رشاشاتها تحصد جماعة الذئاب وتنثر على الارض اعمدتها وحبالها وسواطيرها .. نعم ، لقد جرى ذلك بامري انا . وها انا الان اقف امام محكمتكم وبهمتي اني خائن للثورة . اية ثورة هذه التي خنتها ؟ انها ليست الثورة الحقة التي افديها بدمي ... بل ربما كانت تلك التي اسموها سفاها ثورة الشعب .

سيدي الرئيس ، سادتي الاعضاء

طلب محامي منكم الرحمة لي . والذي اعتقده انا اني لن اجد في قلوبكم رحمة . لا تحسبوا اني اعيبكم بهذا ولكني اعرف انكم عسكريون والرحمة في عرف العسكري وفي موضع الواجب ضعف . انا شخصيا لم ارحم اولئك الذين انقلبوا على الثورة المقدسة فحولوها الى اداة استثمار مادية وربقة يجرون الشعب بها الى التبعية ، فاطلقت رصاص رشاشاتي في صدورهم وصبغت الارض من دمهم . وانا الان غير نادم على اني فعلت ما فعلت . لذلك فان رحمتكم بي ، لو حدثتكم انفسكم بها ، ستكون في غير موضعها . امس ، حين قررت ان اتكلم اليوم فانفض بين ايديكم حقائقي الصغيرة ، امس سألت نفسي ما الذي اكسبه من رحمتكم ؟.. انا شاب في عنفوان الشباب ، احب الحياة ومفاتنها حبا عارما ، ولكن هل خلد حب الحياة احدا في الحياة؟ ان الذين لن يعدموا رميا بالرصاص او يشنقوا بطلب من النائب العام العسكري او الذين لن يعلقوا على اعمدة التلفون او يقطعوا بالسواطير بايدي جماهير الغوغاء المثارة سيموتون حتما حتف انوفهم او في حوادث السيارات او القطارات، ويذهبون كلهم وما قضى واحد منهم مأربه من الحياة . تخيلت لنفسي امس انكم برأتموني واني خرجت من هذه القاعة حرا طليقا ضاما الى سلمى حبيبتي بذراعي ، فقلت لنفسي ماقيمة الحياة احياها بعد الان ؟ ستمر علي الاعوام متتابعة تزيد من تعلقي بالدنيا وتنقص من قدرتي على التمتع بها الى ان انطفيء كما ينطفيء سراج نفد زيته . ستكون سلمى ، التي اعترفت امامكم انها لا تزال تحبني ، الى جانبي .. ولكن ما قيمة سلمى بعد الان ؟ انها ستكون لي جسدا بلا روح .. روحها تضاءلت حتى التلاشي حين تنكرت للقيم السامية التي كنا نؤمن بها معا . اما جسدها فلن يكون الا كأحد اجساد نساء كثيرات عرفتهن في عنفوان فتوتي ، يزول سحرها بزوال جدتها وازدياد الفتها . لا ...احب الي أن افارق الحياة وانا في ذروة القدرة على التمتع بها . كل النفوس الكبيرة لم تجد في العمر الطويل الا الاسى ، بل انها وجدت الذل احيانا. تحسر خالد بن الوليد متألما من موته على فراشه كما يموت العير . وكان اعز لنابليون لو قتل على جسر آركول او في معركة مارنغو قبل ان يذوق الهزيمة في سباسب روسيا او الذل على يد هدسون لو في سنت هيلانه. اني كعسكري لا ارى احسن فعلا من ميتةالاسكندر الاكبر في الثالثة والثلاثين من عمره وفي اقصى غايات نفسه ، في بابل بعد عودته من الهند البعيدة . وانا الان على ضآلة شاني ارى نفسي واقفا في اقصى غايات نفسي وعلى ذروة مآربي ، متهما بخيانة انا شديد الفخر بها . كان يمكن ان اموت في الثورة حين نشبت فاكون فداء لمولدها ، ولكني اموت الان لاني حاولت نفخ النار في شعلتها وتنقية نور الشعلة من الدخان والرماد والارجاس . لاكون صادقا لو قلت اني اكره الحياة ، فان قوى الحياة لا تزال تتفجر في شراييني وتلتهب ثائرة في اعصابي ، ولكن ما نفع الاسى ؟! .. اعود فاقول ان حب الحياة لم يخلد احدا في الحياة . فاحكموا علي بما شئتم ، فاني برغم الاسى طيب النفس مستريح الضمير .»

وبهذه الكلمات اتم المتهم دفاعه عن نفسه تاركا لقضاته ان يعودوا الى انفسهم وضمائرهم قبل ان يصدروا عليه حكمهم . ولم يتأخر هذا الحكم طويلا عن الصدور . وكان حكما بسيطا قاطعا ، يقضي برمي المتهم بالرصاص ، وحتى الموت .

عبد السلام العجيلي



الشعر الثوري في الادب المعاصر

ـ تتمة المنشور على الصفحة ١٧ ـ

الاستعمار . ثم هجوم الجنود ومعهم العمدة لتفتيش بيت الشاعر (١) وكان اذ ذاك طفلا . وفي خلال ذلك يصور خوفه وخوف امه ، وترقبهما وقلقهما ، الى ان ياتي الجنود ومعهم العمدة ويسألوها عن زوجها فتنكر معرفتها لمكانه ، فاذا بهم يطلقون عليها الرصاص ثم يشنون بحرق القرية كلها .

ان الشاعر يتدرج بنا من وصف الخوف والقلق في واقعية انسانية مرهفة :

واذا ما اصطدمت رجلي.. بصندوق الثياب
قفزت امي من النوم ... وهبت في ارتياب
من يدق الباب ؟ قد صاحت ولم تسمع جواب
وهوت قربي في حزن وبؤس واضطراب

ثم يتدرج بنا من هذا الوصف الى حوار حي مؤثر بين الام والعمدة الذي يعطف عليهم لانه منهم وان كان مضطرا الى ان يحضر مع الجند ليسأل عن الزوج الهارب . واخيرا يبلغ بنا القمة حين يصور مقتل الام ورعب الطفل المسكين في كلمات بسيطة ولكنها مشحونة بالعاطفة التي تهز القلب :

ومشى الجند ... مشوا من فوق امي
وانا اصرخ من رعب ومن بؤس ملم
وتكاد الخيل ان تدفن فوق الدرب جسمي
غير ان العمدة المسكين يحميني ويهتز ليتمي

ثم يلمس قلوبنا ويعمق فيها الجراح عندما يجري هذا الحوار الساذج المؤثر بتساؤله المتتابع بين الطفل والعمدة بعد ان امر الجند بحرق القرية :

عم يا عمدة ـ ماذا كان ـ عمي ذنبنا ؟
ولماذا قرروا ان يحرقوا ابياتنا
أترى تعرف ياعم ، اتدري جرمنا ؟
ام ترى تجهل ما بيتنه الظلم لنا ؟

ثم يردف ذلك برؤية اهل القرية لقريتهم تحترق ، ولرؤيته هو لبيته يشتعل ، ثم معرفته ان اباه قد مات شهيدا في كفاحه ضد المستعمرين .

عندئذ يستطيع الشاعر وقد حفر اللوحة المؤثرة في قلوبنا ان ينقلنا من الصور الانسانية الجزئية الحية الى الهدف الثوري المجرد ، فيثير في قلوبنا السخط والثورة على المعتدين :

من هنا قد بدات ماساة عمري
بدات قصة آلامي واحقادي وثاري
من هنا قدشبت النيران في اعماق صدري
وتعلمت لماذا حفر الجلاد قبري

. . . .

لن ينام الثار في صدري وان طال مداه
لا .. ولن يهدأ في روحي وفي قلبي لظاه
صوت امي لم يزل في مسمع الدنيا صداه
وابي ما زال في سمعي وفي روحي نداه
ان تقدم ثابت الخطو الى الحق تقدم
وتقحم حالك الاهوال للثار تقحم
سوف تطويك الليالي السود ان لم تتعلم
كيف تطفي غلة الثار بنيران ودم

اما رائعته الاخرى فهي قصيدة « مع الغرباء » ، وهي ليست قصة بالمعنى الكامل ، بل هي حوار بين فتاة لاجئة وابيها ، بل هي مجرد اسئلة متتالية بسيطة مؤثرة ، تلقيها الفتاة على ابيها ، وتنتهي دائما بذلك السؤال المؤلم المحير :

لماذا نحن يا ابتي ؟
لماذا نحن اغراب

تسأل عن امها التي ماتت بسبب النكبة وعن اخيها الذي استشهد وعن صاحبتها التي اسقمتها الايام ، تساله لماذا هم تائهون بلا بيت ولا سكن ، وتساله :

ابي	ادخل غرفتي قل لي
قل لي بحق الله	ادخلها باحلامي
وهل ناتي الى يافا	وتسمع وقع اقدامي
فان خيالها المحبوب	والقاها وتلقاني
في عيني قد طافا	ادخلها بهذا القلب
اندخلها اعزاء	هذا المدنف الظامي الخ.
برغم الدهر اشرافا	

وبعد ان تشعل نفس ابيها ونفوسنا بهذا التساؤل المر عن كل الاشياء الصغيرة الحبيبة ، وتحملها الى قمة الانفعال اذ بالاب يجيب عنا وعن نفسه :

فيصرخ سوف نرجعه
سنرجع ذلك الوطنا
فلن نرضى له بدلا
ولن نرضى له ثمنا الخ ..

على ان ما يمس نفوسنا في هذا الديوان غير هاتين القصيدتين ويقرب منهما في الروعة هي القصائد التي خرجت عن الاسلوب التقريري المطروق واتخذت سبيلا اقرب الى القصص على هيئة حديث او مناجاة مثل « احزان لاجئة » (١) «ومن الحياة » (٢) ، ذلك ان الاسلوب التقريري كثيرا ما يدفع الى التقليد لان تراثنا كله من هذا اللون ، والقارىء لالفته له لا يرى المعنى الحسي الكائن في الالفاظ ، ذلك الذي يعطيها قدرتها على التلوين وعلى صدم الاحساس بالصور الفخمة ، بل لا يحس منها غير المعنى العقلي المجرد الذي آلت اليه بطول الاستعمال ، ولذلك يضعف اثره في النفس . اما الاسلوب القصصي فهو يعطينا صورا جزئية بسيطة لا تزويق فيها ، ولكن تتابعها نفسه لا يلبث ان يكون صورة كلية تهز اعماقنا هزا .

وكما تفعل القصة النثرية احيانا ، كذلك يفعل الشاعر بان يبدأ قصته من نهايتها او من قمتها ليصدمنا بها ، ثمّ يعود الى سرد القصة ليخلص في النهاية الى الهدف الثوري في سطر او سطرين . وذلك مثل قصة

(١) طبعا من الجائز ان هذه القصة ليست قصة الشاعر الشخصية ولكنه تقمص شخصية البطل مما يجعلها افعل في النفس

(١) ص ٣٣ من ديوان « مع الغرباء »

(٢) ص ١٢٠ من ديوان « مع الغرباء »

« شنق زهران » لصلاح عبد الصبور ، وهي قمة اخرى من قمم الشعر المعاصر . اذ يبدأها بقوله :

وثري في جبهة الارض الضياء
ومشى الحزن الى الاكواخ تنين له الف ذراع
كل دهليـــز ذراع
من اذان الظهر حتى الليل .. يا لله
فــي نصــف نهــار
كل هذي المحـن الصمـاء فـي نصـف نهـار
مذ تـــدلى رأس زهـــران الوديـــع »

ثم يعود الشاعر ليصف زهران وفرحته بالحياة وحبه وزواجه فـي اسلوب بسيط مليء بالعصير الشعبي تخالطه رموز مرهفة ، ثم ينتهـي اخيرا الى الهدف :

قريتي من يومها لم تأتدم الا الدمــوع
قريتي من يومها تأوي الــى الركـن الصديــع
قريتــي مـن يومهـــا تخشـــى الحيــاة
كــان زهـــران صديقــا للحيـــاة
مــات زهـــران وعينـــاه حيـــاة
فلماذا قريتـــي تخشـــى الحيـــاة ؟

ولكن الشعر الثوري اليوم لم يعد قاصـرا على الاقليمية الضيقـة فما يحدث في جانب من جوانب الوطن العربي يهز جوانبه جميعا ، فـلا نكاد نجد اليوم ديوانا غربيا خاليا من معارك الكفاح ضد الاستعمار فـي كل جانب من جوانب الوطن العربي ، مبشرا بالنصر الشامل . فقضيـة فلسطين والجزائر ، ومعـارك العراق والقنـاة ، كـل ذلـك كـان موضوعا لشعر شعراء من كافة البلاد العربية .

على ان الشعر القومي العربي اذا كان قد سكن بعد حين من الثـورة العربية الكبرى في اعقاب الحرب العالمية الاولى بعـد ان تمزقت البلاد العربية بين المستعمرين وحكمها حكام ممالئون للاستعمار ، الا ان نكبـة فلسطين قد حركت النفوس التي كانت قد خمد اوارها ووجهت الاذهـان والقلوب نحو الفكرة العربية الشاملة . لقد شغل ابناء كل اقليم بمكافحة المستعمرين في اقليمهم بل بمحاربة الحكام الخونة الممثلين لهم ، والذيـن يتستر خلفهم المستعمرون ، ولكن لا يكاد الشعب في احد الاقاليم يخلص من احد معاركه حتى يتلفت حوله ليرى ما حل بالاجزاء الاخرى من الوطن العربي يساندها ويؤيدها ويشد من أزرها لتجتاز محنها .

وها هو سليمان العيسى في ديوانه الاول « مع الفجر » يقول فـي قصيدة « نفحة من أمية » (١) المكتوبة سنة ٤٧ يخاطب سوريا ، وقد تم جلاء المستعمرين عنها منذ يومين ، ويحملها مسئولية الكفاح حتى يتم تحرر بقية اجزاء الوطن العربي :

هذه امتـي تحـرق للفجـر	وتغلى في صدرهـا انـــواء
أتنامين يا دمشق عن الثـأر	ايرضى لك الهوى والوفـاء
أسكـوت ودجلـة تتلظـى	ويد البغـي فوقهـا حمـراء

امس لبت على استغاثاتك المـوت لدن اظلمت وعز الفـداء

أفرار ومصر لم تدفن القتلـى	ولما تجـف فيهـا الدمـاء
أتلذين سلـوة ؟ وفلسطيـن علـى	كـل مخلـب اشـلاء

لا اقول « اللواء » (٢) ما كان يوما غير جرح من الجروح اللـواء

(١) ص ٧٥ ديوان « مع الفجر »
(٢) لواء الاسكندرون السليب وطن الشاعر

هذا هو احساس الشاعر في ديوانه الاول ، الذي جاء اكثر شعره عاطفيا وجدانيا خالصا بحكم فترة الشباب الاولى . ولكن الابيـات التي وردت تعبر عن الروح القومية الشاملة ستسيطر على شعـره فيما بعد ، وعلى شعر اكثر الشعراء المعاصرين . وديوان « عائدون » ليوسف الخطيب خير معبر عن تلك الروح ، خصوصا في قصائـد « نفير البعث » المهداة الى الرئيس جمال عبد الناصر اثر تأميم القناة ، وقصيدة « فجر البعث والانسان » ، ففيهما يقرن بين معارك الوطن العربي بكـل اقاليمه المختلفة في نغم ثائر عاصف مليء بالكفاح . وقصيدته « المغاوير » من اروع نماذج الشعر الخطابي الثائر ، وفيها يتحدث عن الرجال الذين حملوا بيمينهم رسالة الكفاح ويصف اقدامهم بأنه :

كاندلاع اللهـب من جذوة الشمس	ففـي كل حدقتيـن شـهاب
والجباه الصلاب في ملعب الريح	كما تشمـخ الجبـال الصـلاب
يتقطبـن بالمشيئـة والعـــزم	سـطورا لم يشتملهـا كتـاب
والصدور الشداد يلطمها المـوج	فيرتـد وهـو منهـا حبـاب

. . . .

لمن الشعب تلك راياتـه الحمـر	على الافق والحديـد المـذاب
لمن الشعب هائجــا يتلظـى	لمـن الحرب والطبـول الغضـاب
ايها الغانمون اسـلاب قومـي	ان مـن اجلكـم تسـن الحـراب
ان هذا عتابنـا ، منجـل الثأر	فهيهـات لـن يـرق العتـاب

واظنني لست بحاجة الى الحديث عن روعة الصور ولا عن الالفـاظ المشحونة بروح الثورة والكفاح. وان كانت للشاعر قصائد اخرى في بعض اجزائها نغمات اليفة بسيطة هامسة مثـــل « اغان من فلسطين » و « العندليب المهاجر » .

على اننا نلاحظ في ديوان « أعاصير في السلاسل » لسليمان العيسى، وهو الديوان الثاني للشاعر ، ان المشكلة الداخلية تسيطر على اكثر قصائده وهذا امر طبيعي ، لان التخلص من الحكام الخونة المستبدين هو الطريـق الى الاستقلال الحق ، والى الخروج من المجال المحلي الضيق الـــى المجال العربي العام ثم الانساني . ولذلك نرى العيسى في ديوانيه التاليين «رمال عطشى » ثم « قصائد عربية » صيحة عربية خالصة تمتزج فيهـا احداث الامة العربية قاطبة .

وأظنني لست بحاجة الى ان اشير الى كل القصائد التي قيلت علـى الصعيد العربي العام ، فالكثير منها قد نشر في الاداب ، وكيف انها خلقته ملاحم واساطير حول جميلة (١) رمـز الثورة الجزائرية وحول معركـة القناة (٢) التي كانت بلا شك معركة العرب والعروبة وحول غيرها مـن معارك الوطن العربي الكبير . وان كنت احب ان اشير الى صورة جديـدة من صور القصيدة العربية وهي صورة الرسائل وذلك في قصيدة نـزار قباني « رسائل جندي مصري في جبهة السويس . »

على أن الشعر الثوري لم يزل يتسع مجاله في ضمير الشعراء العرب حتى اصبح يشمل مجالا اوسع من المجال العربي الخالص . فديـوان « اغاني افريقيا » للفيتوري ليس الا دعوة للبعث الافريقي ، ونخره في جنب شعوب افريقيا لتصحو وتثور ، وتأخذ مكانها في التاريخ :

افريقيـا افريقيـا استيقظـي	استيقظـي من حلمك الاسـود
قد طالما نمـت ألـم تسأمـي	ألـم تملـي قـدم السـيـد

. . . .

فويك ان لم تخفنـي صرختـي	زاحفـة مـن ظلمة الهاويـة
عاصفـة بالابيض المعتـدي	عليك يا افريقيـا الغاليـة

(١) عدد نيسان سنة ٥٨
(٢) عدد ديسمبر سنة ٥٦ ويناير وفبراير سنة ٥٧ — وغيرها

ان امثال هذه القصيدة (١) ، وقصيدة « ثورة قارة » المكتوبة سنة ٥٣ ليست الا نبوءة بالمد الثوري الذي سيجتاح البلاد الافريقية . ففي ذلك الوقت لم يكن قد تحرك في قلب افريقية سوى كينيا بقيام ثورة الماوماو . ولكن الشاعر باستلهامه للقوى الكامنة في نفوس الشعوب، وباستشرافه للمستقبل ، اصبح يرى الحقيقة قبل ان تتحقق . ولعل ثورة يوليه سنة ٥٢ المصرية قد اعادت الثقة في نفوس الشعوب المستضعفة وحددت الطريق الى المستقبل ، طريق الكفاح لاستخلاص الحقوق ، فاحست هي ودول اسيا الحديثة العهد بالاستقلال بما بينها من روابط ومشاركة مما ادى الى عقد مؤتمر باندونج ثم تكوين المؤتمر الاسيوي الافريقي ، ثم استقلال بعض بلاد افريقيا مثل غانا وغينيا ثم عقد مؤتمر اكرا وغيره من المؤتمرات ، ولعل قصيدة « أغاني افريقيا » التي كتبت سنة ١٩٥٢ تعبر عن تلك الشعلة التي بعثتها الثورة المصرية . وهذه القصيدة مطلعها :

يا اخي في الشرق في كل سكن ... يا اخي في الارض في كل وطن
أنا ادعوك فهل تعرفني ... يا أخا اعرفه رغم المحن

ثم يقول مشيرا الى الثورة المصرية :

الملايين أفاقت من كراها ... ما تراها ملأ الافق صداها
خرجت تبحث عن تاريخها ... بعد ان تاهت على الارض وتاها
حملت أفؤسها وانحدرت ... من روابيها واغوار قراها
فانظر الاصرار في أعينها ... وصباح البعث يجتاح الجباها
يا اخي في كل ارض عريت ... من ضياها وتغطت بدجاها
قم تحرر من توابيت الاسى ... لست اعجوبتها او موميـاها
انطلق فوق ضحاها ومساها ... يا اخي قد اصبح الشعب الها

ومن هذا الوتر نفسه تنطلق بعض قصائد ديوان « الطين والاظافر » لمحي الدين فارس مثل قصيدة « افريقيا لنا » و « اغنية على لسان راع افريقي » بل انه ليطلق صيحة الفرح بالتقاء اسيا وافريقيا في قصيدة « باندونج »(٢) :

وانتفضت افريقيا يوما ... وانتفضت آسيا المقهورة
لتحطم تابوت سنين ... كانت اغنية مكرورة
آسيا الصفراء لقد غسلت ... عار الايام المهدورة
وكذلك افريقيا السوداء ... ستمحو تلك الاسطورة
واذا باندونج بأذرعها ... باقات صباح منضورة
فقلوب تهفو لقلوب ... ستغني ملء المعمورة

لقد كان الاستعمار يحجزنا عن العالم ويمنع صلاتنا به ان تتوثق فلم نكد نحس مشاكل الانسانية الواسعة ، وندرك الى اي مدى هي مرتبطة بمشكلاتنا . ولكن الثورات التحررية التي نبتت في قلب العالم العربي قد اعادتنا الى التيار العام ، تيار الحياة . فأصبحنا ناسى وننفعل ونتأثر بمايقع في جوانب العالم المختلفة لاننا اصبحنا نعلم ان مايصيب الانسان في اي مكان انما يصيبنا نحن ايضا . فنحن نحتج على اجراء التجارب الذرية في اليابان ، كما نحتج على اجرائها في الصحراء الكبرى قريبا من بلادنا . ونأسى لمأساة اضطهاد في امريكا كما نأسى لمأساة اضطهاد في العراق او في الجزائر . فحين ينمحى الظلم والعدوان في كل مكان تتعانق الانسانية ويسود السلام .

(١) قصيدة « البعث الافريقي » من ديوان « اغاني افريقيا »

(٢) لجيلي عبد الرحمن قصيدة رائعة في تحية المؤتمر الاسيوي الافريقي نشرت في جريدة المساء سنة ٥٨

ومن روائع الشعر الثوري الانساني وقممه العالية قصيدة « لوسى (١) لمحي الدين فارس ، تلك الفتاة الامريكية السوداء التي ابى عليها البيض ان تدخل الجامعة ولاحقوها بصنوف الاضهاد . وفي مطلعها يقول :

سمعت الروايه
سمعت تفاصيلها للنهايه
وجئت حزينا ارش على كل درب اسايا
لا لانك مثلي سوداء مثلي
ولونك لوني وجرحك جرحي
وحزنك حزني تنم عليه مقاطع لحني
ولكن لانك انسانة
معذبة في الدجى شارده
تدقين باب الحياة الكبير
فتوصد ابوابها الجاحدة

وفي جزئها الاخير يقول :

انما أبحث عن أرض الحقيقه
والمساواة التي تنعم في احضانها كل الخليقه
والعصافير الطليقه
حيث ينمو الزهر من غير أواني
حيث لا تنبت في الاعماق اشواك الهوان

ومن هذا النبع الانساني ايضا تنبعث الكثير من قصائد محيي الدين فارس مثل « ذكريات الحرب » و « السلام الاخضر » و « أغنية جديدة » وقصيدة « شهيد من اليابان(٢) لحسن فتح الباب من درر هذا الاتجاه الانساني. فهي قصة صياد ياباني ذهب ضحية التجربة الذرية الامريكية في جزر بكيني بالمحيط الهادي بعد ان قاسى امر العذاب ..

ويلاه ذاب شعره ولم يمت
وغاض ماء وجهه ولم يمت
وحين مات لم يكن به رمق
يصد عنه غائل الحريق
واساقطت قبل الوداع منه كلمتان :
« لا موت بعد اليوم بالغبار »
فكان اخر الضحايا في تجارب الدمار

لقد صور الشاعر في قصيدته جمال الحياة ثم فظاعة الدمار الذي تسببه التفجيرات الذرية ، وتحدث عن أسرة الصياد ، وكيف تنتظره دون جدوى زوجته واولاده ، في كلام أليف مؤثر ، ثم العذاب الذي لاقاه بعد ان لحقه الغبار الذري بالمرض والتشويه ، ثم ينتقل بنا في الفقرة الاخيرة الى الدعوة الثورية الانسانية :

ياأصدقاء الشمس يا طلائع النهار
يا ايها العمال في شواطىء البحار
لترتطم تجارب الدمار
بصخرة الاصرار
لن يسقط الاباء في محارق الرماد
لن يرجع الابناء تائهي الوجوه
لن يطفىء الجلاد نضرة العيون
لتنحطم على جداركم يداه

(١) الاداب عدد ايار ١٩٥٨

(٢) الاداب عدد ايار ١٩٥٨

مـن قبل ان يحطم الحيـاة

كذلك قصيدة « البنت التي ولدت ميتة » (١) لمجاهد عبد المنعم مجاهد دعوة انسانية ضد التجارب الذرية .

ومن هذا الاتجاه الانساني قصيدة « الى مشوه الحضارات » (٢) اي هتلر ، يهاجم فيها الشاعر صالح جودت الفلسفة العنصرية التي قامت عليها النازية وفيها يقول :

يا راسم الارض حلالا لـه يشقيك ما انت لهـا راسم
اغرقتها في دم ابنائها وانت فـي لجتها عائم
وقلت اجناس وقسمتها فضلت القسمة والقاسم
ما انكرت حـواء اولادها يوما ولا انكرهم آدم
الابيض الناصع من بطنها وصلبه الاسود الفاحم

على ان الشعر العربي الثوري المعاصر اذا كان قد عبر عن الثورات الوطنية والقومية والانسانية ، فانه لم يغفل التعبير عن الثورة الاجتماعية وهذه الثورة قد تكون ضد الفقر والظلم الاجتماعي الذي يتمثل في الاقطاعيين والمستغلين ، كما قد تكون ضد تقاليد واوضاع اجتماعية او اوضاع اخلاقية فيما يكون بين الناس من معاملات . أو تكون ثورة ضد تقييد حرية الفكر واضطهاد الكتاب الاحرار ، بل احيانا قد تكون ثورة ضد بعض الاتجاهات الفنية في الشعر نفسه .

ولقد كانت الثورة ضد الاقطاع والظلم الاجتماعي مقترنة دائما بالثورة ضد الاستعمار والحكم الداخلي الفاسد ، لان الاستعمار والحكم الفاسد لاهم لهما الا استنزاف خيرات الشعب لمصلحتهما الخاصة ، دون أية محاولة لرفع مستوى الشعب نفسه الذي يقدم لهم الخيرات بكفاحه وجهاده بينما يتمرغ هو في الفقر والشقاء . وهنا نعود مرة اخرى الى شعر سليمان العيسى وكمال عبد الحليم . ففي قصيدة « الارض التي وزعها المذياع (٣) للعيسى نراه يصور ظلم الحكام الفاسدين واستبدادهم بصغار الزراع واغتصابهم لارضهم ونفاقهم حين يذيعون في المذياع برهم بالفلاحين واصلاحهم لاحوالهم . كذلك قصيدة « شارع ابي رمانة » (٤) ثورة ضد الاستغلال الذي يتيح لبعض الناس اسرافا في المتعة والثراء بينما يتمرغ المستغلون في جحيم الفقر :

الشرفـة البيضـاء من يدري اكانت غير حقل
مزقت فـي أشـواكه صدري ومـزق صدر أهلي
وعصرت فـوق ترابـه روحـي على رهـق وذل

. . . .

هيهات يهدأ دونهـا المي وعاصفتي وغـلي

وفي قصيدة « يقولون (٥) نـرى الشاعر يخاطب من يلومونه لانه يساهم في رفع لواء الثورة الاجتماعية :

يقـولون هجتم علينا القطيع وهـا فمه لـم يعد يلجـم
تمرد حتـى الاجير الحقير واصبح من لطمـة يالـم
اكان الورى غير مستضعـف يطيع ومستضعـف يحكـم
بـلى قـد أثرنا القطيع الذليل سـواعد مفتولة تزحـم

(١) ص ٩٥ ديوان « اغنيات مصرية »

(٢) ص ٩٦ من ديوان « ليالي الهرم »

(٣) من هذا النوع ايضا قصيدة « القرصان الكبير » لمحيي الدين فارس في ديوانه « الطين والاظافر » ، واخرى لتاج السر الحسن في ديوان « قصائد من السودان »

(٤) « العاصير في السلاسل » ص ١٦٨

(٥) ص ٤٣ ديوان « رمال عطشى » .

وفي ديوان « اصرار » لكمال عبد الحليم نجد اكثر من قصيدة في هذا المعنى مثل قصيدة « اصرار » ومثل قصيدته عن الفلاح في مصر وعنوانها « في قبضة الفاس » وقصيدة « قصور وقبور » و « معسكرات » التي يوضح فيها تعاون الاستعمار والملك والاقطاعيين على استغلال الشعب. اما قمته الرائعة « لن يعيش » التي كتبها ١٩٤٨ ففيها يتنبأ بخلع الملك السابق ويصور بؤس الشعب . يبدأها بالحديث عن الملك وعن خوفه من الشعب بقوله :

وصوف على جسمه فوق صوف ولكن هيكله يرتعش
وخمر لتنسيه وقع الصروف وتنسيه سلطانه المنكمش
ونار الرصاص وطعن السيوف وما طاش منها وما لم يطش
وصوف وخمر ونار تطيش وتردي وهيكله يرتعش
ترى هل يعيش ؟ وكيف يعيش ؟ وعيد الجماهير ان لم يعش

ثم يصف بؤس الشعب بأبيات منها :

تعيش الجماهير بين الحفر وفوق التراب وفوق القذر
تموت الملايين بل تنتحر ضحايا الظلام صغار العمر
تموت من العرق المنهمر ومن قسوة العيش بين الحفر

ثم يعود مرة اخرى الى الحديث عن الملك ويتنبأ بالثورة بقوله :

لقد كان يأكل في نومـه وتبنى الحياة أكف الجيـاع
وكم كـان يلهـو بنيرانـه ويضحك حين يمـوت الرعاع
أفاق على النار في كأسه وقد غاب منها بريق الشعاع
على رعشة المـوت في جلده كمن ادركته نياب السبـاع
لقد ثار من كان في ارضه يبيع سعادته كالمتـاع
يبيع لـه النـور من عمـره يبيع لـه روحه والـذراع

وقد دفع هذا الموقف الاجتماعي ضد الفقر والاستغلال هذين الشاعرين الى موقف فني ينكران فيه الشعر الذاتي الذي يتحدث عن الحب وعن جمال الطبيعة وغير ذلك من الموضوعات الوجدانية . ففي قصيدة « يقولون » التي أشرنا اليها نجد سليمان العيسى يقول :

بلى انـا للحلـم لا للنضـال اذا لم تكن من دمي تفعـم
وللحب ان كـان فـي حينا فـم بابتسامته ينعـم
بل انا للحلم لا للنضال اذا لـم يكـن فـي عروقي دم
وزخرف دربي سـوى معدم يشـاطـره داءه معـدم
اذا كان حولي سوى مجهديـن على بيـع انفاسهم أرغمـوا

ونفس هذا الموقف يقفه كمال عبد الحليم في قصيدته « الى الشاعر التائه». وان كان للشاعرين كليهما شعر ذاتي عاطفي بالغ الروعةوالحرارة.

اما الثورة ضد محاولات الاستبداد لقتل الفكر الحر ، فليس أروع من قصيدة « برونو ابدا » المنشورة في عدد نيسان ١٩٥٨ من الاداب ، للاستاذ هنري صعب الخوري . انها صرخة ضد كل من يقف ضد الحرية الفكر وانذار له بان الفكر نفسه سيقتله . وبرونو فيلسوف ايطالي احرق في روما شهيدا في أواخر القرن السادس . وعنوان القصيدة«برونو أبدا» اي سيكون هناك دائما ابدا مجاهدون في سبيل الحق مستعدون للتضحية في سبيله مثل برونو . وهذه القصيدة قد قيلت قبيل الثورة اللبنانية ١٩٥٨ صرخة احتجاج على اغتيال الفكر والمفكرين واحرارالكتاب، بعد محاولة رشوتهم ارضاء للمستعمرين ذوي الدولار . وهي قصيدة حارة لافحة رائعة ساضطر الى الاكتفاء بايراد مطلعها :

ستموت مطعونا بريشته
ستموت ياخفاش ياجدثـا
للحرف يا جـلاد كلمته

ياحانوى الاثـم

يا جرسـا للظلـم

يا بنـاء قبتـه

ستمـوت مطعونـا بريشتـه

وقد تكون ثورة الشعر ثورة عامة ضد الالم والشقاء كما في قصيدة صلاح عبد الصبور « عيد الميلاد » (١) التي يختمها بقوله :

يا لاهثا فوق الصليب يكاد يسالك الصليب

لم مت من دون الصليب ؟!

او ثورة ضد الاستكانة ودعوة للايمان بقدرة الانسان مثل قصيدة « الملك لك » (٢) او ضد التراخي والكسل والالتجاء الى الغيبيات والاحلام مثل « خبز وحشيش وقمر » لنزار قباني . (٣) او ثورة اخلاقية ضد التزلف والنفاق وموت الضمير مثل قصيدة « دفاع عن الكلمة » (٤) لاحمد حجازي التي قدم لها بقوله « الى الذين ماتت كلماتهم لان ضمائرهم ماتت » وفيها يقول :

وأنا الاصغر لم أعرف مصاحبة الامراء

لم أتعلم خلق الندماء

لم أبع الكلمة بالذهب اللالاء

ماجردت السيوف على أصحابي فرسان الكلمة

لم أخلع لقب الفارس يومـا

فوق أمير أبكـم »

وقد تكون ثورة اجتماعية من لون اخر ، ثورة ضد التفسخ في العلاقات الانسانية وضد العزلة الروحية وعدم التضامن والتآخي التي يشعر بها الناس في مدينة من الزجاج والحجر (٥)

الصيف فيها خالد مابعده فصول

بحثت فيها عن حديقة فلم اجد لها أثر

وأهلها تحت اللهيب والغبار صامتون

لو كلموك يسألون كم تكون ساعتك !!

وهذا الاحساس يعبر عند الشاعر احمد حجازي في اكثر من قصيدة من ديوان « مدينة بلا قلب » مثل « انا والمدينة » و « مقتل صبي » ،ولكنه يصل الى قمة ثورته في قصيدة « الطريق الى السيدة » التي يختمها بقولـه :

ياقاهـرة

أياقبابا متخمات قاعدة

يا مئذنـات ملحـدة

يا كافـرة

أنـا هنا لاشيء كالموتى كرؤيا عابـرة !

وان كان في قصيدة « رسالة الى مدينة مجهولة » يعود بعد سخطه على اهلها الى تعرف حقيقتهم ، فرآهم مثله طيبين معذبين محتاجين للعون فاتخذ منهم أصدقاء :

وفي المساء قارب الظلام خطوتنـا

رأيتهم واروا وراء الليل موتاهم

وانهمرت دموعهم واخضل مبكاهم

وامتدت الايدي وأجهش الطريق بالبكاء

قلت لهم .. يا أصدقـاء !

وهناك ثورة اجتماعية اخرى ، ثورة المرأة العربية ضد التقاليد والقيود التي يكبلها في المجتمع ، يريد ان يسجن ملكاتها ويقبر مواهبها ، او ثورة ضد ظلم المجتمع الذي يكيل لها بكيل غير الذي يكيل به للرجل .

فمما يمثل الحالة الاولى تلك القصيدة الحارة الثائرة لفدوى طوقان « وراء الجدران » (١) تبداهـا بقولها :

بنته يد الظلم سجنا رهيبا ... لوأد البريئات امثاليه

وكرت دهور عليه وما زال ... يمثل كاللعنة الباقيه

وقفت بجدرانه العابسات ... وقد عفرت بتراب القرون

وصحت بها يا بنات الظلام ... ويا بدعة الظلم والظالمين

لعنت : احجبي نور حريتي ... وسدى علي رحاب الفضاء

ولكن قلبي هذا المفرد ... لن تطفئي فيه روح الغناء

لعنت سواي امامك تعنو ... وتخرسها غضبات الطغاة

ولكن مثلي ستبقى برغمك ... بنت الطبيعة بنت الحياة

اغني ولو سحقتني القيود ... أغاريد نفسي واشواقها

تبارك لحني امي الحياة ... فلحني من عمق اعماقها

اما الحالة الثانية فتمثلها قصيدة نازك الرائعة « غسلا للعار » (٢) تلك التي تمثل قتل الرجل للمرأة غسلا للعار بينما الرجل القاتل غارق في أثامه وفجوره لايحاسبه أحد . وفي المقطوعة الاولى من القصيدة تصور الشاعرة لحظة القتل ذاتها بكل بشاعتها ، وفي المقطوعة الثانية تصور ذهاب القاتل الى الماخور يلهو بعد ان قتل ضحيته . وفي الثالثة تصور تناقل اهل الحارة لخبر الفاجعة وتبجح القاتل وفخره بفعلته :

وسيأتي الفجر وتسأل عنهـا الفتيات

« أين تراها » ؟ فيرد الوحش « قتلناها »

« وصمة عارفيجبهتنا وغسلناهـا »

وستحكي قصتها السوداء الجارات

وفي المقطوعة الاخيرة تبلغ الذروة اذ تلخص مأساة المرأة في الشرق التي تخشى ان تمارس بهجة الحياة خوفا من التقاليد التي نصبها الرجل حولهـا :

« يا جارات الحارة يا فتيات القرية : »

الخبـز سنعجنه بدموع مآقينا

سنقص جدائلنا وسنسلخ أيدينـا

لتظل ثيابهم بيض اللون نقية

لا بسمة لا فرحة لا لفتة فالمدية

ترقبنا في قبضة والدنا واخينـا

وغدا من يدري اي قفار

ستوارينـا غسـلا للعـار

وبعد ، فاحسب اني قد اطلت ، وارجو ان يغفر لي الجميع انني لم اشر الى قصائد لاتقل روعة عما استشهدت به ، فعذري ان شعر الشباب المعاصر ملىء بالروائع بعكس مايتهمه المعارضون ، وفي هذه الايام القليلة قد أعدت قراءة اكثر من ثلاثين ديوانا لشعراء الشباب كلهـا مليئة بما يستحق الخلود .

القاهـرة

ملك عبد العزيز

(١)و(٢) ص ١٨٤ من ديوان « الناس في بلادي »

(٣) ديوان قصائد من نزار قباني

(٤) ديوان « مدينة بلا قلب »

(٥) من قصيدة «رسالة الى مدينة مجهولة» ديوان «مدينة بلا قلب»

(١) ص ١٠٥ « وحدي مع الايام » .

(٢) ص ١٤٥ ديوان « قرارة الموجة » .

ملامح الادب الثوري في العراق

– تتمة المنشور على الصفحة ٢٤ –

الثوري المعاصر في ادبهم ، الطلاقة والحرية والانطلاق والتحرر من المسؤولية والالتزام الانساني ، ولكنه اصبح اكثر ثقلا ، وابعد تحسسا بعمق الشكلة الانسانية التي يقف حيالها الشعب العربي اليوم ، ومن هنا ، من هذا « القيد الجديد » اصبحت اثار الجيل الثوري من الادباء اعمق تعبيرا عن روح عصرنا الثوري . وذلك واضح بصفة غير مباشرة في آثار نازك الملائكة ، وعلى وجه اشد وضوحا وتعبيرا في اثار السياب وعلي الحلي .

ان هذه الخصيصة يمكن تفسيرها ، بان الادب الثوري في العراق قد زاد فيه عنصر الشوق والتطلع ، فيما قل فيه عنصر التأمل . ويبدو ذلك بشكل عنيف جائح في معظم قصائد السياب التي يؤكد فيها ارتباط الفردية بالاجيال المتعاقبة ، حتى كأنه يصرخ مستشرفا على اجيال التاريخ ، بانه جزء منها ، يتطلع اليها من اعماق تجربته الجديدة، التي لم تكن سوى حلقة من حلقات تاريخ بأكمله . وهكذا غدا هذا اللون من التعبير ، تعبيرا عن عبقرية هذه المرحلة التي يمكن وصفها بانها « العبقرية الثورية » .

وهنا ايضا ، انتهت وحدة الاسلوب التي كنا نعرفها في آثار الادباء الذين عاشوا قبيل الطليعة الثورية ، فبدت طلائع الاساليب الذاتية المتباينة . فقد كان من العسير في معظم الاحيان ان يميز بين كثير من اثار الرصافي والشبيبي والسماوي والزهاوي والبصير ، اذ كانت تجمعهم وحدة الاسلوب ، ووحدة التجربة . وحتى الجواهري كان موضع جهد في التعيين والتمييز . وقد يرجع السبب في ذلك ، الى انعدام النزعة الانسانية ، التي نشأت منها الدعوة الى الاهتمام بالتجربة الفردية ، التي لا موضع معها للتماثل في الصيغ والاساليب . « فالطلبة في فصل واحد ، يرددون درسا واحدا » – كما يقول احد النقاد الفرنسيين – وجميع اولئك الشعراء كانوا بمثابة الطلبة في الفصل الواحد ، خضعوا لظروف واحدة ، واستخدموا لغتهم في تجارب متشابهة فيها تطابق وتعميم .

اما ادباء الطليعة الثورية ممن بلغوا نضجهم الفكري قبيل عام الكارثة، ١٩٤٨ ، فقد احسوا بان عليهم ان يقولوا شيئا جديدا ، وان يكتبوا ذواتهم من جديد . وهكذا فاننا لا نكاد نجد اثرا هاما لهؤلاء الشعراء ، بل الادباء عامة يسبق عام الكارثة ... لقد انسلخ الشعب العربي بأسره ، منذ تلك الحقبة ، من جلده القديم ، وقفز للحياة . وهنا احس الاديب العربي في العراق ، كما احس غيره من الادباء العرب بعد الحرب العالمية الثانية، وبعد عام ١٩٤٨ بالذات ان الشعب العربي يؤلف امة لها سمك حضاري ، وينبغي ان يكون لها دور ايجابي في الحضارة الانسانية ... احس هذا الاديب ان اجيالا متطاولة قد انصهرت جميعا هنا في ارض المعركة . فبدأ ذلك التحول الذي نعرفه في كثير من الاداب الاخرى .. تحول من السلب للايجاب . وادباء هذه الفترة يمثلون تحولا في الادب العراقي كذلك التحول الذي عرفناه مثلا في الادب الايرلندي .. فقد كان توماس ديفيز مثلا يتغنى بايام ايرلندة القديمة ، وباللغة الايرلندية التي كانت تتجاوب بها اركان الجامعات في الايام السالفة . بيد ان الثورة الايرلندية قد جعلت ما قاله توماس افوالامتخلفة ساذجة لا تعبر عن حقيقة الثورة الايرلندية المتعالية ، هذا هو بالضبط ما تكرر في العراق . فالرصافي والزهاوي وحتى الجواهري في كثير من اشعاره وفهمي المدرس ومحمود احمد السيد ويوسف رجيب من الكتاب كان موقفهم كموقف ديفيز من التحسر على الفراديس المفقودة ، اما طليعة الادباء الثوريين فقد بدأوا يحاولون باسلوب وبآخر ، التعبير عن ثورة متصاعدة عميقة حية ، وعن كفاح من اجل ارفع القيم الحضارية التي انطوى عليها صراع الشعب العربي في السنوات الاخيرة . واننا اذ نرى بعض التعثر في آثار هذه الطليعة الثورية ، فان مرد ذلك الى المفاجأة الضخمة السريعة التي انشق عنها جيلنا الحاضر من خلل المعركة الداهمة.

وهناك الى جانب هذه الخصائص الثورية في الادب العربي في العراق، نجد مضاعفات اخرى ، اخرجناها عن نطاق الاتجاه العام الذي تحدثناعنه. وقد سادت هذه المضاعفات ادب العراق لعدة سنين ، ثم اصيبت بنكسة قاتلة بعد ثورة ١٤ تموز ، اذ فقد الادباء الذين خضعوا لها ، قدرتهم الاعتراضية على النظم والمؤسسات التي اقيمت بعد الانحراف الفاجع الذي اصيبت به الثورة . وفي الامكان ان نؤكد هنا ان مثل هذا الاتجاه كان يستمد وجوده من قوة الاعتراض التي كسبها خلال صراعه مع النظام السابق ، وبمجرد ان بطل اعتراضه وتحول الى قوة اسناد ودفع ، اصيب بانتكاسة تكاد تفقده الحياة . ومرد ذلك الى ان هذا الضرب من الادب الذي يمثله الشيوعيون بصفة خاصة ، لم يضع ازمة الانسان العربي في الوطن العربي ، موضع اهتمامه ، بل تعداه الى بحث ازمات اخرى مصطنعة ، تنطوي على اشد المعاني سطحية وبعدا عن كياننا الاصيل .

ان ازورار ادباء هذا الاتجاه عن فهم امتنا الضخمة الغنية الحية ، هو السبب في خلو تجاربهم من المضمون الانساني الحق . فان عبد الوهاب البياتي ، وهو افضل معبر عن هذا الاتجاه ، قد اصدر ديوانا كاملا بعنوان « عشرون قصيدة من برلين » قدم له الشاعر التركي ناظم حكمت ، كان خلوا من اي اثر من الاثار النفسية التي تخلفها ازمتنا الراهنة .

وقل مثل ذلك في غيره من الشعراء والكتاب الاخرين من امثال طالب الحيدري وحسن البياتي وبافرسماكه فالعيون الطافحة بالنور هي دائما عيون فتيات طاشقند ، والمداخن التي تهب الحياة هي دائما المداخن الرابضة على الفولغا ، والمأساة هي دائما مأساة بوخن فلد ،والثغور الطيبة الباسمة هي دائما ثغور الملايين بين باكوم والقرم !..

هؤلاء هم الذين اثروا الوقوف بوجه تحقيق مصيرنا الحضاري، فحق لنا ان نحذفهم هنا ، كما سنحذفهم هناك .

القاهرة — **محيي الدين اسماعيل**